ضربة الجبان

صورة النظام المجرم والإرهاب الأسود .
سنوات التصفية الإنسانية في سجن تدمر الصحراوي

رمضان إبراهيم عرب

دار الأرقم للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم.

((من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ..))

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين. وبعد:

إلى الذين سبقونا إلى الله – عز وجل – ممن قضوا على أعواد المشانق أو بوسائل التعذيب الإجرامية الرهيبة.

وإلى الرجال الذين تحملوا نار المحنة ولهيبها فلم تزدهم ضراوة المحنة إلا إيماناً وثباتاً.

أهدي هذه الصفحات راجياً عفوا الله ومغفرته .

* * 1 * *

في قلب تلك المدينة الصحراوية " تدمر " كان يقبع مكان أشبه ما يكون باللغز لأن أحداً ممن هو خارج السجن لا يدري ما يجري فيه على امتداد عشرين عاماً.

لم يكن سكان المدينة يرون سوى سيارات تمضي إلى ذلك الوادي القريب المسمى بوادي " عويضة " برفقة آلة الحفر والردم "التراكس" مع مجموعة من عناصر الشرطة العسكرية، وهناك يتم حفر الأخاديد لتلقى بها جثث الشهداء الذين تمت تصفيتهم على أعواد المشانق، أو قضوا تحت التعذيب، ثم يهال عليها التراب.

كانت عمليات الإعدام تتكرر مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع في أعوام الثمانينيات الأولى، حيث كان يدخل فوج من بوابة السجن ليخرج فوج آخر من البوابة الخلفية جثثا هامدة، يوما إثر يوم.

في ذلك الوقت لم يكن أحد يجرؤ حتى على الهمس ليتحدث عما يرى أو يخمن بما يجري داخل الأسوار، إذ كان يطلق على سوريا اسم مملكة " الصمت المرعب ".

لقد كان سكان المدينة القريبون من أسوار السجن يسمعون أصوات الصياح تنبعث كل صباح أثناء حفلات التعذيب اليومية التي كان يسامها سجناء هذا السجن الرهيب.

لقد دخل هذا السجن عشرات الآلاف، لكن الذين خرجوا منه أحياء كانوا بضعة الاف.. كانوا – في حكم الطغاة المجرمين – بمثابة الأموات أيضا، جراء الأوضاع المأساوية التي خضعوا لها خلال سنين طوال.

لقد قضى شباب الإخوان المسلمين في هذا السجن أقسى محنة عرفها التاريخ البشري، فقد لجأ المجرم حافظ أسد " فرعون الشام " الى أساليب لا تخطر على بال إبليس في التنكيل بتلك القوافل من الشباب الماجدين، حتى كأن الطاغية المجرم قد استفاد من كل تجارب الأشرار على امتداد التاريخ الإنساني واستعان بكل خبرات جلادي البشرية لينفذها في سجن تدمر.

إن اللغة العربية على فصاحتها وبلاغتها وثرائها تقدم الاعتذار حين يستعان بمفرداتها لنقل وترجمة وتسطير وتصوير ما جرى في سجن تدمر الصحراوي الرهيب..

قد تعجز الأقلام أحيانا عن التصوير

وتضن بالكلمات والتعبير

عفوا ومعذرة.

" شاعر المحنة "

* * 2 * *

كان ذلك منتصف الليل حين بدأ السجان بقراءة أسماء في فرع التحقيق العسكري القابع تحت الأرض حوالي عشرة أمتار، حيث كان السجين لا يستطيع رؤية أصابع يديه حين تطفأ الأنوار. وبدت سحابة من الخوف تخيم في سماء المهجع أثناء قراءة الأسماء وكأنه نذير شؤم وشر، بعدها طلب السجان منا أن نجهز أنفسنا بسرعة.. كان قد مضى على إقامتنا في هذا الفرع ستة أشهر.. تقدم مني طبيب فلسطيني كان قد مكث في هذا المكان حوالي خمسة أعوام لأن ولاءه كان للزعيم الفلسطيني (ياسر عرفات)* وكانت قد بدأت تصل بيننا خيوط من الصداقة.

* كانت العلاقة سيئة في ذلك الوقت بين عرفات وحافظ أسد بسبب رفض عرفات إملاءات النظام السوري ورفض احتوائه من قبل أسد .

سألني الطبيب: إلى أين؟ (كانت الحسرة والألم تصبغ كلماته).

أجبته: إلى تدمر إلى أن يموت أو نموت (حافظ أسد). لأنه لم يُعْرَف أنَّ أحداً ذهب إلى سجن تدمر وعاد منه. كان الطبيب الفلسطيني يعرف عنوان الرحلة جيدا من خلال الخبرة التي اكتسبها في هذا الكهف اللئيم القذر..

قال لي: نعم يا أخي.. إلى تدمر.. تذكر بلالا وعمارا وياسرا.. ثم احتضنني وعانقني وفي عينيه دمعة. وعاد إلى زاويته التي يرقد فيها

منذ أعوام تلفه عباءة من الحزن والألم أسفا على الشباب الذين يرحلون، ويقدمون قربانا لعرش طاغية مجرم..

وعلى قلة الجلسات التي قضيتها مع الأخ الفلسطيني بسبب ضيق المكان، حيث زج في المهجع الذي كنا فيه أكثر من مئة موقوف في مساحة لا تزيد عن ٢٥ مترا مربعا، فقد كنا ننام بطريقة لا تخطر على بال شيطان عرفت ب " التسييف " حيث يستلقي السجين على جنبه، ويأتي آخر فيستلقي على جنبه بطريقة مخالفة ملتصقا بالآخر بقوة، وهكذا.. ستة. سبعة.. وحين يأتي آخر واحد يضغط رئيس المهجع براحة قدميه على المستلقين لينزل آخر واحد. وإذا ما اضطر أحد أفراد المجموعة المصطلح عليها في فرع التحقيق باسم "القصعة" إلى النهوض خلال نوبة نومه فإنه لن يتمكن من العودة لمكانه من جديد، وبالتالي يكون قد خسر دوره في النوم..

هكذا كانت الطريقة في النوم، نصف أفراد المهجع ينامون، والنصف الآخر يقظون، يجلسون القرفصاء طوال فترة يقظتهم لمدة ست ساعات، يتبادلون فيها الأماكن مع النائمين ...في مكان لا تعرف فيه نفسك أفي ليل أنت أم في نهار.. كما أن السجين لا يرتاح خلال النوم.. ولا أثناء اليقظة.

لقد صارحني هذا الطبيب بأنه يندم على شيء واحد في حياته: هو أنه لم يتعامل مع نظام حافظ أسد كعدو.

* * 3 * *

جمعونا في غرفة فارغة، كان عددنا اثنين وثلاثين سجينا، منهم أربعة أشخاص من البعث اليميني المحسوب على النظام العراقي، وشاب فلسطيني واحد.. هؤلاء البعثيون سيشكلون لنا مشكلة فيما بعد، لأنهم من ذوي الثقافات الضعيفة، كما أنهم مرتزقة – باعترافهم – فكانت نفوسهم تفيض بالحقد والحسد تجاهنا لأن غالبيتنا من حملة الشهادات الجامعية.

حين اجتمعنا مع بعضنا في تلك الغرفة كان بعض الإخوة يظن أننا في الطريق إلى محكمة سيتم الإفراج عنا بعد عرضنا عليها. هكذا وعدهم بعض أبالسة التحقيق لابتزاز أكبر كم من المعلومات، كما يكشف عن سذاجة قاتلة لدى بعض الإخوة.. لكن سنوات المحنة الشديدة الوطأة كشفت عن معدن طيب لأولئك الإخوة الذين انتموا إلى التنظيم في ظروف استثنائية، وذلك حين قامت الأحداث في نهاية عقد السبعينيات وبداية عقد الثمانينيات الذي اعتقلنا في نهايته، ولم يكونوا قد تربوا في صفوف الإخوان ولا نهلوا من معين فكره ولا عرفوا أدبياته .

كانوا شبابا طيبين ذوي ميول دينية ومشاعر قوية تجاه الإسلام.. وجدوا أنفسهم فجأة في وسط محنة رهيبة لم تكن تخطر لهم على بال، وبالتالي لم يحسبوا لها حسابا، لكنهم واجهوها بشجاعة ... وحين

سألتقي بهم في نهاية المحنة، سأجدهم شبابا ناضجين، قد صقلتهم المحنة، وكشفت عن معدن أصيل لهم ...

بعد صلاة الفجر بدأ الإعداد لأفظع رحلة في التاريخ الإنساني سبقنا إليها عشرات الآلاف من خيرة شباب الوطن. وضعوا القيود في أيدينا والسلاسل المعدنية الغليظة في أرجلنا وشدوا بقوة عصابات على أعيننا ثم وضعونا في حافلتين. وبدأت رحلة الآلام والعذاب ...

لقد كنت أحس أن القيود ستقطع معصمي، وشعرت بألم مرعب أثار في نفسي الغثيان، وكاد يغمى علي أكثر من مرة.. بقيت أكثر من ثلاثة أشهر لا أحس بإبهامي، كما كانت عيناي تؤلمانني من شدة قسوة العصابة على عيني. في تلك الساعات كان الموت أمنية لي، كنت أود لو أن مجموعة مسلحة تلاقينا على الطريق لترمي الحافلة بقذيفة صاروخية تحيل الحافلة إلى رماد.. هذه الأمنية ستتكرر كثيرا خلال إقامتنا الطويلة في سجن تدمر الرهيب.

كان برفقتنا مجموعة من عناصر المخابرات العسكرية.. كانوا لا يمتون إلى عالم الإنسانية بصلة إلا في أجسامهم، ولا يمكن وصف هؤلاء الأوباش بالوحوش، لأن الوحوش تعف عن تصرفاتهم، فهي مفطورة على القتل لتعيش، ولا تحركها دوافع شريرة كالحقد والأذى وحب الانتقام.. كان هؤلاء العناصر يقذفوننا بأقذع ألفاظ الشتائم، ويوزعون علينا الركلات واللكمات طوال الطريق، ولم أكن أتألم من تلك الضربات لأن ما كنت أعانيه من قسوة القيد في معصمي كانت تغطي كل مساحات الألم الجسمية..

* * 4 * *

وصلنا سجن تدمر صباح الواحد والعشرين من آذار. كان الناس في هذا اليوم يحتفلون ب (عيد الأم)!! فأي عيد هذا الذي قدم على أمهاتنا ؟! وعندما كنا في فرع التحقيق العسكري كان عناصر المخابرات، بتوجيه من إدارتهم ينشرون الشائعات، كقولهم: أن الرئيس سيعفو.. وأن الرئيس سيفرح قلوب الأمهات.. وأن الرئيس سيفعل كذا.. وأن الرئيس ... كل شيء في بلدنا يفعله الرئيس، لا شيء، ولا أحد غير الرئيس، وبأمر من الرئيس، الرئيس فقط ، ولا أحد سواه.. فلا يتكلم وزير، ولا رئيس وزراء، ولا قائد عسكري ولا مسؤول مدني، ولا.. ولا.. ولا.. إلا ويباعد بين شفتيه قائلا: سيادة الرئيس قال.. سيادة الرئيس وعد.. بنى.. أشار.. وتحت رعاية الرئيس تم.. قام.. حصل.. تخرج.. ومن مكرمات الرئيس كذا.. ومن عطاءاته كذا ...

كان الوقت ضحى حين بدأنا بالنزول من الحافلة، وبمجرد أن وضعنا أقدامنا على الأرض استقبلنا عناصر الشرطة العسكرية بالضرب والشتائم، لم نكن في نظرهم بشرا ولا حتى حيوانات، كنا لا شيء كما قالها أحدهم، فدمنا مهدور منذ اللحظة التي وضعنا فيها أرجلنا بباب السجن الرهيب.. هكذا يعامل المعارض في بلد الرئيس الفرد الإله

المستبد الظالم الطاغية الجبار الذي لا ينتمي بعقله ولا بفكره إلى عالم الإنسانية، فهو كل شيء، هو أو لا شيء. والسلطة بالنسبة له غاية الغايات ومنتهى الآمال، فهو في سبيل البقاء في السلطة مستعد لتدمير كل شيء.. الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد.. يقتل، يسجن، يشرد، يبيد. يبيع الإنسان.. يبيع الأوطان.. يحتكر، يصادر، يمنع.. يهدم، يصفي.. لا بناء، لا إعمار، لا حياة ...

لقد دمر هذا النظام الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية.. دأبه وديدنه الفساد والإفساد حتى يضمن الاستمرار والديمومة على كرسي السلطة. ليس المهم عنده أن يحكم شعبا. المهم أن يبقى في السلطة، فإن تحول كل أفراد الشعب إلى لصوص وقتلة ومجرمين وحشاشين ومرتشين.. أو مجرد أرقام على هامش ما يسمى ب (الوطن) حيث لا (وطن)، اختزل في شخص الرئيس الأوحد وعائلته.. لا شيء من ذلك يهم..

* * **5** * *

بعد أن فكوا القيود ونزعوا العصابات صرنا بعهدة الشرطة العسكرية (أصحاب القبعات الحمراء) القائمين على تدبير شؤون السجن، والذين ما إن شاهدونا حتى كشروا عن أنيابهم وبدأوا يتسلون

بنا (ركلا وضربا) وفي أي مكان من أجسامنا : الرأس، الظهر، الصدر، البطن ... كله جائز ومباح .....

منذ هذه اللحظة.. على السجين ألا يرفع رأسه أمام أي عنصر من عناصر السجن، وأن يقف أمامه منحني القامة، خافض الرأس، مغمض العينين..

لقد كانت هذه الطقوس الإجرامية الإرهابية التي تفيض بالإذلال والاحتقار والإهانة والازدراء للكينونة الإنسانية أمر وأقسى وأفظع ما عانيته على مدى اثني عشر عاما في هذا المعتقل التصفوي الرهيب. وكم تلقيت أنواعا من الضرب المميت لأنني لم أحن ظهري بالمستوى المطلوب، أو رآني الشرطي فاتحا عيني، أو شيئا من هذا القبيل الذي كان يعتبر جريمة في عرف السجان.

قلت – يوما – لأحد إخواني: إذا سألني الناس عن سبب المشيب في رأسي، فسأجيبهم: إغماضه العينين في سجن تدمر.

* * **6** * *

" في الباحة الأولى كتبت على الجدار

ومن دمي

رقما يدل بأن رب الكون واحد

وبحفلة استقبالنا

كانت نجوم الظهر تلمع في السماء

وتناثرت بقع الدماء..

" شاعر المحنة "

بعدها، بدأ الإعداد لحفلة الاستقبال. أمرنا بخلع ملابسنا باستثناء السروال الداخلي.. حلقوا شعر رؤوسنا، ولحانا، وشواربنا.. على الصفر. ومنذ هذه اللحظة سنبقى على هذه الهيئة (حليقي الرؤوس واللحى والشوارب) إلى أن نخرج من هذا السجن الرهيب.

بعد أن فرغوا من الحلاقة أحضروا دولابين، وباشروا بإدخالنا فيهما على التوالي لينال كل منا نصيبه من السياط اللاهبة.. بدأ الضرب، وارتفع الصراخ ليمزق جدران الصمت الكثيفة في هذا السجن الغامض.. انهال الضرب علينا بلا رحمة.. ولا شفقة.. ولا إنسانية.. سيستمر الضرب بلا عد حتى يتمزق جلد أرجلنا، ويسيل منها الدم بسياط مجدولة قيل إنها (أقشاط دبابة) طولها حوالي ٧٠ سم، وعرضها حوالي ١٠ سم، ولا أدري بالضبط ما سماكتها.. هذه السياط عندما كانوا يأتون بها إلى الباحات ويضربون بها أعمدة المهاجع كان المهجع يرتج جراء الضربة.. هذه السياط اللئيمة كان يجلد بها الفرد منا بمئات الجلدات أثناء حفلات التعذيب، وقد تصل إلى ألف جلدة للفرد الواحد إذا استعصت رجليه على التمزق ..

إن سجن تدمر هو جهنم " حافظ أسد "، كما يحلو لزبانيته أن يسموه .

وبعد أن انتهت حفلة استقبالنا، قادونا في رتل واحد: السجين خلف السجين في موكب جنائزي أسود مرير تلفه كتلة من ضباب الرعب والخوف، وتخيم عليه سحابة قاتمة من الألم والحزن، تتخلله الآهات المكبوتة والأنين المكظوم.. في حين يغادره ما تبقى من حياة خارج الأسوار، حيث بدأت أبواب السجن السوداء تقطع كل خيوط الأمل وحبال السنوات التي قضاها السجين مع أهله وذويه وكل ما يمت إلى عالم الإنسانية بصلة ...

* * 7 * *

أدخلونا إلى مهجع أطلقوا عليه اسم " الندوة " في الباحة السادسة.

كان السجن مقسما إلى سبع باحات.. في كل باحة عدد من المهاجع.. هذه المهاجع لها عناوين مختلفة، بعضها أرقام من الواحد حتى السابع والثلاثين على حد علمي توزعت على الباحات السبع باستثناء الباحة الخامسة (باحة الزنازين الفردية والجماعية)، ومنها ما أعطي أسماء، مثل: الندوة، ضهره (ظهره)، شواربه، سواليل أبو ريحه، جديد صدر، جديد حنفية، جديد ثالثة ...

كان مهجع الندوة مرتفعا أكثر من جميع المهاجع، قد يصل ارتفاعه إلى خمسة أمتار، له أربعة نوافذ جانبية متقابلة مفتوحة صيفا وشتاء، بالإضافة إلى فتحة سقفيه مربعة بطول متر وعرض متر تقريبا. لقد كانت هذه الفتحة مورد كل العذاب والألم لنا داخل المهجع، ويصح تسميتها ب " فتحة البلاء " أو " فتحة الموت البطيء "، وسيكون لنا معها وقفات كثيرة، لأنها كانت جزءا أساسيا من المحنة الكبرى التي عشناها ...

بعد أن دخلنا المهجع تقدم مساعد السجن المجرم، وسألنا: من منكم عسكري؟ لم نكن نعرف الغرض من هذا السؤال. تقدم خمسة كنت بينهم، وكان بيننا مساعد متطوع.

قال مساعد السجن له: أنت رئيس المهجع. وقال لي: أنت معاونه. كان هذا التعيين أشبه ما يكون بحكم الإعدام المستمر، خاصة بالنسبة لرئيس المهجع.

* * 8 * *

في السادسة

شاهدت مئذنة تطل على المهاجع من بعيد

خاطبتها: هل تذكرين ملاحم التعذيب أثناء الحلاقة والتنفس والتفقد

هل تشعرين شعورنا خلف الحديد

هل تخبرين القوم عن أشواقنا في يوم عيد

" شاعر المحنة "

بعد أن خرج المساعد وأغلق الباب خلفه بدأنا بمواساة بعضنا البعض وتلمس جراحاتنا.

بعد قليل أدخلوا لنا أغطية بعددنا بالإضافة إلى عوازل عسكرية بنصف العدد، حيث كان لكل اثنين عازل، ولكل واحد غطاء.

عند الساعة الواحدة ظهرا.. جاء مجموعة من أفراد الشرطة العسكرية يتقدمهم صف ضابط ليأخذوا ما يسمى ب " التفقد "، أمرنا بالاصطفاف خمسا خلف خمس. قال الرقيب: هكذا تصطفون للتفقد يوميا، ثم تقدم من رئيس المهجع سائلا: كم عندك؟

كان هذا التفقد حلقة يومية لم تغب عن سجناء تدمر سوى يوم واحد طوال فترة مكوثي في سجن تدمر. وكان التفقد عبارة عن محطة عذاب يومية بالنسبة للسجناء، وخاصة أولئك الذين يكون تفقدهم خارج المهجع. فقد كان تفقد بعض المهاجع خارج المهجع، وبعضهم داخله. أما الذين حالفهم الحظ وكان تفقدهم داخل المهجع فقد خفت وطأة التفقد عليهم، ولكن الذين كان تفقدهم خارج المهجع لاقوا الأمرين، ولك أن تتخيل شدة المعاناة التي كان أفرادها يؤخذ تفقدهم خارج المهجع من هذه الرواية:

حكى لي أحد الإخوة الذين التقيتهم أواخر عام ١٩٩٥ بعد أن أخلي سبيل قسم من سجناء تدمر، وضموا بعض المهاجع إلى بعضها الآخر: أنه في سنة الاستفتاء كان مساعد السجن المجرم (المعروف اسمه جيدا لدى سجناء تدمر) هو من يأخذ التفقد. تقدم هذا المجرم من رئيس المهجع، وقال له:

– رئيس المهجع، هل تطلب شيئا من سيادة الرئيس بمناسبة الاستفتاء؟

أجاب رئيس المهجع: نعم. شيء واحد، هو أن تجعلوا تفقدنا داخل المهجع.

لقد كان التفقد داخل المهجع أمنية، من هول ما كان يعانيه السجناء أثناء ذلك. فرئيس المهجع لم يطلب من سيادة الرئيس إخلاء سبيل، ولا النقل إلى سجن آخر ولا طعاما.. ولا دواء، ولا.. ولا.. لقد كانت له أمنية واحدة ، وطلب فريد: هو أن يصبح التفقد داخل المهجع.

أما أشد وأقسى وأمر معاناة لاقاها أفراد مهجع: فهم أفراد المهجع (١٤) في الباحة الثالثة، لقد كان تفقدهم كارثيا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى حسب ما رواه لنا بعض أفراده الذين التقيناهم في آذار ١٩٩٢ وكما كان يعرف أفراد جميع مهاجع الباحة الثالثة. كان يسمى هذا المهجع ب (مهجع الابتلاءات) من تنفس وتفقد وإدخال طعام.

نعم ، وبالعودة إلى مهجع الندوة والتفقد، فبعد أن يلفظ رئيس المهجع أو حتى قبل أن يتم لفظ العدد بالكامل، تنهال الركلات علينا، وأحيانا كانوا يسحبون سجينا، ويطلبون منه أن يرفع رأسه ويغمض عينيه، ويلطمونه بكل ما أوتوا من لؤم، وما يحملون من حقد، وما يتصفون به من وحشية، وغالبا ما كان السجين يسقط على الأرض من هول اللطمة، وأحيانا أخرى كان يضربه شرطيان: واحد من الأمام وآخر من الخلف على أذنيه بالتزامن. لذلك كان كثير منا قد عانى من تمزق في غشاء الطبلة، والبعض منا فقد سمعه جزئيا أو كليا.

* * 9 * *

بعد الثانية ظهرا يتم إدخال الغداء والعشاء معا، وغالبا ما يكون العشاء " شوربة "، وفي بعض الأحيان يكون " بطاطا مسلوقة ". أما الغداء فكان يتناوب بين البرغل والرز على توالي الأيام والأعوام مع مرقة بطاطا أو جزر أو باذنجان أو كوسا.. كان الطعام رديئا جدا، نأكله لعدم وجود البديل، ولشدة الجوع، ثم اعتدنا عليه، وكانوا عادة ما يضعون فيه حفنة من الحصا، وشوهد المجرمون يتبولون فيه عدة مرات. لقد كانت صورة حافظ أسد تتجلى بأوضح صورة في سجن تدمر، وذلك من خلال المعاملة التي تلقيناها على امتداد عشرين عاما فاضت خسة ونذالة وحقدا ولؤما وجبنا، وإلا فما معنى أن يعامل سجين أعزل

بهذا الشكل المرعب من الإهانة والإذلال والاحتقار والإرهاب والتنكيل والتعذيب؟

كانت مجموعة إدخال الطعام- وكنا قد قسمنا أنفسنا إلى مجموعات من أجل إدخال الطعام والحراسة الليلية وجلي أواني الطعام وغيره.. - مجموعة من الفدائيين عليها أن تنجز هذا العمل خلال ثوان، وهي معرضة للموت في كل مرة.. يخرج أحد أفراد المجموعة عندما يفتح الباب ويسمع صوت الشرطي، يقول: أخرج الفوارغ .. التي هي عبارة عن ثلاثة أوعية " جاطات " ، فيفردها قرب الباب ثم يعود بسرعة إلى داخل المهجع حتى يسمع كلمة " أدخل " بالعامية، فيخرج ثلاثة ليدخلوا الطعام، وإذا ما وقع أي خلل أثناء عملية إدخال الطعام فالويل له. وغالبا ما يتسبب بالخلل الشرطي، كأن يدفع السجين أو يركله مما يؤدي إلى انسكاب قليل من الطعام على الأرض، أو يتعمد أحد البلديات بسكب قليل من الطعام خارج الإناء، فيكون ذلك سببا في صب ألوان من العذاب على السجين، وكأنه ارتكب جريمة كبيرة عليه أن يدفع ثمنها باهظا من العذاب والأذى على أي مكان من جسمه.

أما البلديات فهم عبارة عن حثالة من أفراد الجيش الفارين أو المرتكبين مخالفات شنيعة كالشواذ والقتل والسرقة والاغتصاب و ...أو ..... وغالبية أفراد البلديات المفرزين عندنا، بالإضافة إلى مدير السجن

ومعاونه ومساعده ورقبائه وعناصره، كانوا من أبناء الطائفة النصيرية، باستثناء قلة من العناصر من أبناء المحافظات الشرقية..

في اليوم الأول لم يكن لدى أحد منا رغبة في تناول الطعام، فبقي الطعام تقريبا على حاله. وفي الصباح قلنا لحضرة الرقيب: نريد إخراج الطعام.

فقال: أخرجوه.

ثم نادى رئيس المهجع، وقال له:

- هذه أول وآخر مرة أسمح لك فيها بإخراج الطعام، عليكم أن تأكلوا ما يدخل إليكم ...

فأصبحت قضية الطعام مشكلة لنا في البداية، إذ لا أحد له رغبة في الطعام فكيف سنتصرف؟

قال أحد الشباب: ليس أمامنا سوى دورة المياه لتصريف الطعام. وبدأنا نفكر فيما إذا كان من الممكن تصريف الطعام من خلال دورة المياه. فقال الشاب (الذي اقترح ذلك): أنه يمكن تصريفها دون أن تسبب مشكلة. وشرح لنا ذلك ... وبالفعل تم الأمر، وكررنا الأمر مرارا.. وعلى مرور الأيام أصبحنا نأكل بشكل اعتيادي، ونصرف ما يزيد عن حاجتنا..

بعد أن انتهى موضوع الطعام وقف شرطي على الفتحة السقفية، ونادى رئيس المهجع ، فوقف رئيس المهجع حانيا هامته، مطأطئا

رأسه ، قائلا: حاضر حضرة الرقيب (ضاربا قدمه على الأرض) فقال له الشرطي: رقيب أول يا كذا .... وهكذا في كل مرة، يأتي الشرطي إلى ما كان يسمى ب " الشراقة السقفية " وينادى ، فالإجابة يجب أن تكون: حاضر.. حضرة الرقيب أول، ففي سجن تدمر عليك أن تجيب كل من يتكلم معك من شرطي أو عريف أو رقيب ... أو حتى بلديات، بالرقيب أول. عليك ألا تعرف أي صفة أخرى غير هذا الصفة سواء كانت صحيحة أم كاذبة. الرقيب أول، والرقيب أول فقط.. سواء أدركت بحدسك ما هي صفة المتكلم أم لم تدرك ....

* * 10 * *

وجاء المساء.. أمرنا منذ غروب الشمس بالرقود، تحتنا عازل قماشي رديء جدا، وفوق الواحد منا لحاف، وفترة النوم طولها اثنتا عشرة ساعة يوميا، أو أحد عشر ساعة على الأقل: أحد عشر في الصيف من السابعة إلى السادسة صباحا، واثنتا عشرة ساعة في الشتاء من السادسة إلى السادسة ...

كانت التعليمات تقضي بأن نضع على أعيننا عصابات حتى لا نرى الشرطي الذي يقف فوق الفتحة السقفية، وهي كذلك لون من ألوان التعذيب.. إن رفع أبصارنا والنظر إلى الشرطي يعتبر جريمة كبرى ثمنها باهظ جدا.

عندما استلقينا على ظهورنا، لا شك أن كل واحد منا كان يذهب بخياله بعيدا خلف الأسوار المرتفعة جدا.. ويجتاز الأبواب السوداء الموصدة بإحكام، وكان الحراس الذين يقطعون سطح المهاجع جيئة وذهابا، يصبون بين فترة وأخرى سيلا من الشتائم على الحارس الليلي في المهجع الذي يتبادل الحراسة مع آخرين.. بالتناوب كل ساعتين طوال فترة النوم، وكانت هذه أيضا عقوبة من أقسى عقوبات السجن، حيث يكون مهددا هذا الحارس بالتعذيب ليلا أو نهارا، وذلك عندما يأتي الشرطي، ويقول له:

علم نفسك. ! !

ومعنى " علم نفسك " أنه في الصباح عند ادخال الفطور ستكون السياط المرعبة في انتظاره، أو مجموعة من اللطمات والركلات التي تهز كيان الانسان، وقد تودي بكسر بعض أضلاعه، أو ثقب طبلة أذنه.

* * 11 * *

في الأشهر الأولى كنت عندما أضع رأسي على الأرض (لعدم وجود وسادة) أحلق بعيدا، وأسترجع ذكريات عمري كلها من الشريط الأول المحفوظ في أعماق الذاكرة، وصولا إلى اللحظة التي أحياها ...

كنت – وأنا في هذا الوضع البائس المزري – أشفق على أمي كثيرا. متسائلا في سري:

ترى كيف استقبلت نبأ اعتقالي؟

وكيف ستستقبل نبأ موتي؟

لا شك أنها ستكون فاجعة كبرى لها.. فالولد الذي وضعت فيه آمالا جميلة حين ربته ورعته، ها هي الآن تفقده في ريعان الشباب. أما الزوجة والأولاد فقد أصبحوا بمثابة أرملة وأيتام.

في الواقع لم تكن قضية الزوجة والأولاد تأخذ نصيبا كبيرا من تفكيري وخيالي فقد استودعتهم ربي وخالقي ورازقي، وأنا منذ دخلت صفوف جماعة الاخوان المسلمين وطنت نفسي على السجن أو المطاردة أو الموت ......

بعد فترة وحينما بدأنا – وكنا قد بدأنا فعلا منذ الساعات الأولى – حفظ القرآن الكريم، ستكون الساعة الأولى من النوم – بالنسبة لي– هي لمراجعة محفوظاتي. وبعد أشهر قليلة.. بعدما أتممت حفظ ما هو موجود بين أيدينا من القرآن الكريم – وكان ما يقرب من نصفه محفوظا لدينا – ألهمت الشعر فكتبت مجموعة شعرية.. كل ذلك عن طريق الذهن.. وفي الساعات الأولى من فترة النوم، إذ لا قلم ولا دفتر، فكنت أكتب القصيدة في ذهني وأرتبها وأراجعها حتى أطمئن إليها في ذهني، كنت أراجعها مرات بعد تنقيحها حتى لا تفلت مني، لأنني أثناء صياغتها في البداية كانت تفلت مني بعض الأبيات إذا تداعت بكثرة على بديهتي ....

في الأشهر الأولى كان يتناوب الشرطة في تعذيبنا داخل المهجع.. فقد كان الشرطي يأمر رئيس المهجع بلطمنا على وجوهنا أو جَلدنا على ظهورنا بواسطة خرطوم. كان رئيس المهجع كما أسلفت مساعدا متطوعا فيما يسمى ب " الجيش العربي السوري " ! !.. تركيبة هذا الجيش قائمة على غالبية

من الضباط من أبناء الطائفة النصيرية ليس لهم هم سوى السلب والنهب، يحملون أحقادا متوارثة تجاه أبناء السنة، وكثير من المتطوعين منهم، بل يشكلون الغالبية ، لصوص مرتزقة. أما غالبية الجنود فهم عبارة عن عبيد في نظر هؤلاء الضباط القادة الذين حولوا الجيش إلى إقطاعيات، يتنافسون فيما بينهم بجمع المال.

على أية حال ليس هذا مجال الحديث مطولا عن تركيبة "الجيش العربي السوري "!! الذي لم يفكر قادته يوما في استرجاع أرض مسلوبة، أو تحرير وطن محتل، وإنما هو مبني على أساس حماية نظام طائفي مجرم من أبناء الشعب، إذا ما فكر أبناء هذا الشعب بالثورة على الطغاة المجرمين الظالمين الفاسدين المفسدين..

كان هذا المساعد (رئيس المهجع) قد قضى ما يزيد عن عشرين عاما في وسط هذا الجيش الوصولي الجبان الذي تتفشى فيه الجاسوسية.. حيث يكون لقائد اللواء جواسيس على قادة الكتائب، وقادة الكتائب لهم جواسيس على قادة السرايا، وقادة السرايا بدورهم لهم جواسيس على قادة الكتائب، وقادة الفصائل ... وهكذا، عدا عن أن كثيرا من هؤلاء الضباط هم جواسيس للعدو الصهيوني، وما قصة الجاسوس " زهير بطرس " * بغائبة عن ذاكرة سجناء تدمر مع غيره من الجواسيس.. ولا قصة (إيلي كوهين) بغائبة عن ذاكرة الشعب السوري ..

*زهير بطرس : جاسوس كان يعمل لصالح الصهاينة المحتلين كلفه سادته بالإقامة في " القرداحة " مدينة حافظ أسد لأن معظم سكانها في الجيش ضباطا وصف ضباط أو في مراكز الدولة الحساسة كالمخابرات ، وهناك تزوج من إحدى نسائها ليوطد العلاقة بينه وبين سكان القرداحة ، وكأي جاسوس كان أسياده يغدقون عليه بالمال ، فكان يقيم الحفلات والولائم للضباط والمسؤولين ويغدق على زوجته بالهدايا فغارت أم زوجته من ابنتها وأقامت علاقة مع صهرها وحين كشفت الزوجة هذه العلاقة بلغت عنه لأنها كانت تعلم بأنه جاسوس من خلال الشبكة الموجودة في البيت وتنصتها عليه .

وحين وقع في قبضة الجلادين صاروا يتشارفون عليه (ليس لأنه جاسوس ولكن لانكشاف أمره) وحين قال لهم : لا تعدموني وسأكشف لكم كل الجواسيس رفضوا ذلك ولم يتوسعوا معه في التحقيق لأن غالبية الجواسيس كانوا من الطائفة النصيرية ومن أبناء القرداحة بالذات (وربما كان من يحقق معه من الجواسيس ، فهذا ليس مستغربا في نظام أسد الخيانة والعمالة) ، وتم إعدامه في سجن تدمر دون أن يأخذوا منه المعلومات التي تتعلق بالشبكة التي كانت تعمل معه أو التي جندها .

هذا المساعد " رئيس المهجع " كان مشكلة كبيرة بالنسبة لنا..

فعدا عن أنه كان ينفذ تعليمات وأوامر الشرطة بدقة، كان يتعامل معنا

بطريقة سيئة جدا. تعاملنا معه بالحسنى في البداية وبأخلاقنا، وحاولنا استيعابه ومساعدته ولكن عبثا، فكان لابد من وضع حد له. وبالرغم من أنه نال من الضرب إلى درجة التشويه، ومن الشتائم نصف ما ناله بقية أفراد المهجع مجتمعين، إلا أنه لم يرعو عن غيه وجهالته، لم يتعامل معنا كأخ، أو كزميل وشريك لنا في المحنة.

كان الشرطة عندما يريدون تعذيبنا يختلقون الذرائع، خاصة فيما يتعلق بالصوت.. ففي سجن تدمر يحظر على السجين الكلام، فكان معظم كلامنا همسا. وحين يكون في برنامج إدارة السجن حفلة تعذيب لنا، كانوا يحتجون علينا بارتفاع الصوت، وأول ما يسام سوء العذاب هو رئيس المهجع، علما أنه في بعض الأحيان، بل في أغلب الأحيان، نكون متوقفين عن الكلام تماما حتى عن الهمس، لأننا كنا نسمع وقع أقدام الشرطي قبل وصوله إلى الفتحة السقفية، فكان هذا الغبي الأرعن " رئيس المهجع " يريد كتم أنفاسنا بالرغم من اثباتنا له هذه البديهية: أن الأمر ليس مجرد صوت مرتفع وإنما هو برنامج.

- ألا ترى أننا كنا في حالة صمت؟؟!

ولكن دون جدوى ...

اشتد تعذيبنا داخل المهجع، وخارجه أثناء ادخال الطعام، حتى نال البعض منا ضربات قاتلة، ولكن الله - سبحانه - هو الحافظ

والمحيي والمميت.. لدرجة أننا تخيلنا أنه لن تمضي فترة إلا وسنكون قد قضي علينا، وتساءلنا فيما بيننا:

-هل يعامل بقية السجناء كمعاملتنا؟

لأنه في هذه الفترة لم نسمع صياحا أو ضربا في أماكن أخرى إلا نادرا فقد ركزت إدارة السجن علينا باعتبارنا جددا، حديثي العهد، في سجن تدمر.

ويقطع رحلتي في عالم التذكار سجاني

يعيد إلي آلامي وأحزاني

يصب علي نار الحقد والغضب

بلا سبب.

" شاعر "

كنا نُضرَب دون أن نعلم لم نُضرَب؟ ونحاول تحليل وقائع حفلات التعذيب، ولكن الأمر لا يحتاج إلى تحليل، ولا إلى خبرة، فقد قال أحد السجناء مرة:

- لم أفعل شيئا يا حضرة الرقيب.

فأجابه الرقيب: وهل اضربك لأنك فعلت .. يا ابن الكذا ...!!

إن وجودك هنا في حد ذاته سبب كاف لضربك ولإهانتك وشتمك وقتلك.

وكنا قبل مجيئنا لسجن تدمر نتمنى أن نبقى معا في مهجع واحد عند وصولنا إلى المعتقل الرهيب، ولكن بعد أيام.. ومع تحقق الأمنية، رأينا أنه كان من الأفضل لنا لو كنا قد وزعنا على مهاجع القدامى – الذي سيتبين لنا فيما بعد أنه سيان مع اختلافات بسيطة بعضها ايجابي والبعض الآخر سلبي.. سنتطرق إلى ذلك فيما بعد، عندما سيوزعوننا على المهاجع القديمة إن شاء الله.

* * 12 * *

يستحم المساجين في دورات المياه.. فبعد أن يقضي المساجين حاجاتهم الطبيعية، بالدور، يكونون قد أخذوا أرقاما للاستحمام، ويدخلون بانتظام.. فكل شي ء في سجن تدمر يتم بنظام. كان الجو ربيعيا باردا إلى حد ما، وكان الحمام بحد ذاته عقوبة لنا صيفا وشتاء، حيث يتم الاستحمام بالماء البارد، وقد ابتليت بكثرة الاحتلام، فكان بعض الاخوة يتندر علي قائلا :(بأن منشفتي لا تجف أبدا فهي منشورة على الحبل بشكل مستمر). أما رئيس المهجع فلم يستحم طوال شهور، فكان أيضا مثارا للتندر لدى البعض منا. لكن لم تمض أسابيع حتى أصيب البعض منا بالجرب، ونتيجة للاحتكاك المباشر فيما بيننا بسبب العدد الكبير في مكان ضيق، أُصِبْنا جميعا بالجرب.. وهذا الجرب الذي أصبنا به لم أسمع، ولم أرى مثله من قبل. فقد تحولت

حبات الجرب الصغيرة إلى قروح كبيرة، ولم نكن نجرؤ في البداية على إعلام (الرقيب أول) بهذا الأمر، لأنه لا يحق لنا أن نشكو من شيء، أو أن نطلب شيئا. لقد ضج البعض منا من المرض، وطلب من الأخ الطبيب – الذي عينه المساعد (مسؤولا صحيا) في المهجع – أن يخبر عن الوضع مهما كان الثمن، وبدأ الأخ الطبيب بالتفكير جديا بالموضوع.. في هذه الأثناء وقف شرطي على الفتحة السقفية فرأى أحدنا يحك جسمه، فسأله:

– لماذا تحك جسمك؟

فأجابه: لأني مصاب بالجرب.

فقال الشرطي للمسؤول الصحي: غدا عندما يفتح الباب أخبر الرقيب بالأمر، ولكن لا تقل له بأني قلت لك ذلك.

كان من خلال لهجته يبدو أنه من ريف حلب، لذلك كنا نشعر بقليل من الارتياح عندما كنا نسمع صوته ... وبعد شهور سمعنا إطلاق نار، كان بعض الشرطة يقولون: بأنه هو من أطلق على نفسه. وربما كانوا هم من أطلقوا عليه النار عندما لاحظوا عليه مسحة من الإنسانية ...

كنا نراقب حركة الشرطة والبلديات من خلال ثقب في الباب، ونتعرف على وجوه الشرطة والرقباء ونعرف من هو المجرم ومن هو الأشد إجراما، ومن الذي لا تبدو عليه ميول عدوانية. لقد كان كل شرطي أو رقيب ذو تربية حسنة، لا تكاد تمضي عليه أسابيع في سجن

تدمر حتى ينقل من السجن إلى مكان آخر ..... كما كنا نعطي أسماء من عندنا للشرطة والرقباء.. أسماء تنسجم مع صفاتهم أو أشكالهم، أو أسماء مترادفة إذا كانوا من دفعة واحدة، مثل: القملة والنملة.. والجساس والنساس .. والأمريكي والفرنسي ... والجدي والسخلة و... و... وفي مرحلة متأخرة، بدأنا نعطيهم أسماء الشهور أو الأيام التي يقدمون فيها ، فإذا قدم اثنان في السابع من شباط أطلقنا على أحدهم اسم " سبعة " والآخر " شباط " .

نعود إلى موضوع الجرب.. في صباح اليوم التالي، طلب المسؤول الصحي من الرقيب أن يتكلم معه،

قال له: اخرج.

خرج المسؤول الصحي، وشرح الموضوع للرقيب.. ثم دخل بسلامة.

بعد يومين جاء الرقيب، وقال للمسؤول الصحي:

– هل عندكم نقود؟

فأجبناه: نعم. ثم انصرف..

وقبل أن يأتي دواء الجرب مات أحد اخواننا بجلطة دماغية وهو مجروب .

يا إلهي.. لا شك أن الموت حق على كل إنسان..

في هذا السياق يكفي أن أعلق بعبارة واحدة قالها أحد الاخوة: لقد رحل عبد الكريم إلى رب العباد، وهو يشكو ظلم العباد. إنا لله وإنا إليه راجعون ...

بعد أسبوعين من إعلامنا عن المرض جاء الدواء، وشفينا من مرض الجرب بعد أيام. فيما بعد سنعلم أن الغالبية العظمى من سجناء تدمر قد أصيبت بالجرب، أما من ناحية الدواء فكان عزيزا جدا.. لقد كان البعض منا يستغرق في مرضه شهورا دون علاج، وليس هناك سوى العناية الربانية.

* * 13 * *

في العودة الى الوراء ، بعد قدومنا الى سجن تدمر – ما يقرب من شهر – ادخل علينا المساعد عشرة اشخاص : تسعة منهم محسوبون على حزب البعث العراقي ، وواحد محسوب على الاخوان المسلمين ، كان من بين التسعة الجدد طبيبان درسا الطب في رومانيا على حساب حزب البعث العراقي ، احدهما طبيب بشري لا يبدو انه ناجح في دراسته ومهنته . اما طبيب الاسنان فكان شابا ذكيا ، ذو اخلاق وهمة عالية ، نشيطا ، خدوما ، شجاعا ، ربما يعود ذلك الى التربية التي تلقاها في جامع الصحابي الجليل " زيد بن ثابت" – الشهير في مدينة دمشق بنشاطه وكثرة حفاظ القرآن فيه – في صباه ومقتبل شبابه ،

حيث كان يعيش مع اسرته في مدينة دمشق ، إذ كان والده موظفا فيها قبل سفره الى رومانيا ، حيث كان يقيم خاله هناك مسؤولا بعثيا في اوروبا الشرقية .. سرعان ما اندمج معنا وبادر بحفظ القران الكريم ..

هؤلاء الجدد كانوا جميعا من مدينة دير الزور باستثناء الشاب الإخواني فهو من مدينة حماة.

لم تمض اسابيع قليلة حتى نقل الطبيب البشري الى مهجع اخر ليكون مسؤولا صحيا هناك.

عندما دخل علينا هؤلاء العشرة لم يزودهم مساعد السجن لا بأغطية ولا بعوازل فشاركونا اغطيتنا وعوازلنا، وهذا الامر سيشكل مشكلة لنا، حيث كان الشرطي يسألنا من الفتحة السقفية باستمرار: – لماذا يتغطى كل اثنين بغطاء واحد؟

وعندما كنا نجيبه بانا لا نملك اغطية كافية وان هناك نقص عندنا، كان يتهمنا بأشنع التهم، ويرمينا بأقذع الشتائم. وبالرغم من اننا طالبنا عدة مرات بأغطية ولكن كانت طلباتنا تذهب ادراج الرياح. كان غالبية الجدد من ابناء محافظة دير الزور – كما اسلفت – من بينهم اخ لم يكن له اي انتماء الى حزب البعث، ولا الى اي تنظيم اخر.. حدثني هذا الاخ الذي ينتمي والده الى مدينة اريحا بمحافظة ادلب، ووالدته الى معرة النعمان، وقد رحل برفقة والديه واخوته الى مدينة دير الزور طلبا للرزق واستقروا فيها، حدثني هذا الرجل انه لن

يخطر على بال أحد من معارفه انه اعتقل بتهمة الانتماء الى حزب البعث. فعلى العكس، ان كان له انتماء ما، فهو الانتماء الاسلامي نظرا لالتزامه الديني، فما الذي جعله يعتقل بهذه التهمة ؟!

لقد كانت تربطه صداقة قديمة عندما كان في الثانوية بخال طبيب الاسنان، وفي أحد المرات بعث له بهدية – وهي عبارة عن كرافيتة (ربطة عنق) – هذه الهدية كلفته سنوات في السجن. كان هذا الرجل صبورا ودودا، تعرفت عليه في فرع التحقيق العسكري، عانقني بحرارة وأخبرني انه رأى في المنام انه التقاني من جديد، ففسر المنام انه سيتبعني الى سجن تدمر، وهكذا كان. واستمرت صداقتنا حتى خرج من مهجعنا.. تمهيدا لخروجه من السجن في ربيع ١٩٩٢.

كان من بين العشرة، كما سبق وذكرت، شاب من مدينة حماة محسوبا على الاخوان لم يكن له ارتباط تنظيمي بالجماعة، انما كان له اخوة ناشطين في التنظيم. كان هذا الشاب قليل التحصيل الدراسي يتيم الاب، حاول جهاز المخابرات توظيفه ليكون مخبرا لهم، فأرسلوه في مهمة خارج سوريا للتجسس على الاخوان إثر ما عرف بعملية الباصات عام ٨٦ ، والتي كان أحد افرادها اخوه. وافق الشاب على ذلك في الظاهر لينجو بنفسه من بطش المجرمين، وبقي في الخارج يعمل مع الجماعة.. ثم اعتقل في ظروف لم يفصح عنها. وكان الحديث عن اعتقاله مجرد تكهنات.

عندما دخل هذا الشاب المهجع بدا شابا عنيدا، ولكنه كان شجاعا، ذو ذهن متقد، بالرغم من انه لا يحمل شهادات دراسية –كما اسلفت – وقد حفظ القران الكريم في وقت قصير، كان نشيطا في كل شيء خاصة في خدمات المهجع، ذو لياقة بدنية عالية، حدثني ذات مرة انه كان يجلس في البيت امام المرآة، ويكشف عن عضلاته، وينظر اليها بإعجاب.. دارت بيننا عدة أحاديث، اقتربنا فيها من بعضنا قليلا، ثم افترقنا بعد عشرين شهرا، وعندما سألتقيه بعد اثني عشر عاما في سجن صيدنايا ساراه من خيرة الشباب الذين عرفتهم في حياتي.. احببت هذا الشاب كثيرا لعصاميته وصدقه وقوة إيمانه وصبره.. سبحان الله، على عكس من تعرفت عليهم ممن كانوا يتبجحون بعلمهم او بدورهم القيادي عندما كانوا في الخارج ثم سقطوا في المحنة الناعمة، وقد قيل بحق: الطريق لمن صدق وليس لمن سبق..

* * 14 * *

كانت الحلاقة حلقة من حلقات التعذيب والاهانة والاذلال في السجن، حيث يترتب علينا حلاقة شعرنا ولحانا وشواربنا مرة كل اسبوع على الاقل على الصفر، وأحيانا في اليوم الثاني او الثالث يقول الرقيب اول لرئيس المهجع: شعرك طويل يا رئيس المهجع، احلقه،

وفي بعض الاحيان، اثناء الحلاقة، كان يأتي الشرطي من الفتحة السقفية فيأمر بحلاقة حاجبي أحدنا.

سبحان الله .. ان الشعر زينة للإنسان، خاصة في الوجه والحاجبين والجفون، فعندما يذهب هذا الشعر فلك ان تتخيل شكله، وخاصة عندما يكون قد ذهب بقية شعره..

ولكن.. كانت نعمة من الله علينا ان كانت عملية الحلاقة تتم داخل المهجع في الزمن الذي امسينا فيه من نزلاء سجن تدمر، إذ حدثنا اخواننا القدامى عندما التقينا بهم، ان يوم الحلاقة قبل ادخال ماكينات الحلاقة الى المهاجع، كان يوما كارثيا، تصب فيه كل ألوان التعذيب، ومصبوغا بالدم، عدا عن التشويه الذي يطال السجين .

كان السجناء عندما ينتهون من الحلاقة ويدخلون المهجع تسيل دماؤهم على وجوههم من أثر الحلاقة، عدا عما تعرضوا له من الضرب المرعب.

لقد كانت ايام الحلاقة اياما عصيبة تخيم في سمائها غيوم داكنة من الرعب والخوف، وتهب فيها اعاصير الارهاب والاجرام لدرجة انه كان عندما يخرج أحد الاخوة الى الاعدام، يقول اخوانه: لقد ارتاح من الحلاقة والتنفس والتفقد والحمام، لان الحمام لا يقل اجراما

وارهابا عن الحلاقة عندما كان يتم في الباحة الثانية " باحة الحمام " ولطالما ايضا حدثنا اخواننا عن حمامات الدم، تتجسد في قول "شاعر المحنة ":

في باحة الحمام كم دارت رحى حرب ضروس

الصبر والايمان فيها سيفنا

والجلد مزقه المجوس

ثم هناك، كل اسبوعين او أكثر، ما يسمى بيوم التفتيش، حيث يأتي الرقيب مع مجموعة من الشرطة وفي ايديهم السياط، اما الرقيب فيحمل في يده بورية من الحديد، يصل طولها الى مترين، ويؤمر السجناء بالخروج من المهجع، ويضرب الرقيب ارض الباحة لزرع الرعب في قلوب المساجين، اذ يؤذن الضرب بالبورية بحملة وحشية اجرامية، ثم يدخل المهجع ويضرب ارضه بالبورية بذريعة البحث عن إنفاق.

ان ادارة السجن تعلم تماما انه لا يوجد حفر ولا إنفاق، لان المهاجع مراقبة على مدار الساعة، بالإضافة الى وجود المخبرين الذين كانوا من اشد الابتلاءات التي رافقتنا في السجن، لان علاقتنا مع الشرطة تنتهي بإغلاق الباب علينا، وتمتد في الاكثر الى نصف ساعة، اما علاقتنا مع المخبرين فكانت على مدار الساعة، لذلك كان دائما في علم الاجتماع الانساني ان العدو الداخلي اشد وأخطر من العدو

الخارجي، فكان علينا الحذر بشكل مستمر، وما أقسى ان يعيش المرء في حذر دائم.. كل ذلك يتم على حساب اعصاب ودقات قلب السجين.. وسأعود لاحقا للحديث عن هذا الموضوع ان شاء الله.

نعود الى البورية والتفتيش، حيث كنا نخرج من المهجع ونجلس قبالة حائط المهجع جلسة الاسير، كما قالها لنا أحد الرقباء مرة، وايدينا الى الخلف، ورؤوسنا منخفضة على صدورنا، ولم يكن يخلو الامر من سياط على ظهورنا ورؤوسنا حسب لؤم وحقد الرقيب والعناصر المرافقة له.. وقد تختم حملة التفتيش بالضرب ببورية الحديد على اجساد البعض منا. حتى أنى لا أنسي اول حملة تفتيش، وكيف نال الاخ الطبيب ضربتين من البورية، بقي على أثرها ساعات يتألم مما الم به، وقد اصفر لون وجهه بالرغم من قوة جسمه وجلده وصبره، ولكن من يطيق هذا اللون من العذاب..

اما التنفس فكنا نؤمر برش الباحة بالماء بواسطة " كالونات " الماء الموجودة عندنا، حيث نضع ايدينا على فوهة الكالون ونمضي على نسق واحد الى الامام، ثم نرش الماء اربعة او خمسة او أكثر من الشباب الشجعان.. بعدها يأمر الرقيب بقية افراد المهجع بالخروج خمسة خمسة، ويصطفون أمام المهجع، ثم نؤمر بالجلوس جلسة الاسير على الارض المبللة بالماء.

وحسب البرنامج المقرر لنا يجلد واحد.. اثنان.. ثلاثة.. وقد تمر الأمور بسلام لكن غيوم الخوف والرعب تبقى محلقة في سمائنا إذ لا أمان. هذا كان في أيامنا، اما في السابق فكان هناك ألوان أخرى من التنفسات يتفنن المجرمون فيها بتعذيب المعتقلين..

اقبل وأدبر راكعا مستلقيا

كي تجلدا

يا مسلم.. يا مجرم

" شاعر المحنة "

* * 15 * *

في الرابعة.. في باحة الموت البطيء

سبعون مسلولا يقيء

في قيئهم وبصاقهم تتجسد المأساة حق تجسد

في صبرهم وثباتهم ثمن لرايات المحبة والسلام

انا ان خرجت اقاتل الدنيا فلن أرضى الملامة يا إمام

" شاعر المحنة "

بعد شهور قليلة من مكوثنا في سجن تدمر اصيب الشاب الفلسطيني بمرض السل، كان شابا مليء الجسم له بطن، لكن سرعان ما وقع فريسة الداء المريع، وبعد شهور اخرى ايضا أصيب آخران من

أصحاب الأجسام الضخمة نسبيا. في الواقع تعجبت من هذا الامر في البداية، وكنت اظن ان اصحاب هذه الاجسام أكثر مقاومة للأمراض وآخر من يمكن ان يسقط فريسة عصية (كوخ). لكن فيما بعد تبين لي العكس من خلال قراءة لا أدرى مدى صحتها: وهي ان الاجسام الضخمة تحتاج الى غذاء أكثر كما ونوعا من الاجسام النحيلة، خاصة اولئك الذين اعتادوا نوعا من التقشف في حياتهم خارج السجن نظرا لأوضاعهم المادية.

ومن ناحية اخرى فان من عاش نوعا من الرفاهية - وخاصة من اصحاب الأجسام الضخمة - وكانوا في سعة من العيش – فقد كانوا فريسة للأمراض، واول من سقط في السل.. ذلك أن أجسامهم لم تأخذ حاجتها المعتادة من الغذاء. ونظرا لسوء التغذية وفساد الهواء، كانوا أول من استسلموا لعصية كوخ وغيرها من الجراثيم، إذا ما أضفنا العامل النفسي أيضا، حيث كان يخيم الرعب والخوف والقلق في سماء السجن وتحت أسقف المهاجع بشكل دائم ...

كانت الباحة الرابعة حسبما حدثنا إخواننا القدامى أول ما بدأت فيها إصابات السل نظرا لأنها كانت باحة مغلقة ذات نوافذ قليلة وبأعداد كبيرة من النزلاء، ثم بدأ المرض ينتشر في جميع أنحاء السجن، ثم بدأت عملية فرز المصابين في المهاجع ليتم نقلهم فيما بعد إلى الباحة السابعة التي خصصت مهاجعها لمرضى السل.

هنا تبرز وبقوة شخصية الأخ الشهيد الطبيب زاهي العبادي – رحمه الله – وتقبله في الشهداء، وجعل مثواه الجنة – حيث يذكره سجناء تدمر بكل خير، وقد كان أبرز من عمل في علاج مرض السل، وضحى بحياته في سبيل إنقاذ حياة الآخرين. لقد أمضى زاهي سنوات في علاج هذا المرض الخطير، عرف خلالها كثيرا من أسرار السجن، وذلك من خلال دخوله وخروجه المتكرر إلى الإدارة.

وفي أحد الأيام احتاج أحد المرضى إلى دم من زمرة دم النبيل الكريم (زاهي)، فما كان منه إلا أن أدخل الحقنة في وريده ليأخذ من حياته شريانا يرفد به حياة الآخرين بالرغم من نصيحة إخوانه له ألا يفعل لأنهم يحتاجونه حيا بجانبهم، لقد أدت هذه العملية إلى تجرثم في الدم عنده أودت بحياته بعد أسبوعين، حينها خيمت سحابة سوداء قاتمة في سماء الباحة السابعة بكت بعدها قلوب الكثيرين حزنا وألما على فقدان شاب من خيرة شباب سوريا الثكلى.

كان زاهي العبادي – الشهيد الحي في قلوب أبناء دعوته – ذكيا ذا ذهن وقاد، نشيطا لا يعرف الكسل ولا الملل في خدمة الآخرين، فسلام على زاهي في الخالدين.

لقد حدثني أحد الإخوة أن مساعد السجن – ذلك الأخطبوط المجرم – قد تعمد قتله، فقد كان على دراية بالأمور الطبية إذ كان اختصاصه – قبل مجيئه إلى سجن تدمر– شؤونا طبية، وعندما شعر

زاهي – رحمه الله – بالمرض طلب من أحد زملائه أن يبلغ عن مرضه والدواء المناسب لعلاجه. بلَّغ الطبيب مساعد السجن بالأمر، وعلم المساعد أن المريض هو زاهي، وكان يعلم أن تأخير العلاج يعني الموت، فأراد طي صفحته من تاريخ السجن ليقتل معه كل الأسرار التي عرفها زاهي عن السجن، فلم يأت بالدواء إلا بعد أن أيقن أنه لن يفيده، حيث كان المرض قد مد جذوره واستشرى في شرايين وأوردة جسم زاهي – الفدائي البطل – واستعصى على العلاج.

أتى المساعد بالدواء من الشراقة السقفية، وبعد أن نادى المسؤول الصحي قال – في شماتة وخبث –: هذا دواء مريضك. بعد يوم أو أكثر أسلم زاهي –عبقري طب السل – الروح إلى بارئها، فألف سلام – مرة أخرى – على روح زاهي في الخالدين مع الأنبياء والصديقين والشهداء –إن شاء الله – وحسن أولئك رفيقا ..

لقد كان نشر مرض السل بين المعتقلين أمرا متعمدا من قبل نظام المجرم حافظ أسد، فقد أعد لهذا المرض أكثر من عام أطلق عليه سجناء تدمر اسم " عام المجاعة "، حيث عانى السجناء من جوع شديد تمهيدا لإيقاعهم فريسة للداء المريع. كان نصيب السجين في هذه الفترة نصف رغيف من الخبز أو صمونة على الأكثر وقليل جدا من الطعام، كان الطعام يوزع بالملاعق على السجناء، وقتها بدأ السجناء يأكلون كل ما يدخل إليهم حتى قشور الفواكه وقشر البيض. لم يتركوا شيئا يذهب

إلى كيس " الزبالة "إذ لا فضلات.. لقد مات البعض من شدة الجوع.. لقد حدثني أحد الإخوة أن شابا من مدينة (التل) الواقعة شمال العاصمة دمشق أكل (منشفته) من شدة الجوع لكن ذلك لم ينقذ حياته وحين شعر أن أجله قد اقترب، قال: أخبروا أهلي أني مت من الجوع .

* * 16 * *

إن محنة السجن بالنسبة للإنسان كالنار للذهب تكشف حقيقته إن كان صحيحا أو مزيفا ... فإن كان صحيحا أو أصيلا نقته من الشوائب وبدا لامعا أخاذا، وإن كان مزيفا التهمته ولم تترك منه شيئا. وللحقيقة ليس كل من دخل السجن ممن يحسب على الاخوان المسلمين ذو معدن أصيل، وليس كل من يحسب على البعث العراقي أو الانتماءات الأخرى ذو معدن خبيث.

فكان من بيننا رجل ممن يحسب على الإخوان، وهو من مدينة منكوبة ارتكبت فيها أبشع المجازر، وهرب كثير من أبنائها خوفا من بطش النظام.. هذا الشخص كان من ضمن الهاربين، وبالرغم من أن الحركة احتوت الغالبية العظمى من الهاربين، ودعمتهم ماديا ومعنويا، إلا أن البعض منهم عق الحركة وتنكر لها ورد الجميل بالإساءة...

هذا الشخص كان واحدا من هؤلاء، وبالرغم من أنه كان ذا ثقافة ضحلة وامكانيات هزيلة إلا أنه كان يطمع في أن يعامل كشخصية

بارزة، علما أن سلوكه كان يشير إلى أنه شخص شاذ، منحرف، سيء الخلق إلى حد بعيد. وقد عرفت هذا الشخص في فرع التحقيق العسكري فقد كان أحد أفراد المهجع الذي كنت فيه، وقد استطاع الحصول – هناك – على بعض الامتيازات نتيجة رذالته، حتى يتقي الناس شره، وحين قرئ اسمه مع أسمائنا أمسكت قلبي بيدي، وخشيت أن يرافقنا إلى سجن تدمر.. لكن وقع ما كنت أخشاه، فكان أحد مصائب وابتلاءات السجن.

هذا الشخص بدأ بالتهرب من مسؤولياته في المهجع، وهنا تدمر، والناس فيه سواسية، سواء داخل المهجع أو خارجه. فكما أن السوط الظالم الجبان لا يفرق بين شخص وآخر، كذلك لا فرق في المسؤوليات داخل المهجع بين سجين وآخر.. فحاول أن يظهر بمظهر المجنون وأبدى شراسة ونذالة.. وبينما كنا في أحد الأيام جالسين إذ صرخ بأعلى صوته حتى استقدم الشرطي، وعندما حضر الشرطي قال له:

– هؤلاء اخوان مسلمون مجرمون، وأنا لا أريد البقاء معهم.

فذهب الشرطي وأخبر الإدارة.

فتحوا علينا الباب، وأخرجوه إلى الباحة، فأخبرهم بأننا نصلي ونقرأ القرآن..

كانت إدارة السجن تعرف وجود أمثال هؤلاء، وعندما كانت تريد الحصول على معلومات منهم تطلبهم إلى مقر الإدارة وتستجوبهم. لن

أنسى هذا الموقف الجبان في حياتي، حيث كنا جددا، وكان لا ينقصنا أمثال هذا وغيره في زيادة التنكيل بنا وإيذائنا ....

لقد كان هذا الشخص شرسا داخل المهجع.. لكنه كان خوارا رعديدا أمام الشرطة، هكذا كان شأن جميع المخبرين الذين آذوا زملاءهم. كنا نستوعبهم أحيانا ونداريهم، وحين كانوا يتمادون في غيهم كنا نضع حدا لهم، وندفع الثمن. وكثيرا ما دفعوا هم أنفسهم الثمن غاليا نتيجة بغيهم علينا فوقعوا في الحفر التي حفروها لنا وشربوا من نفس الكأس التي سقوا منها غيرهم..

وأيضا بعد فترة قصيرة من وصولنا إلى سجن تدمر جاءت زيارة لرجل من أبناء محافظة جنوبية من عائلة كبيرة ومشهورة، له أقرباء متنفذون في سلطة البعث المجرم الحاكم، وحين عاد هذا الرجل رأيناه مرتبكا جدا، وبدا من ثيابه أنه قد عذب، فقد بدأ يفرك رجليه، وعلى ثيابه سواد من أثر الجلوس في الدولاب.. هذا الرجل كان مفتول العضلات، لكن له قلب فأر، يبدو أنه من خلال بضع سياط اعترف على كل ما يجري في المهجع من نشاط – ولكنه كان مكرها – لكن بالمقابل ليس هذا مبررا. بعد أن دخل المهجع نادى مساعد السجن رئيس المهجع، وقال له: إن هذا الشخص معفى من أي مسؤولية أو عمل داخل المهجع، فكان لا يخرج إلى حفلات التعذيب، ولا يقوم بأي عمل داخل المهجع، ودفعنا ثمن زيارته سياطا على أجسامنا في اليوم التالي لزيارته، ولكن بقينا نتعامل معه بشكل طبيعي ولم نقبل منه شيئا، لأنه ..

و تبرز أيضا في هذه المرحلة عدة شخصيات من بينها شخصية ، يجري حب الثرثرة في دمائها ، ليس له اشكاليات داخل المهجع ولا خارجها ، إلا أنه كان شخصا بارعا في النفاق الاجتماعي و السياسي ،لم تمنعه قسوة السجن وسياط الجلادين من مدح جلاديه ،كما أنه كان منافقا اعتقاديا ، حيث كان يصلي إرضاء للناس حتى لا يكون منبوذا من قبل الغالبية ، وكثيرا ما كان يجدف على الله – عز وجل – و يترك الصلاة عندما تحدث بينه وبين أحد الشباب المحسوبين على التيار الاسلامي أي مشكلة لكن – والحق يقال – إنه كان في البداية صاحب نخوة ، ويمكن الدخول اليه عن طريق مفتاح لمن يفهم شخصيته . لكن يبدو أن بقية النخوة التي كانت موجودة عنده قد تلاشت وماتت على مدى السنوات التالية، حيث بات يشكل عبئا ومرضا عضالا في المهجع ..

وبالمناسبة إن من أصعب ما يمر على الانسان، هو أن تبتلى بشخص ليس له مفتاح.. فهذا الشخص أيضا يكون بمثابة المرض العضال الذي لا شفاء للمهجع منه إلا بخروجه أو ضربه حين يبلغ الأمر مداه.

وأكتفي بهذا السياق بذكر هذه النماذج.. وربما نحتاج إلى الوقوف عند نماذج أخرى إذا تطلب السياق ذلك..

* * 17 * *

عاد الشتاء

أواه يا زمن العناء

هل في زوايا الكفر ينحصر الفناء

أم من جذور السلم ينبثق البقاء؟؟!!

كل الذي أدركته

في سجني المقرور تندثر الحياة

عام يروح وبعده عام يجيء.. ولا عطاء

وتساءل القلب المعنى في رجاء

هل آذن الليل الطويل إلى انتهاء؟

* * *

جاء الشتاء لمهجعي سما يقيء

من فتحة الموت البطيء

تأتي العواصف بالزحار وبالزكام وبالصقيع

بعصية الداء المريع

في لؤمها لؤم " النصيري " القميء

في فتكها ذئب تفرد بالقطيع

تتسلل الأمراض منها والوباء

من المساء إلى المساء

ويواجه الأسرى عواصف ظلم فرعون الوضيع..

بالصبر والإيمان بالنور الوضيء

تمتد أيديهم إلى رب السماء

تدعو دعاء الأنبياء

وتقول في إسرارها

هل آذن الليل الطويل إلى انتهاء؟

* * *

شتان بين الأمس واليوم الحزين

كان الشتاء حكاية وردية للحالمين

يتسابق الأطفال في لهف إلى نار المدافئ باقة من ياسمين..

وضعوا على جمر المواقد حفنة من كستناء

((والنار فاكهة الشتاء))

وتسمرت عين الصغار بوجه أمهم الحنون

وافتر ثغر الأم يحكي قصة الظلم المشين

بعد الصلاة على الرسول محمد خير الأنام

في سالف الأزمان كان

ملك له أعوان

وله وزير اسمه هامان

هي قصة قد ساقها القرآن

تروي صراع الكفر والإيمان

تحكي مصير الظلم والطغيان

* * *

رجع الزمان إلى الوراء

عاد الفراعنة اللئام

والفجر موعده عيون لا تنام

والحق يعلو دائما أبدا فللحق اعتلاء

والباطل المغرور يهزم بالضياء

* * *

حل الشتاء..

والصبر والإيمان للأسرى رداء

والبرد كابوس جثا فوق السجين

والريح تصفر مثل أفعى ذات أجراس تفح بلا رنين..

والليل أوتار على قسماته مر الأنين

وتساءل الجرح المسجى بالدماء

هل آن الليل الطويل إلى انتهاء؟

" كاتب المذكرات "

الشتاء في سجن تدمر قاس كقسوة الجلادين فيه، ويعكس صورة النظام المجرم اللئيم الحاقد الجبان، خاصة في مهجع الندوة، ذلك المهجع الذي يرتفع إلى ما يزيد عن خمسة أمتار بأربع شرافات جانبية متقابلة مفتوحة صيفا وشتاء، وبفتحة سقفيه كبيرة تزيد عن المتر طولا وعرضا، فلا يوجد حتى موضع إبرة من المهجع غائبة عن عين السجان على السطح – والذي يطل عليه باستمرار لينفث من خلال تلك الفتحة القاهرة سمومه وأذاه.. خاصة بالنسبة للوافدين الجدد على السجن الرهيب، حيث لم نكن نملك من الثياب إلا الشيء القليل، ولا يوجد ما يكفينا من الغطاء، وليس بيننا وبين الأرض إلا قشرة بسيطة من القماش لا تمنع على الاطلاق ما يصل أجسادنا من برودة الأرض.

لقد كان مهجع الندوة (برادا) في فصل الشتاء.. كنت أرتجف على مدار الساعة طوال اليوم، كنت نحيل الجسم –هكذا أنا دائما في حياتي – ولا أطيق لسعات سياط البرد التي كانت تلسع جسمي من جميع الجوانب، وعندما كنت أضطر إلى الدخول إلى الحمام كنت أخرج منه بلون أزرق، وكان في بعض الأحيان يتقدم مني أحد الأخوة مشفقا علي فيفرك وجهي ويدي ليعيد إليها الدماء.. كنت أتذكر أمي حين قالت لي في أحد الأيام: – عندما كنت طفلا – (لقد كان قلبي يرتجف من شدة البرد يا ولدي) كنت أحسب أنها تقول ذلك مبالغة في وصف البرد الذي أصابها، لأنني لم أكن أتصور أن القلب يرتجف أو يصل إليه البرد

وهو محمي بصدر الإنسان، ولكن عشت هذا الأمر حقيقة، فقد كان قلبي يرتجف من شدة البرد..

لم يكن عندنا من اللباس ما يكفينا في النهار، ولا من الغطاء ما يكفينا في الليل، حتى أن بعضنا آثر البعض الآخر على نفسه ببعض ما يملكه من لباس، كما أن بعض الاخوة لم يحسبوا لهذا الأمر أي حساب فجاؤوا بدون متاع إلا ما يرتدون ....

كان معنا رجل مسن تلبسه الجهالة من رأسه إلى أخمص قدميه، ومعه ابن.. كان هذا الرجل يدعي أنه مليونير جاء بسبب لقائه مع بعض قيادات التنظيم البعثي العراقي في رومانيا، حيث كان هذا الشخص مع ابنه – كما صرح الابن بذلك – يقضون الليالي الحمراء في رومانيا ....

وكان الشاب الثرثار (الذي سبق أن تكلمت عنه) يمتلك فروة حمته من برد الشتاء، فقلت له ولبعض الشباب:

– إن فروتك أفضل من كل أموال وملايين أبو ... فماذا نفعته أمواله وملايينه؟!

في الحقيقة كنت أغبط ذلك الشاب على فروته، وأتمنى أن لو كان عندي مثلها بالرغم من أنها كانت قبيحة في شكلها – ويسمونها فروة الراعي – ولكنها كانت تبدو في ناظري أجمل من عروس ...!!

لقد بلغ البرد مني كل مبلغ، فانتفخت أصابع يدي ورجلي، وخرج منهما الدم، وسكن الروماتيزم معظم مفاصل جسمي.. لم أكن أعرف طعما للنوم، كما لا أعرف طعم الراحة طوال النهار ... لقد كان الشتاء كابوسا ثقيلا علي ...

كنت – وأنا متكور على نفسي في الليل – أحلم وأتساءل (في سري):

– بماذا يحلم الآخرين، وهل هم نائمون أم يقظون مثلي؟؟

لا شك أنه كان لكل واحد منا أحلامه، لكنني — وباستمرار – وطوال فصل الشتاء كنت أحلم بمدفأة كبيرة لا تنطفئ نارها ليل نهار ...

في مثل هذا الجو كان السجان أحيانا يسكب الماء على أجسادنا وثيابنا وأغطيتنا، وفي مهجع قريب منا أخرجوا أحد المعتقلين جثة هامدة.. فيما بعد علمنا أن هذا الشخص كان مصابا بمرض الاسهال وحين كان يقضي حاجته حضر الشرطي من فوق، وسأل الحارس الليلي:

– هل يوجد أحد عندك في الدورة؟

فأجابه: بأن مريضا بالإسهال يوجد فيها.. فأمره بإخراجه، وسكب عليه " كالونا " من الماء.. وبعد ساعات قضى المريض نحبه، ورحل إلى أعدل الحاكمين ......

حين وزعوا مهجع الندوة على المهاجع القديمة – إثر خروج دفعة تقرب من ثمان مئة سجين – كان الوضع أفضل كثيرا.. فبفضل الله عز

وجل، ثم بفضل خبرة الاخوة القدامى أصبح وضعنا أقل سوءا من قبل، حيث جاءتني بعض قطع الألبسة من هذا وذاك. أما بالنسبة للأغطية فأصبح لدينا فائض من الأغطية – ولله الحمد – وفيما يتعلق بالألبسة – نسيت أن أقول إنه خلال إحدى وعشرين شهرا في مهجع الندوة قد بلي ما عندنا من لباس، وزادت الرقع في اللباس الخارجي إلى حد لم يعد يعرف به لون الرقاع من اللون الأصلي للباس.!! لقد جاوزت الرقع الأربعين رقعة ووصلت عند البعض السبعين رقعة، وأحيانا صارت الرقعة تحتاج إلى ترقيع.! !!......

لقد أصبح شكل ألبستنا ووزنها من كثرة الرقاع لا يخطر على بال، لدرجة أن الكثيرين منا كانت لديه رغبة في الاحتفاظ بهذه الثياب والخروج بها عندما يخرجون من السجن، ويتندرون بالقول بأنها تصلح لأن توضع في المتاحف .... حقا إنها تصلح للوضع في متحف يطلق عليه اسم " انجازات طاغية "..

* * 18 * *

في السادسة

شاهدت مئذنة تطل على المهاجع من بعيد

خاطبتها : هل تذكرين ملاحم التعذيب أثناء الحلاقة والتنفس والتفقد

هل تشعرين شعورنا خلف الحديد

هل تخبرين القوم عن أشواقنا في يوم عيد

حنت علي ولاطفتني وارتأت في البطولة والصمود

قالت: عجيب أمركم.

فلقد سمعت مآذنا هتفت تكبر في الصباح

في باحة الإعدام كم قام الشباب يكبرون،

وفاضت الأرواح

" شاعر المحنة "

في نهاية فصل الشتاء من السنة الأولى التي قضيناها في سجن تدمر، وبالتحديد في السابع والعشرين من شباط ١٩٩١ ظهيرة ذلك اليوم جاء أحد الرقباء، وقرأ أسماء. ثم سأل رئيس المهجع:

- هل يوجد عندك أحد من هؤلاء؟

أجاب رئيس المهجع: لا.

بعد حوالي ساعة.. جاء شرطي من الفتحة السقفية، وأمرنا بالانبطاح أرضا. ثم سمعنا أبوابا تفتح، وصدرت بعض أصوات التكبيرات، ثم اختفت. وبعد قليل سمعنا ضربا على الأبواب، وخلال ذلك كنا نسمع أصوات شهقات، يا إلهي!! إنهم يعدمون أشخاصا شنقا. ولا شك أنهم نفس الأشخاص الذين قرئت أسماؤهم.. ظل صدى تلك الشهقات يتردد في عالمي سنوات.. وكأنها سكنت كياني.. وآلمني كثيرا معاناة الإخوة على أعواد المشانق وكتم أنفاسهم وانتزاع أرواحهم..

استمرت عملية تنفيذ الإعدام حوالي ثلاثة أرباع الساعة.. كانوا عشرات كما علمت فيما بعد، قضوا شنقا على مذبح فرعون الشام، قربانا لعرش الطاغية.. وكانت هذه الدفعة من أفراد الطليعة التي كان يقودها المهندس "عدنان عقلة " - رحمهم الله جميعا -

وفي صيف ذلك العام تم تنفيذ حكم الإعدام بمجموعة أخرى.. أما آخر حفلة فكانت في الثالث عشر من أيار ١٩٩٢ عندما كنا في مهجع (جديد حنفية)، وقد تحدث إلينا أحد الإخوة القدامى أن حفلات الإعدام في سنوات المحنة الأولى خاصة الأعوام ٨١ – ٨٢ – ٨٣.. كانت تتكرر في كل أسبوع مرتين أو ثلاث مرات، لا يقل فيها عدد من ينفذ فيهم حكم الإعدام عن سبعين شخصا، وقد وصل العدد في أحد المرات إلى ما يقارب مئتين وعشرين شابا ...

لقد كانت مجازر حقيقية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ولو قضى هؤلاء الشباب رميا بالرصاص، لكان الأمر أهون عليهم. كان غالبية هؤلاء الشباب من خريجي الجامعات، أو طلابها، من مهندس أو طبيب ومدرس ومعلم وطالب.. كانوا من خيرة شباب الوطن الأسير الجريح.. في بداية الأمر كان يخرج الشباب إلى الإعدام وهم يكبرون، بيد أن التكبير كان يزرع الرعب في قلوب أولئك المجرمين الحاقدين أعداء الحرية والإنسانية، فقرروا وضع لصاقات على أفواههم..

وقد حدثنا الإخوة القدامى فيما بعد عن كثير من الشباب الذين رحلوا إلى الله.. وكيف كانوا يستقبلون قراءة أسمائهم بالتهليل والتكبير والهتاف بالشعارات الحماسية التي توحي بالفوز والبشائر، وكيف كانت الابتسامات تضيء وجوههم، وكيف كانوا يذهبون للوضوء لصلاة ركعتين "سنة الشهادة" ثم يتسابقون في الخروج إلى الإعدام عند فتح الباب، حتى أذهلوا الجلادين بشجاعتهم وبطولاتهم، ورماهم بعض جلاوزة السجن وجلاديه بالجنون، لأنهم في الحقيقة لم يألفوا ولم يسمعوا أو يشاهدوا صورا للفداء كهذه..

هل من المعقول أن يخرج إنسان إلى الموت وهو ينشد أو يكبر والابتسامة على وجهه؟!!! كان البعض منهم يشدو ببعض الأناشيد الحماسية بعد أن يعطر الأجواء بتلاوة آيات من القرآن الكريم.. كانوا يخلعون ثيابهم، ويرتدون ألبسة بالية مهترئة ليستفيد إخوانهم من متاعهم، بعد أن منعت الزيارات، وغدت الألبسة الجديدة شيئا عزيزا عليهم ...

إن قصص الشهداء كثيرة ولا تنسى.. فلكل شهيد قصة، وبين الحين والآخر يجلس أحد الإخوة فيروي قصة فلان الشهيد أو ذاك في سياق حديث أو قصة..

تذكر قصص هؤلاء الأبطال العظام وفي الحلق غصة وفي العين دمعة، ألا.. طوبى لهم.

* * 19 * *

هي حلبة للموت من حلبات قيصر

وزعيمها ثور يهيج إذا رآك وقرنه من سابقيك تراه أحمر

وبشاعة التحكيم والأحكام

فشعارها: الحكم بالإعدام.

" شاعر المحنة "

أما قصة المحاكم فهي قصة هزلية مضحكة مبكية – إذ شر البلية ما يضحك – تعكس صورة طاغية جبان ظالم فاجر عدو للشعب، عدو للإنسانية.. لقد كانوا يقتادون الشباب بالعشرات، وأحيانا بالمئات إلى إدارة السجن، حيث يجلس ما يسمى بقاضي " المحكمة الميدانية " المجرم: (سليمان الخطيب) هناك في أحد المكاتب، كأنه شيطان. وهناك خلال ربع دقيقة أو نصف دقيقة على الأكثر تبدأ وتنتهي محاكمة أسير إثر آخر، وخلال ساعة ونصف يعرض على القاضي أكثر من مئة وعشرين معتقلا !!!.....

وحين يدخل الأسير إلى المحكمة العجيبة ويقف بين يدي قاضيها العتيد، يصرخ القاضي المجرم في وجهه سائلا: مين (من) نظمك (بتسكين الظاء والكاف) بدي (أريد) أعدمك (بتسكين العين والدال)

مع سؤال آخر أو سؤالين على الأكثر.. - طلعوا بره (أخرجه) ثم يحكم عليه.. وكانت غالبية هذه الأحكام هي الإعدام.

لقد حكم بالإعدام ثمانون بالمائة ممن قدموا إلى هذه المحكمة المهزلة، والباقي حكم بالسجن المؤبد، وقلة حكمت بين الخمسة عشر عاما والعشرين عاما. أما البراءات، أي: من هو في حكم البراءة بتقييمهم وبمحكمتهم وبقضاتهم فقضى في السجن ما بين خمس إلى عشر سنوات..

وقد حدثني أحد الإخوة أنه خرج من مهجعه إلى المحكمة أربع وعشرون معتقلا، قضى المجرم بإعدام ثلاث وعشرين، وعندما جاء دوره، قال له المجرم:

- ما رأيك لو أعدمتك؟

أجاب الأخ: كما تريد.

ومن بعض صور المحاكم التي يتداولها السجناء فيما بينهم قصة الشهيد البطل " صالح بمبوق " وكان في الحياة المدنية يشغل منصب وزير دولة ويحمل شهادة الدكتوراه من فرنسا، وهو إنسان عصامي شريف نزيه، حقد عليه حافظ أسد بسبب نبله وأخلاقه العالية وترفعه عن رشاوي بائع الجولان، فأرسله إلى الإعدام بسبب صلته بالإخوان المسلمين. كان " آزاد " الابن الأكبر لهذا الرجل العظيم – أيضا – معتقلا في سجن تدمر. وعندما أراد المجرم سليمان الخطيب أن

ينفذ فيه حكم الإعدام أحضر ولده " آزادا " وخاطبه قائلا: يا آزاد سنعدم لك أباك، ومن أجل ذلك سننقلك إلى مهجعه لتقضي معه الأيام الأخيرة. لقد أراد هذا المجرم الحاقد اللئيم أن يزيد في آلام الأب والابن معا، وأن يوجه طعنة مشحونة بكل ما في قلوب النصيريين من حقد ولؤم، ليس فقط إلى قلب الشهيد البطل صالح (أبي آزاد) وقلب ابنه، وإنما إلى قلب كل حر ...

كم ساوموه لكي يحيد عن العهود بأسرها

فأبى الكريم مباهج الدنيا وطلق أمرها

" الشاعر "

إن لكل شهيد قصة ، كما سبق وذكرت ، وسأكتفي في هذا السياق بلمحة بسيطة عن بطل آخر هو الشهيد " يوسف عبيد " ، حيث تبدأ قصته من فرع التحقيق العسكري .

هناك على جدار أحد الزنازين، كتبت هذه العبارة " إذا أردت أن تكون أقوى الناس ، فتوكل على الله " ووقع تحتها " يوسف عبيد " لقد تمثل الشهيد البطل هذا الأثر النبوي أصدق تمثل ، فكان أقوى من كل جلاديه ، فلقد ساوموه كثيرا من أجل الانشقاق عن الجماعة وتشكيل حزب جديد مقابل إنقاذ رقبته مع خمس مئة آخرين من حبل المشنقة ، ولكنه أبى بكل عنفوان وإباء ، موجها بذلك صفعة لعبيد السلطة والمال ، وحين خرج إلى باحة الإعدام كان يرفع رأسه كالطود الأشم ..

في حين شعر جلادوه، وفي مقدمتهم المجرم سليمان الخطيب، بضآلة حجمهم، وقزامة كينونتهم أمام عملاق كبير كان رمزا في الثبات.. وملحمة في الكفاح ضد الطغاة المجرمين ...

كما أن هناك أيضا الشهيد البطل " تيسير هزبر "الذي تحتاج قصته إلى روائي بارع يخط فصولها ... وهناك الكثير الكثير ...

* * 20 * *

في ربيع عام ١٩٩١ بدأ الرقباء بقراءة لوائح من الأسماء وفرزهم إلى الباحة السادسة، لم نكن ندري بالطبع لماذا؟ ولكن تبين لنا فيما بعد أن هؤلاء المفرزين هم ممن كان يطلق عليهم " البراءات "، ويتم هذا الفرز بناء على أوامر من فروع المخابرات تمهيدا لإخراجهم من السجن، وكانت دوائر القرار تزود إدارة السجن بتعليمات بشكل مستمر، فهؤلاء المفرزون سوف يعاملون معاملة خاصة هي أقل سوءا من الآن فصاعدا، وسيتحسن طعامهم كما وكيفا، وكنا من خلال ثقب في الباب نرقب حركة السجن بحذر شديد في مهجع الندوة، لأن المهجع كان مكشوفا تماما أمام عين السجان عبر الفتحة السقفية. ومع ذلك كان البعض يغامر في النظر من خلال ذلك الثقب الصغير مع معرفته بالكلفة الباهظة فيما لو ضبط.

كان مجموعات من السجناء تدخل الباحة السادسة برفقة الشرطة والرقباء، ومجموعات أخرى تغادر الباحة إلى باحات أخرى، كان الجميع يحملون على ظهورهم سلالا منسوجة من خيوط النايلون تحتوي ألبستهم وأغطيتهم. وكان مما لفت نظرنا هو أن إخواننا القدامى قد قطعوا شوطا بعيدا في التعامل مع المحنة، فأبدعوا في المجال التقني ما لا يخطر على بال أحد ...

لقد فرطت إدارة السجن عدة مهاجع في الباحة السادسة، ووزعتها على مهاجع في الباحات الأخرى ليحل محلهم آخرون يهيؤون تمهيدا لإخراجهم من السجن. وفي صيف ذلك العام كانت التنفسات تتم داخل المهاجع، حيث يتم - فقط - فتح الباب، وتهوية المهجع في الداخل بواسطة عازل مع بقائنا داخل المهجع عموما، وكان هذا يعتبر تحسينا ... كذلك خفَّت حدة السباب والشتائم، واكتفى الأوغاد بإطلاق أسماء الحيوانات علينا. والتعامل معنا بهذه الطريقة كان يعتبر قفزة نوعية في حسن المعاملة في سجن تدمر، حيث لم يعد السجين يأبه لهذا النوع من السباب، ولا يكترث لها، وصارت تعبُرُ أحاسيسه دون تحفظ. لأنها كانت من باب الترفيه للسجين من قبل زمرة حاقدة لئيمة لا تعرف معنى للإنسانية.. ولا للإنسان كرامة ...

وفي أحد الأيام من ذلك الصيف رأيت رؤيا لم أقصها لأحد، وفسرتها لنفسي بأني سأقترب من شاطئ الموت، ولكن لن أغرق فيه،

وفي عصر ذلك اليوم فتح الشرطي الباب، وطلب منا إدخال الطعام.. لقد حدثتني نفسي مرارا – ذلك اليوم – بأن لا أشارك في إدخال الطعام، لأنني كنت أحس بأن أمرا سيئا سوف يحدث لي، ولكني واجهت نفسي قائلا لها: " لا نامت أعين الجبناء "، وكنت في مقدمة المجموعة التي ستدخل الطعام وما إن أفردت الفوارغ أمام الباب، وهممت بإدخال الخضار الموجودة على "شراقة" النايلون المعَدَّة لذلك، حتى أمسك بي الرقيب، وقال لي:

– كل من هذه الفليفلة.

فوضعتها في فمي، وبدأت أمضغها ببطء.

قال لي: ابتلعها. — وكانت حارة جدا — فبصقتها على الأرض.

كنت مصابا بمرض "البواسير". قال لي:

– ترفض الأوامر؟

وأمرني بالانبطاح أرضا، وبدأ بضربي مع مجموعة من عناصر الشرطة على ظهري ورأسي، فتكسرت بعض أضلاعي، وفقدت ذاكرتي لبضع دقائق. استنتجت ذلك عندما صحوت، وطلبت من إخواني أن يعطوني ردائي لألبسه، فأجابوني بأنهم ألبسوني إياه، ونظرت إلى نفسي، فوجدته على جسمي، فعرفت أني كنت فاقدا للذاكرة، حيث لم أفقد وعيي ولم أدخل في غيبوبة. كان هذا الحدث تفسيرا للرؤيا كما وقع في نفسي...

أما بالنسبة لتكسير الأضلاع.. فكنت أشعر بألم شديد – خاصة أثناء النوم – عندما كنت أريد أن أغير وضعية نومي، كما كنت أشعر بألم رهيب إذا تنفست بعمق. عانيت من هذا الأمر عدة أسابيع، ثم عافاني الله – عز وجل – ....

* * 21 * *

في الأيام العادية يأتي الشرطي من الفتحة السقفية ويختلق الذرائع من أجل تعذيب سجين أو آخر، ليلا أو نهارا، كأن يتحرك النائم بأي حركة، وغالبا ما تكون هذه الحركة هي تغيير وضعية نومه، فينادي الشرطي الحارس الليلي، ويقول له: – علم ذاك الذي تحرك.

لذلك كنا نتحرك بحذر شديد، فقبل الإتيان بأي حركة كنا ننصت لبضع دقائق لنتحسس حركة الشرطي على السطح، ثم نغير وضعية نومنا. ويسأل الشرطي – غالبا – عن وجود أي أحد في دورة المياه يقضي حاجته الطبيعية، وفي النهار –أيضاً – لا يعدم وسيلة من الايقاع بأحدنا.

في أحد الأيام كان القمر يطل من نافذة جانبية.. كان الوقت يومها بعد المغرب، وقبل النوم بقليل – أي كان الظلام قد بدأ يرخي استاره على ما حول المهاجع – ويبدو ان الشرطي المناوب قد تسلل خفية حتى وصل الفتحة السقيفة، فقال أحد الأخوة:

- انظروا يا شباب الى القمر..

لقد أصبح منظر القمر يثير فضولنا، كذلك النجوم.. فنحن لم نرهم منذ اعتقلنا، وما ان تفوه الأخ بكلمة: انظروا إلى القمر، حتى ضرب الشرطي بقدمه الفتحة السقيفة، ونادى رئيس المهجع قائلا:

- ذاك الذي يجلس على الحائط، أحضره..

قال له: ماذا كنت تقول؟

فأجابه بصدق: قلت لهم (انظروا الى القمر).

قال: لا، لقد قلت لهم ان الرقيب يقف على (الشراقة)..

فأقسم الاخ أنى قلت لهم ما ذكرت لك.

فقال الشرطي: هذا (معلم أبدى). هل تعلم ما معنى: معلم أبدى؟ كلما قلت لك اخرج المعلم الابدي تخرجه خارج المهجع لينال جزاءه.

وهكذا عاش الاخ في دوامة "المعلم الأبدي"!! أسابيعا إلى ان جاء دور رجل آخر من مدينة دير الزور.. دخل المعتقل لسبب تافه، ذلك أنه أهدي له كرافاتة من مسؤول أوروبا الشرقية لحزب البعث العراقي فاعتبرها مخابرات (حافظ أسد) دليل علاقة تنظيمية.. هذا الرجل كان أيضا في أحد الأيام يرفع رأسه للأعلى بشكل غير مقصود، وفجأة وقعت عين السجان عليه..

فقال له: أنت (معلم أبدي).

لقد عانى هذا الأخ الذي كان في عمر آباء رقباء وشرطة السجن من كابوس رهيب استمر شهرا ونصف الشهر وهو يُطلب بشكل شبه يومي لتنهال السياط على جسمه كيفما كان، مما أدى إلى اصابته بالسل لقلة شهيته للطعام نتيجة العقوبات المستمرة، والحالة النفسية التي عاشها جراء هذا الأمر.

وبالعودة إلى رؤية القمر حين انتقلت إلى مهجع " جديد حنفية " ، وكان مهجعاً شبه محمي عن أعين الشرطة وقفت يوما في مكان مستور ونظرت عبره فرأيت القمر، فهاجت الآلام والأحزان في نفسي وتداعت إلى خاطري الذكريات فقلت:

وتقرأ الأحزان في عيني يا قمر

يا كوكبا يطل في خفر

أرنو إليه في حذر

أخاف أن يضبطني السجان بتهمة النظر

أواه يا قمر

لو تصعد الآهات من ملامحي

لو أطلق الأناة من جوانحي

لو تعرف حكايتي

لو تدري ما قضيتي

لو تدري يا قمر

لأنني بشر

لأنني حفرت في الشغاف

كل معاني الحب والعفاف

لأنني كفرت في ماضي الزمان

بكل من أهان

كرامة الإنسان

أو هادن الطغاة والكهان

لأنني أحببت يوما حسن البنا

وكنت قطبي الهوى

وأعشق الظلال

رميت في الظلام

في قبضة السجان

* * 22 * *

لا يخلو المرء من عيب، وانا أكثر الناس عيوبا. كما أن الإنسان ليس معصوما عن الخطأ، وأنا أيضا من أكثر الناس أخطاء. فعلى المرء ان يراقب نفسه وتصرفاته ليدرك عيوبه وأخطاءه، لان المشكلة لا تكمن في وجود العيب والخطأ، ولكنها تتجسد في شكل العيب والخطأ، لأن الذي يعرف عيوبه واخطاءه لا شك أنه يعمل على اصلاحها ومعالجتها، أما

من ينكر وجود العيب والخطأ فإنه من الصعب التفاهم معه وإيجاد حل لمشكلاته، وسيتحول هذا الخطأ والعيب إلى داء عضال.. كما أن الشخص إياه يكون بليد المشاعر والأحاسيس، وبالتالي فإن التعامل معه غاية في الصعوبة.

بعد شهور سيصبح كل منا صفحة مفتوحة أمام الآخرين، حيث تستطيع الولوج إلى سراديب كل نفس، وقراءة ألغازها، وتتوقع تصرفاتها وسلوكها حتى قبل حدوثها في بعض الأحيان من خلال فهم تركيبتها وردود أفعالها .... بعد شهور سأحفظ وأعرف ألبسة كل فرد في المهجع قطعة قطعة، وسأعرف الشخص من حركة قدميه، كما سأحدد هوية كل فرد حتى من خلال إبهام قدمه، وبدهي طبعا من صوته. لأن الصوت بصمة واضحة لكل فرد.. ومن خلال هذه المعرفة الدقيقة للشخص - طبعا لا أقصد من الناحية الشكلية، وإنما من الناحية النفسية، يتوجب على المرء أن يعرف كيف يتعامل مع الآخرين، ومع كل فرد على حدة ويعرف مفاتيحه، ومن أين يمكن الولوج إليه، ومنفذ النجاة منه ......

من خلال هذه المعرفة.. أو بعبارة أخرى، من خلال المرافقة والمعاشرة المستمرة على مدار السنة ولشهور طويلة، سيفاجأ المرء بتصرفات بعض الأفراد الذين كان يعرفهم من قبل وسيكتشف شخصياتهم تماما، وربما يتخذ منهم مواقف شتى.. البعض منها

يخفيه في الجوانح لحكمة ما، ولكنه قد يضطر في بعض الأحيان إلى الإعلان عنها بشكل صريح.....

وقد يخسر المرْء صديقا كان من أقرب الناس إليه في يوم من الأيام، ويكسب صديقا لم يعرفه من قبل في غابر الايام، وإنه ليعز على النفس أن ترى شخصا كان كبيرا في عينك وقلبك فترى أنه يهتم بصغائر الأمور وسفاسفها ويحدث مشكلة لأسباب تافهة....

يا إلهي إن السجن يعري الإنسان تماما، فيكشف عن مدى اصالته أو مدى انحطاطه، ولكن الأمر ليس سوداويا أو قاتما عموما، وإنما هي حالات فردية لابد أن تظهر في مجتمع وعالم قائم بحد ذاته، إنه عالم السجن...

عموما ... كان في نظري أن الإنسان الذي لا يفكر في إيذاء الآخرين هو انسان جيد، ويحصل على تقدير لا يقل عن ٦٠ بالمئة وتبقى عيوبه وأخطاؤه الأخرى محسوبة عليه، ويتحمل مسؤوليتها بمفرده...

ليس هناك ملاك في السجن، ولكن هناك عمالقة حقا في الشجاعة والرفعة والأدب والتفاني والإخلاص و. و. و.

ولهم أخطاؤهم التي تذوب في فضائل أعمالهم الكثيرة، كما أن هناك بعض الشياطين الذين لهم بعض الحسنات التي تتلاشى في مشاكلهم الكثيرة وأعمالهم الشريرة.

نعم إنها الطبيعة البشرية يستطيع الانسان أن يرقى بها إلى السماء.. سماء الرفعة، ويمكن أن ينزل بها إلى درك الحيوانات، بل أدنى من ذلك..

*   *   23   *   *

كان معنا أحد الإخوة يعمل في الحياة الخارجية سائقاً، يمتاز هذا الأخ ببعض الصفات الطريفة: فهو جلود صبور مجتهد، وأكول أيضاً.. جسمه يوحي ببعض الضخامة نوعا ما طولا وعرضاً.. هذا الشاب حُفِرت أخاديد في جسمه – خاصة في ظهره – من شدة الجلد في فرع التحقيق العسكري في مدينة دير الزور لانتزاع المعلومات منه، ولكنه كان لا يعترف إلا بمواجهته بصحة المعلومة من خلال سجين آخر، وكان برفقته أخوان له.. كانوا جميعا شبابا طيبين.. هذا الشاب كان قد سجن في السجن المدني (بالجورة) في دير الزور لمدة ثلاثة أشهر بتهمة قضائية، لقد ظل يحدثنا عنها بين الفترة والأخرى شهورا طوالا، فقلنا له مرة: إذا كانت ثلاثة شهور تثير شهيتك للكلام عنها طوال هذه المدة، فما بالك عندما ستقضي سنين في سجن تدمر؟!

لا شك أنك ستمضي عمرك كله في الحديث عنها ..

ومن طرائفه أيضاً أنه كان يتحدث عن كثرة أكله عندما كان خارج السجن ، فسألته مرة :

– كم بيضة تأكل في الوجبة؟

– فقال لي: على حسابي أم على حساب غيري؟

– قلت له: على حسابك.

– قال: ١٥ بيضة.

– قلت له: على حساب غيرك.

– قال: ٣٠ بيضة.

– قلت له: كم تأكل من اللحم؟

– قال: على حسابي أم على حساب غيري؟

– قلت: على حسابك.

– قال: كيلو واحد.

– قلت له: على حساب غيرك.

– قال: ٢ كيلو.

– فسألته: وما الفرق بين حسابك وحساب غيرك؟

– أجاب: أما على حسابي فلكيلا تزيد الكلفة علي، أكثر من الخبز. وأما على حساب غيري فآخذ راحتي وآكل بدون حساب.

في ذلك الجو الدائم العبوس والقنوط، والذي تخيم في سمائه دائما سحب الإرهاب المرعب كنا لا نعدم الدعابة ولا تغيب الابتسامة عن محيانا غالبا، خاصة بعد اغلاق الباب للمرة الأخيرة ....

نعود إلى موضوع المدة.. فها قد مضى على وجودنا سبعة عشر شهراً، كنت خلالها أتذكر أحد الإخوة في فرع التحقيق من (دير بعلبة) في (حمص) والذي قضى ثلاثة عشر شهرا رهن الاعتقال، ثم خرج بعد ذلك بقليل، كيف كان يردد: ثلاثة عشر شهرا في سجن آل

فرعون.. كان الرقم وقتها أمامي كبيراً، وها نحن الآن قد تجاوزنا هذا الرقم، وأصبحنا كباراً في عالم السجون، ولكن بعد شهور قليلة عندما سنلتقي بالإخوة القدامى سنجد أنفسنا لا نزال نحبو في عالم السجون، لا سيما أنهم سبقونا بثمان أو تسع سنوات، وسيطلقون علينا عبارة (المعتقلين الجدد) حتى بعد سنوات، وطوال مدة وجودنا معهم إلى أن يخرجوا من السجن وسنبقى بعدهم ١٠ سنوات، فيما عدا من بقي منهم وجاوزت مدة اعتقاله ٢٣ و٢٤ و٢٥ عاما.. وكان معنا معتقلا واحداً وصلت مدته إلى ٢٨ عاما في مضافة حافظ أسد ..

* * 24 * *

في هذه الفترة التي أمضيناها كان قسم منا قد حفظ ما هو موجود من القرآن الكريم، وقسم آخر لم يهتم بهذا الأمر إما بسبب انتمائهم السياسي ، لأن البعثيين غالبا لا يبالون بهذا الأمر – إلا من هدى الله قلبه – وكانت معظم اهتماماتهم في مراقبة أعمال الآخرين والغيبة والنميمة والثرثرة ، وكان البعض الآخر منا من ذوي الثقافات الضعيفة الذي لا يمتلك امكانية للحفظ ، ومن الأمور اللافتة للنظر أن تجد شخصاً بارعا في قضايا تقنية ، فإذا ما برزت مشكلة تحتاج إلى إصلاح أو معالجة تراه يبرع فيها ، أما إذا أردت أن تحفظه بضع آيات من القرآن الكريم فإنه سيتعبك كثيرا ، وسيكون الأمر شاقاً عليه أيضا لا

بسبب الرغبة ، ولكن – سبحان الله – كأن ذهنه خلق للابتكار ، واستغلق على الحفظ . كما كان هناك بعض الشباب الذين لم يكن لهم تحصيل دراسي حفظوا القرآن الكريم قبل بعض حملة الشهادات الجامعية وبرعوا فيه ..

وبعد أن فرغنا من حفظ القرآن الكريم، تعلمنا وحفظنا كل ما هو موجود من أحاديث النبي – عليه الصلاة والسلام –والبعض تعلم بعض قواعد النحو والرياضيات والفيزياء وغيرها ..

لقد فرغ كل منا ذاكرته أمام زملائه مما يحفظ من قصص وذكريات في غابر الأيام.. حتى تكررت على مسامعنا الكثير من القصص والحكايات.. هذا فيما يزيد عن سنة ونصف، فما بالك فيمن أمضى ما يزيد عن اثني عشر عاما حتى وصل العشرين في سجن تدمر.. لقد حكى لي أحد الإخوة أنه كان يجلس إلى بعض أصدقائه، ويقول له: حدثني عن أمر لم أسمعه منك ألف مرة.

ففي سجن تدمر لا كتاب ولا جريدة ولا راديو ولا أي وسيلة إعلامية أو معرفية، استمر ذلك حتى منتصف عام ١٩٩٤ حيث سنتوقف هناك عند دخول الجرائد لأول مرة إلى مهاجع سجن تدمر.. قبلها عندما كانت تدخل قصاصة من جريدة بحجم نصف راحة الكف، كنا نتسابق إلى قراءة كلماتها، وكنا نتوقع أنهم دسوها بشكل مقصود ليزيدوا في عذاباتنا، لأنها لم تكن تحمل بين حروفها أي خبر، ولا

حتى يمكن اصطياد معنى في مياهها الضحلة.. لقد كانت الرؤى هي النافذة الوحيدة لمعرفة الأخبار والأحداث التي ستقع، فقبل ٦ أشهر من دخول الجرائد أصبحت كثير من الرؤى تشير إلى دخولها إلينا.. في الوقت الذي كان فيه مدير السجن لا يعلم أنه سيدخلنا جرائد ..

لقد كان وجود القرآن الكريم معنا – أي في صدورنا – نعمة ورحمة من الله – عز وجل – فقد قضينا هذه السنوات قراءة وحفظا وشرحا وتفسيرا له، ولم نكن نمل من قراءته طوال الليالي والشهور والأعوام، بل كان عزاءنا وملجأنا وأنيسنا و. و. و.   فالحمد لله على نعمة الإسلام والحمد لله على نعمة القرآن والحمد لله على كل حال.

* * 25 * *

في الواقع يمكن اعتبار السجن مدرسة من نوع آخر.. ففيه يتعلم المرء أشياء لا يمكن تعلمها خارج السجن، ويكتسب خبرة خاصة في مجال النفس البشرية يستحيل عليه أن يكتسبها خارج السجن ولو جلس مع آلاف الناس وقرأ آلاف الكتب. فقبل دخول السجن كنت قارئا من الطراز الأول، وكانت اهتماماتي منصبة على الكتب الفكرية والأدبية.. الفكر الإسلامي خصوصا والأدب العالمي عموما، مع ما يقع تحت يدي من روايات ومسرحيات وشعر إسلامي، وكنت لا أطيق الفكر القومي إن كان هناك أصلا ما يمكن أن يطلق عليه اسم الفكر القومي ....

كما كنت أحفظ بعض سور القرآن الكريم من وقت لآخر مع قراءة تفسيرها من ظلال القرآن، فأنا أحببت الإمام الشهيد (حسن البنا) حبا جما.. ولا أزال ، وقرأت جميع رسائله ، وما خلفه – رحمه الله – من آثار مكتوبة وكل ما كتب مما وقع تحت يدي ، ثم أحببت الشهيد (سيد قطب)، وكان لي شغف شديد بكتاباته وكتابات أخيه الأستاذ (محمد قطب)– حفظه الله – كذلك كان لي ولع بكتاباته ، كما كنت شديد الاهتمام بالسيرة النبوية الشريفة ، وأحب أن أقرأها في كل عام مرة على الأقل لا بشكلها التقليدي وإنما في الغوص في ظلالها ، وأكثر ما أعجبني كتاب (دراسة في السيرة) للدكتور عماد الدين خليل ، بل جميع كتابات هذا الاستاذ المتميز ، بالإضافة إلى كتابات الدكتور يوسف القرضاوي.

لقد كانت السيرة النبوية الشريفة تمثل لي منهج حياة لأنها تجسد الفهم الصحيح والكامل للإسلام قولا وعملا، ولا يمكن أن يفهم الإنسان الإسلام بشكل صحيح إلا من خلال دراسة السيرة النبوية، هذا رأيي...

نعود إلى عالم السجن الذي كان بالنسبة لي فرصة للتأمل في دراسة النفس البشرية والغوص في لججها والسير في دروبها ومنحنياتها ومعرفة دهاليزها وأسرارها...

فبالإضافة إلى معرفة المرء بالآخرين، يعرف نفسه حق المعرفة إن كان جادا ويريد تطوير نفسه والرقي بها ومعرفة عيوبها ومكامن ضعفها وقوتها وما لها وما عليها....

كنت بطبعي أميل إلى الهدوء حركة وصوتا، وإلى قليل من العزلة، وغالبا ما ينظر الناس إلى هكذا صنف من البشر على أنه متكبر، ويتخذون منه موقفا دون الاقتراب منه ومعرفته عن قرب. لقد أخذ مني بعض الإخوة موقفا سلبيا في بداية الأمر ولكن بعد فترة طويلة، وحين اقتربنا من بعضنا نشأت علاقات تحمل في طياتها الكثير من الود، فأنا لم أتعامل في يوم من الأيام مع أخ مسلم بفوقية، ولا نظرت له على أني أعلم أو أعلى منه، بل على العكس كان كل أخ في نظري هو مثلي أو أفضل مني ..

كنت حين استلقي للنوم أدرس تصرفات الناس من حولي وأحاول فهمها بشكل تام، وكنت أراجع ما أحفظ من القرآن الكريم وما كتبت من الشعر.. ويوما، كنت أضع يدي على صدري فأحسست بخفقان قلبي .. شعرت يومها بمدى جحود الإنسان لنعم الله – عز وجل –، فهذا القلب من يحركه غير الله؟ إن كل مخلوق لا يملك من أمر قلبه شيئا.. هذا القلب الذي يحوي سر الحياة لا يتوقف لحظة عن الخفقان إلى أن ينتهي أجل الإنسان، فأي رعاية وأي حفظ له من قبل الله – سبحانه – وباعتباره مصدر الحياة للجسم فقد حماه الله – عز وجل – بهذا الصدر

حتى لا يكون عرضة للأذى في غالب الأحيان وها أنا ذا بعد قليل سأستسلم للنوم وسيبقى قلبي ينبض برعاية الله – عز وجل –، أنام.. وأغفل عن ذكر الله – سبحانه –، وتبقى عين الله – عز وجل – التي لا تنام ترعاني وتحفظني.. أغيب عن ذكر الله – سبحانه – يقظة ومناما، ولكن الله – سبحانه – يبقى دائما معي لا ينساني أبداً، فأي جحود مني أنا العبد الفقير الضعيف المحتاج، وأي كرم وإحسان من الله – عز وجل – إلي...؟!! أستغفر الله العظيم الغني القوي الواحد الأحد الصمد..

ننام ونحن نحسب ألف حساب للسجان من فوقنا، يأتي فيعلم أحدنا ليخرج في الصباح لينال عقابا بلا ذنب ارتكبه ولا خطيئة اقترفها ..

استيقظ في الفجر لأسمع صوت المؤذن، بل أكثر من مؤذن فأصوات جميع المؤذنين تصل إلينا بقوة وبعذوبة.. يبدو أننا قريبون جدا من المدينة أو أننا في محاذاة بيوتها.. ينطلق صوت المؤذن لصلاة الفجر فيثير في النفس أشواقاً وشجونا، وكم ندمت لأنني لم أكن أواظب على صلاة الفجر في المسجد، فقد كنت أصليه في البيت قبل طلوع الشمس بقليل بسبب السهر الطويل.. آه يا إلهي، ما أعذب صوت المؤذن، وما أروع الخطا إلى المسجد في هذا الوقت الباكر ...!! أية نعمة كنت قد ضيعتها خارج الأسوار..

وفي أحد أيام الجمعة كان المؤذن قبل الأذان يشدو ببعض أبيات الشعر ليستعد الناس لصلاة الجمعة، فقفز إلى خيالي صورة الناس، وكيف هم الآن وقد استحموا وتعطروا ولبسوا أفضل ما عندهم من ثياب وبدأوا يتوجهون إلى المساجد لأداء صلاة الجمعة.. فاضت في نفسي المشاعر والذكريات فكان..

مازال صوتك يا بلال بمسمعي

مازال صوتك يا أخي

نارا من الأشواق تكوي أضلعي

وأنا هنا

في زحمة الآلام والأحزان

ملقى كثوب بالٍ في مهجعي

أتنفس الأنات والآهات

أذوي وأفنى والأسى

قد لون الأيام والأعوام

أبكى خافقي في مدمعي

مازال صوتك يا أخي يا ابن الرباح

بعض الدواء للجراح بمضجعي

* * *

تبكي المآذن غربة التكبير في أرض العرب

وتئن من تهليلنا لو كنت تدري ما السبب

هجر الحياة رجالها

استسلموا في ذلة لعداتها

الله أكبر.. الله أكبر

الله أكبر يا بلال بظلها

تنمو الفضائل والمحامد

الله أكبر يا بلال عبيرها

يا لوعة المشهود والشاهد

* * *

هل يا ترى ستذكر المساجد

يوما على أرجائها

قد كنت من روادها

ما غبت يوما عن جفون عيونها

إلا إلى أعتابها شوقا أكابد

وأن أمنية الأسير

هي أن يكون أصيل يوم

في ظلال قبابها

للواحد الديان ساجد

* * *

هل يذكر التاريخ يوما يا بلال أننا

رغم العذاب والأسى

كنا وما زلنا على الدرب نعاهد

هل يا ترى

يا صاحب الصوت الندي

يوما سأشدو للحياة

إني إلى الميدان عائد

ورغم أن غالبيتنا كانت تستيقظ لسماع صوت الأذان إلا أن أحدا منا لم يكن يغادر مكانه، لأنه في هذه الساعة بالذات تكثر خطا الجلادين على أسطح المهاجع لمراقبة المعتقلين وتحركاتهم ..

وبالعودة إلى النفس البشرية مرة أخرى.. أعود إلى نفسي لأكتشف فيها بعض العقد، فأدرسها وأتعرف إلى منشئها وأحاول أن أتجاوزها، كما أنني أحس بأن حلقة أو أكثر مفقودة في حياتي.. هذه الحلقة المفقودة كانت قاسما مشتركا بيني وبين كثير من الناس، فدرستها بعناية وعرفت سبب فقدانها و .. و ..

لست مثاليا ولكني أحب المثاليين، ولست عالما ولكني أحب المتعلمين المتواضعين، ولا شك أنه كان الكثير من إخواني أفضل مني علما ومعرفة وتربية وأدبا وأخلاقا.. كنت شابا ريفيا عاديا لا يتميز عن غيره من شباب الريف من حيث البساطة وبعض العقد، كما كنت شابا عاش في بيئة فقيرة وفي بيت فقير جدا من الناحية المادية، ولكن

بالمقابل عشت في كنف أبوين شريفين امتازا وعرفا بالعفاف وغنى النفس، والحمد لله ... لن أطيل الحديث عن نفسي، فلقد عرفت أن الناس لا ترغب في سماع هذا اللون من الأحاديث على العكس مني تماما فقد كنت أنصت بدقة إلى أي أخ وهو يروي لي تفاصيل حياته الشخصية والعائلية، لأنني كنت أفهم من خلالها تضاريس شخصيته والعبور من خلالها إلى وديانه وجباله وسهوله وأنهاره وجداوله وأشم زهراته وأحذر أشواكه..

* * 26 * *

إن من أقسى وأمر الامور على الانسان الحر أن يهان، أو أن يرى حرا عزيزا يهان، فقد رافقني في محنتي أخ طبيب.. هذا الأخ تربيته عالية، متواضع صبور عالي الهمة، كثير الخدمة والخير للناس ...

هذا الاخ عندما كان يضرب من قبل شرطي أو رقيب وضيع وصولي نذل جبان قذر النشأة والمنشأ، كنت أشعر بألم شديد عندما أراه يهان، وبالرغم من هذه الصفات الكريمة التي يتحلى بها، كان البعض يؤذيه داخل المهجع بكلمة أو بتصرف أو باتهام باطل، علما أنني لم أر في حياتي طبيبا يخدم الناس كما يخدمهم، ولكن ... كنت أعتقد ولا أزال أن الله – عز وجل – يحب هذا الإنسان، لذلك ابتلاه ابتلاء شديدا فقبل خمس سنوات من اعتقالنا احترق أخوه الصغير وكان شابا في الثانوية،

ثم دخل السجن ولاقى ما لاقى فيه، ثم مات أخوه الكبير قبل أن ننقل إلى سجن صيدنايا، فبقي وحيدا لأهله، وقبل خروجه من السجن بشهرين فقد أعز مخلوق لديه – أمه – وعندما خرج من السجن كان والده قد بلغ من العمر عتيا لا يسمع ولا يرى، وبعد شهور قليلة أصبح رهن الفراش.. ولمدة ست سنوات وهو يلازمه ويرعاه بصبر يعز على الكثيرين تحمله، ولكن الله عز وجل إذا أحب عبدا ابتلاه.

كان لابد من كتابة هذه الصفحة تكريما لهذا الأخ، ولن أستطيع أن أوفيه جزءا من حقه علي، فقد عرفته كريما مضيافا ودودا خدوما وفيا رافقته سنوات طويلة قبل السجن وأثناءه فلم أرى منه إلا الخير.. هذه الصفحة تحية عابرة له وتكريما وعرفانا للجميل وهي أقل القليل في حق إنسان نبيل فأرجو العفو والمعذرة.

* * 27 * *

في نهاية عام ألف و تسعمائة و إحدى و تسعون كنا قد قضينا إحدى و عشرين شهرا ، و كان الملل قد بدأ يسيطر على مساحات لا بأس بها في حياتنا اليومية ، و بدأت بالظهور بعض الأمراض النفسية ، و خاصة حسد الأقران والغيبة و النميمة ، و هذا أمر طبيعي في مجتمع مغلق على أي نافذة للحياة الراكدة ، لذلك لابد أن تأسن بقليل أو كثير ، و بالتأكيد ستتسلل العفونة و الفطريات و الجراثيم

الاجتماعية ، سيما مع عدم التجانس الاجتماعي و التربوي و الفكري و الثقافي و السياسي أيضا ، و إن كنا في تلك المرحلة حسب ما تبين لي أننا كنا في المرحلة الجنينية فكريا و سياسيا .

وللحقيقة بدأت تتكون عندي بعض الخلايا الاجتماعية، وتأخذ طريقها إلى النمو والنضوج، فقد كنت أعاني خارج السجن من هزال ونحول وضآلة في الحياة الاجتماعية، لأنني قبل التزامي أي ما قبل العشرين كانت تقتصر علاقتي على قلة من الأصدقاء، وكنت مدمنا على مشاهدة الأفلام حتى أني لم أكن أزور أقربائي على كثرتهم، وبعد أن التزمت المنهج الاسلامي أدمنت على قراءة الكتب، واقتصرت أيضا علاقتي على بعض الشباب المسلمين. لكن في السجن بدأت أتعرف على الناس عن قرب ومن مختلف المدن والبيئات وعلى تعدد المشارب واختلاف العادات والتقاليد، بذلك بدأت تتشكل عندي البذور الاجتماعية التي ستأخذ طريقها إلى النور ..

في هذا الجو الذي بدأ يفسد هواؤه الاجتماعي – سبحان الله – أطلت فتحة الفرج، حيث كنا جميعا مهيئين للافتراق دون أسف، وكانت كلما ضاقت علينا الحياة في السجن لاحت بادرة للفرج – والحمد لله –ففجأة في منتصف كانون الأول من العام واحد وتسعين (١٩٩١) بدأت قراءة الأسماء، لماذا كانت تُقرأ الاسماء؟ لا ندري بالضبط، وبدأوا

يُجَمَّعون في مهاجع الباحة السادسة، واحتاجوا إلى مهجعنا ففرطوه ووزعوه على عدة مهاجع.

كان من بين الأسماء التي سمعناها مجموعة من قريتنا هم أب وابنيه وصهره، لا أعرف سوى واحد منهم كان معي في الصف التاسع، وفي شعبة غير شعبتي، فلا أعرف عنه شيئا سوى الاسم والشكل، ولم أزدد به معرفة بعد ذلك لأنني دخلت دار المعلمين في مدينة حلب، وكان من حي بعيد في القرية، أما أبوه وأخوه وصهره فلا أعرفهم حتى شكلا.

وكان أيضا من بين الأسماء التي سمعناها اسم مدرس من مدينة حارم درسني مادة الفيزياء لمدة ثلاثة أشهر قبل انتقالي إلى المدينة، وقد شاهدته على التلفاز في مقابلة له بعد اعتقاله، حيث كان المسؤول التنظيمي للطليعة. فيما بعد التقيت بأحد الشباب الذين عايشوا هذا الرجل فأشاد بسلوكه وأخلاقه والتزامه ونشاطه ..

عند خروجنا من مهجع الندوة طويت صفحة من أَمَرِّ و أقسى الصفحات التي عشتها في سجن تدمر ، و لكن قبل ذلك ، أود الاشارة إلى أن مدير السجن كان قد نزل إلى الباحة السادسة ليلقي كلمة في أولئك الذين سيخرجون إلى بيوتهم ، و كنا نسمع نبرة صوته فكان عندي حدس نفسي أنه يقول في نفسه – يؤلمني أن أراكم تخرجون أحياء من هذا المكان – و لكن هذا الحدس ، حسبما روي لي فيما بعد ، و حين عاد اثنان من المفرج عنهم إلى السجن مرة أخرى ، كان حقيقة ،

و لكن بعبارة أخرى ، فقد خاطبهم هذا المجرم قائلا : إنكم لا تستحقون الخروج من السجن ، و لكنها رغبة السيد الرئيس ، أو بما في معنى ذلك ، علما أن هؤلاء الذين خرجوا – و كان يقترب عددهم من الثمانمائة سجين – كانوا في حكم البراءات .

* * 28 * *

جاء الرقيب صباح يوم (٢٣) كانون الأول إلى المهجع وقال: جهزوا أغراضكم. معكم نصف ساعة من الوقت، ثم انصرف. فرحت لهذا الأمر، وعلمت أننا سنوزع على مهاجع القدامى، فهناك بالتأكيد سنجد القرآن الكريم كاملا، والطاقات الكبيرة والخبرات. لقد سبقنا اخوتنا بما يقرب من ثمان وتسع سنوات وقلة منهم بعشر سنوات.. تعمدت قبل خروجي من المهجع أن أراقب من سيخرج أولا، وكيف سيصطف الناس حتى لا أخرج مع أناس بعينهم، وبالفعل لم تمض عشر دقائق حتى عاد الرقيب، ليقول: اخرجوا من المهجع، وعلى قلة متاعنا وأغراضنا الشخصية لم نكن جاهزين تماما، فقد أعطانا من الوقت نصف ساعة، وها هو ذا يختصرها إلى عشر دقائق، ولكن لم أكن آسفا ولا منزعجا حتى ولو خرجت بدون شيء. راقبت من خرج في البداية ومن يتأخر حتى يخرج في النهاية ودسست نفسي في وسط الصف بعيدا عن المقدمة والمؤخرة لأنني لم أكن أرغب بمرافقة الأول الذي هو رئيس المهجع والأخير الذي هو" ... " كان عددنا تسعا وثلاثين

من أصل اثنان وأربعون. واحد مات وآخر ذهب إلى مهاجع السل والثالث انتدب مسؤولا صحيا إلى أحد المهاجع..

دخلنا الباحة الثالثة، وبدأ المساعد بتوزيعنا على المهاجع.. كان أول ما فتح من المهاجع المهجع رقم (١٢) سأل رئيس المهجع: كم واحدا عندك؟ وأدخل عددا إليه، خمنت أنهم كانوا عشرة، ثم فتح المهجع الذي بجواره كان اسمه (جديد حنفية) سأل رئيس المهجع: كم عندك؟ وعد ثلاثة عشر.. كنت العاشر بينهم أو الحادي عشر، ودخلنا مهجع (جديد حنفية) وما إن أغلق الرقيب الباب ونزعنا العصابات عن أعيننا حتى التف شباب المهجع من حولنا وبدأ سيل من الأسئلة ينهمر علينا.. في أي مهجع كنتم ؟ وفي أي عام اعتقلتم ؟ و ...و.... ثم من أين أنت ؟ من أي محافظة ؟ من أي مدينة ؟ من أي قرية؟ من أي تنظيم ؟ و .... و.... و...... أما بالنسبة لي فقد شاهدت وجوها غريبة كأنها خرجت لتوها من القبور، يا إلهي ما هذا ؟! ولم أكن أعرف أننا كنا بالنسبة لهم كذلك لأننا اعتدنا على رؤية بعضنا بالصور التي صرنا إليها، فبعد أيام ستصبح وجوه الشباب القدامى مألوفة لنا وعادية ولكن عندما سيدخل علينا أناس جدد سيكونون في نظرنا من أهل القبور لعدة أيام حتى نعتاد رؤيتهم ونألف أشكالهم ... وهكذا بدأ بعض الشباب الملتفين حولي يعرفون على أنفسهم فكان أول من تعرفت عليهم شباب من قرية مجاورة من المحافظة التي أنتمي إليها، وكنت قد زرتها أكثر

من مرة ولي فيها بعض الأصدقاء من خلال دراستي في دار المعلمين في حلب، كانا شابين من تلك القرية، وكانا من خيرة الشباب الذين تعرفت عليهم في حياتي أخلاقا وسلوكا وهمة عالية وخدمة للآخرين، ونشأت بيننا علاقة أخوية لا تزال شرايينها متصلة إلى الآن، ولا يزال الدم القاني يتدفق في عروقها.. ثم قال لي أحدهم- ماسكا بيدي -:

أنت صاحب فكر منفتح، وسأضمك إلى مجموعتي..

طبعا بعد أن طرحت علي عشرات الأسئلة...

بعد ربع ساعة تقريبا طلب رئيس المهجع من الناس التزام الصمت لنقدم أنفسنا، فصمت الجميع، وقام كل واحد منا يقدم نفسه للمهجع الجديد.. اسمه كاملا.. مواليده.. مدينته أو قريته.. دراسته.. تاريخ اعتقاله.. انتماؤه التنظيمي ...

كانت زعانف الشتاء قد بدأت تضرب جسمي بعنف، وقد انتفخت بل تورمت أصابع يدي ورجلي واخذت لونا أحمرا وأزرقا، وأخذ الدم يتسلل من سطح الجلد.. سارع بعض الاخوة في البحث عن قطعة ثياب يمكن الاستغناء عنها هنا وهناك، وكان من أهم ما قدموه لي " سندويشة " ، محشوة بالخيطان المفتتة سميكة تحمي الظهر والصدر والبطن من البرد ومن ضربات الشرطة، فرحت بها جدا.. إنها أجمل هدية تقدم لي في حياتي على كثرة رقاعها، فقد كانت بمثابة الدرع

الواقي، فألف شكر لك يا (علي) على هذه الهدية التي لن أنساها لك ما حييت ...

هذا الأخ الذي قدم لي هذه الهدية وضمني إلى مجموعته إنسان نبيل بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ذكي، منفتح العقل، ذو بصيرة، عالي الهمة.. مع الأخ (غسان) الذي كان من نفس مجموعته، فتحية للأخوين معا .. قال لي الأخ علي: إن من حسن حظكم أن دخلتم إلى هذا المهجع، فهذا المهجع ذو ميزات لا توجد في المهاجع الأخرى، فتفقُّدُه في الداخل، وتنفُّسَاتُه قليلة، ولا يأتي الشرطة على شراقته السقفية لأنه منخفض عن المهاجع التي بجواره، ويوجد فراغ كذلك بينه وبينها ولا يأتي إلا الرقيب، وفي أحيان قليلة، إلا أن له مشكلة وهي: أن الماء فيه قليل، لأن خطه غير خط المهاجع الأخرى.. وبالفعل كانت أفضل فترة قضيتها في سجن تدمر في هذا المهجع من ناحية الخوف والتعذيب، وحتى بالنسبة لتركيبته الاجتماعية.. فلماذا تميز هذا المهجع عن غيره ؟

لقد كان هذا المهجع -كما أخبروني -مخصصا للبعثيين، وقد خصهم المجرم (فيصل غانم) مدير السجن الأول لمحنة الاخوان بهذا المهجع، وأعطاهم هذه الميزات لأنهم كما وصفهم (جميعا رفاق)، ولكن هذه الميزة سحبت منهم عندما تحالفت قيادة البعث اليميني مع الاخوان فيما سمي في ذلك الوقت ب (الجبهة الوطنية لتحرير سوريا)

فبدأ يدخل على مهجعهم عناصر من الإخوان، وقد كان البعثيون غالبية في المهجع، ثم بدأت نسبتهم على مرور السنوات تتراجع لصالح الاخوان الذين كانوا يشكلون السواد الاعظم لنزلاء سجن تدمر ..

لقد لفت نظرنا جميعا – أي الجدد – الذين دخلنا مهجع (جديد حنفية) التنظيم الد قيق لداخل المهجع من رفوف وحصر ومدات وحقائب وحمام و... و... لقد قطعوا شوطا بعيدا من الناحية التقنية القائمة على كيس النايلون الذي توضع فيه أرغفة الخبز الداخلة صباح كل يوم عند الفطور.

إن أحدا خارج أسوار السجن لن يكترث لهذا الكيس التافه الذي لا قيمة له على الاطلاق، ولكنه كان المادة الاساسية الوحيدة تقريبا لصنع كل ما يحتاج إليه السجين.

لقد أذهلت هذه القضية كل من دخل مهاجع سجن تدمر، كما أذهلت إدارة السجن جميعا من أصغر شرطي إلى مدير السجن.. كيف تفتقت ذهنية السجناء عن مثل هذه الاختراعات التي سداها ولحمتها كيس النايلون.

عندما دخلت أول دفعة من الاخوان إلى جديد حنفية – ولم يكن يوجد فيه إلا البعثيون – كانت الفوضى تضرب أطنابها في طول المهجع وعرضه، والأوساخ وحتى النجاسة تسللت إلى بعض أطرافه – هذا باعتراف البعثيين أنفسهم – وما إن دخلت أول مجموعة من الاخوان

حتى تحول المهجع إلى خلية من النحل عملا وتنظيما إلى أن أصبح خلال أسابيع من أفضل المهاجع دقة وجمالا، كما كان البعثيون يكادون يأكلون بعضهم البعض حيث تنعدم الثقة والمصداقية فيما بينهم ..

عندما دخل الاخوان المهجع انحاز مجموعة من البعثيين إلى الاخوان – طبعا بعد فترة من الزمن والاحتكاك والمعاملة والاستماع والحوار والنقاش فيما بينهم – وكان هؤلاء الاخوة الذين انحازوا من خيرة الشباب.. لقد التزموا الاسلام فكرا وسلوكا وكانوا فيما سبق من خيرة البعثيين فأصبحوا من خيرة الشباب المسلمين، وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذ قال: ""خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام لو فقهوا" لقد كانوا أفضل القوم عقلا وشجاعة ومشاعرا، أما ضعاف النفوس فقد أكل الغيظ والحسد والحقد أكبادهم، واعتبروا وجود الاخوان بينهم كارثة لهم، بالرغم من كل الفوائد التي استفادوها منهم.. لقد استفادوا منهم في كل شيء إلا في الناحية الايمانية والفكرية ...

وللحق كان هناك بعض من الاخوان أساؤوا فهم وترجمة بعض الأمور الدعوية والحركية، وكان اسقاطهم لها على أرض الواقع يجانب الصواب، ولكن هذا لا يعد مبررا لأولئك الذين رفضوا الدعوة بحجة إساءة هؤلاء، فقد كان هناك بعض الشباب يعتبرون نموذجا يحتذى، وقد أخطأ البعثيون القياس فقد قاسوا الحق على أناس أساؤوا بعض الاساءة، لقد حرموا أنفسهم من خير كثير نتيجة تفكيرهم الخاطئ

وأمراضهم النفسية التي استعصت على الشفاء، لأنها لم تأخذ الطريق الصحيح إلى العلاج.. لقد صارحني أحد البعثيين ممن كانوا معنا في مهجع الندوة ودخل معنا (جديد حنفية) أنه شعر بالخزي عندما قدم شباب الإخوان أنفسهم ما بين طبيب ومهندس ومدرس، وبعدما قدم البعثيون أنفسهم من .. وهذا بحد ذاته يعتبر خطأ في التفكير وخلل في النفس لأن الانسان لا يقاس بالشهادة التي يحملها ولا بالمنصب الذي يتقلد، ولكن الإنسان بأخلاقه وسلوكه أيا كان انتماؤه السياسي وأيا كانت عقيدته ومنشؤه وجنسيته وبلده وقومه ...

في هذا اليوم سأتعرف على غالبية من في المهجع، وسيجلس إلي عدد لا بأس به للتعرف علي، وللتصنيف من خلال الأسئلة والاجوبة التي ستطرح علي، فعند بعض القدامى أيضا، سأكتشف أنهم يعانون من بعض الأمراض الفكرية والنفسية والاجتماعية والحركية ...

سيطلب مني الإخوة رفع صوتي مرارا، لأنني اعتدت على الهمس، فمنذ إحدى وعشرين شهرا وانا أتكلم همسا، وستبقى النبرة المنخفضة تلازم صوتي طوال حياتي، وهذا أمر محبب إلى نفسي.. فأنا أتضايق من الصوت المرتفع – خاصة عندما يصدر من امرأة – وأحب أن يتحدث إلي كل الناس بهدوء كما أتحدث إليهم، وسأتضايق من كل من يلجئني إلى رفع صوتي – ولو قليلا – وأعتبر الصوت المنخفض من

أخلاقنا وآدابنا، بل هو من صلب الأخلاق القرآنية التي أمرنا الله – عز وجل – بالتزامها ..

نعم لقد كان يوما جميلا في صحراء سجن تدمر لم أذق طعمه منذ عامين ونصف تقريبا بين فروع التحقيق والسجن الارهابي الكبير، وسيكون لي في المساء غطاء خاص بي أستطيع أن ألفه علي في النهار وأتغطى به في الليل، ولن يرتجف قلبي وجسمي بعد اليوم من شدة البرد باستثناء أوقات دخولي إلى الحمام الذي هو عبارة عن ثلاجة في الشتاء، ولن أدخله إلا بعد الاحتلام طوال فترة الشتاء القارس ..

* * 29 * *

في نفس اليوم الذي دخلنا فيه مهجع (جديد حنفية)، سألني أحد الإخوة:

–كم تتوقع عدد السجناء في سجن تدمر؟

– قلت: ثلاثون ألفاً.

– قال: صحيح.. لقد دخل هذا السجن ما يقرب من هذا العدد، ولم يبق فيه إلا بضعة آلاف، وقد انتقل منه إلى سجن صيدنايا ما يقرب من ثلاثة آلاف معظمهم في حكم البراءات، أو من الأحداث الذين لم يكونوا وقت تاريخ اعتقالهم قد بلغوا سن الرشد، كما يحدد القانون (قانونهم)، وعدد قليل قد قضوا بضع سنوات ثم أفرج عنهم، لأنه لم

يثبت عليهم أية إدانة على الاطلاق. أما الغالبية العظمى فقد قضوا على أعواد المشانق أو تحت التعذيب.. في الفروع أو في السجن.

(يا إلهي معقول أن يصل النظام إلى هذا الحد من الإجرام؟) – قلت في نفسي.

نعم.. إنه حافظ أسد القرمطي النصيري المجوسي اللئيم الحاقد على كل قيم الحق والعدل والحرية والانسانية، المجرم الذي طالت جرائمه ليس سوريا فحسب، بل لبنان وفلسطين والاردن والعراق وعدد آخر من الدول الاقليمية والدولية، والذي لم يطاله قانون الأ رض لأنه مستظل بمظلة الخيانة والعمالة لكل طامع في أرض سوريا وخيراتها، وراع لكل مصالح أعداء الإسلام.

ما يقرب من ٢٠ ألفاً من خيرة شباب سوريا علقوا على أعواد المشانق وقوداً للظلم والعدوان، وقرباناً لعرش الطاغية المجرم .. بموجب القرار أو قانون العار رقم ٤٩ ، والذي يقضي بإعدام كل من ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين أو يثبت التعاون معهم، تم تصفية هذا العدد الهائل من الشباب.

لقد حدثني أحد الإخوة أنه عرض على اللجنة الطبية مرتين من أجل تقدير عمره من أجل إعدامه!! ولكن أراد الله – عز وجل – له الحياة. كما حدثني آخر عن شاب طالته مقصلة (حافظ أسد) على يد من يجلس على كرسي القضاء زوراً وبهتانا المجرم (سليمان الخطيب).

- سأله المجرم: هل أنت منظم؟

- أجاب الشاب: طلبت منهم أن ينظموني فرفضوا، لأني كنت في نظرهم غير مؤهل للتنظيم.

- فقال المجرم لكاتبه: سجل إنه منظم.

- ثم قال للشاب: هل تدربت على السلاح ؟

- قال الشاب: لا.. ولكن مرة حملت مسدساً أمام بنات الثانوية تفاخراً.

- قال المجرم القاضي: سجل إنه مسلح.

إذن.. منظم، مسلح. الحكم: إعدامه. وأعدمه (سليمان الخطيب) .

لقد كان هذا الشاب صادقاً فيما قال، ولكنه ظن أن كلامه سيثبت براءته، وبالتالي خروجه من السجن. لكن عدالة (حافظ أسد) في محاكمه الميدانية قضت بإعدام الشاب! ! !

لقد حدثني الإخوة عن كثير من القصص في المحاكم الصورية وحفلات الإعدام والمهازل التي لا تضحك، بل يشيب منها الاطفال الصغار.. لم أعد أشك في أني سأخرج إلى الإعدام، لأني سمعت تهماً لا تعد جزءاً مما نسب إلي فكان نصيبهم الإعدام.. فعندما دخلت على المجرم (سليمان الخطيب) كان أول ما ناداني به هو اسمي الحركي، ثم قرأ ما يلي:

انتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين من أجل قلب نظام الحكم، سافر إلى العراق، وتلقى تدريباً على مختلف صنوف الأسلحة وجميع أنواع المتفجرات .

بعد ذلك سألني عدة أسئلة حاول ربطي من خلالها ببعض من قاموا بعمل مسلح، وحين فشل في ذلك شاهدته يطلق الزفرات ويهز رأسه، فأحسست في داخلي أنه لن يستطيع إعدامي .. علمت فيما بعد من الإخوة القدامى أنه لو تم اعتقالي قبل عام ٨٧ فسيعدمونني عدة مرات، أما الآن فلم يعد ينفذ القرار ٤٩ حرفيا كما كان ينفذ . فقط ينفذ على من ثبت عليه عملية قتل أو اشترك في التخطيط لها، فتذكرت حسرات وزفرات المجرم (سليمان)، وعلمت أن حبل المشنقة لن يطال عنقي، وهذا ما تأكد لي فيما بعد.

كنت كثيرا ما أسمع من الإخوة، وفي غالب الأيام (فلان) – رحمه الله – ويذكرون من صفاته كذا وكذا.. وكيف خرج إلى الإعدام. وفلان.. وفلان.. آلاف، يا الله، يا الله.. لقد صدمت صدمة قوية من هول ما كنت أسمع، وسيصيبني الذهول وأنا أتخيل كيف كان يخرج العشرات والمئات، وكيف وصل العدد إلى ما يقرب من العشرين ألفا.. كيف قضى كل هؤلاء على أعواد المشانق ومن هم ؟ إنهم خيرة شباب الوطن، وعلى يد من ؟ على يد من يدعي حماية الوطن ورعايته ويرفع شعارات المقاومة والممانعة والتصدي والصمود و.. و.. وأين قضى هؤلاء ؟ في وطنهم.

إنه لن يتم انصاف هؤلاء الأبطال العظماء إلا بمحاكمة (حافظ أسد)، ولولا أن يتسبب نبش قبره بكارثة بيئية عالمية لنتن سيرته وقذارة جرائمه لوجب أن ينبش قبره ويوضع في حاوية زبالة ويلقى في

مرامي الأوساخ ومصبات المجارير، ففي اعتقادي لا يوجد في التاريخ البشري حاكما أنذل وأخس وأجبن وأقذر من حافظ أسد.

وبالعودة قليلا إلى التحقيق والمحاكمة ، فتحت عبارة من أجل قلب نظام الحكم التي وردت في إضبارتي أذكر تماما كيف حاول بعض المحققين إلصاق كلمة طائفي وحاولوا استجراري إلى أن أقول إزالة الحكم الطائفي ولكني بينت لهم أن كل الأنظمة التي لا تحكم بمنهج لا إله إلا الله محمد رسول الله في نظري سواء ... في سوريا ومصر وليبيا والجزائر وتونس.

كنت أدرك تماماً أن الطائفية سيف مسلط فوق رقاب أبناء شعبنا، واحتكروا الطائفية لأنفسهم فقط.. فمن حقهم أن يكونوا طائفيين في الجيش والمخابرات والسلطة، وواجب علينا أن نعمي أبصارنا ونصم آذاننا ونقطع ألسنتنا عما نراه من طائفيتهم، وكل من ذهب إلى الجيش يعرف عبارة (بلد) التي ينادون بها بعضهم، والقصد منها (ابن طائفتي) وعليها يجتمعون ويتكتلون ويأخذون الميزات. أما أبناء السنة فمحظور عليهم أن يجتمعوا أو يتكاتفوا، وإلا.. فسيف الطائفية جاهز لقطع أعناقهم.

لو قلت لهم أثناء التحقيق أن هدفي من التنظيم هو إزالة الحكم الطائفي لكان حكمي الإعدام بشكل أكيد.

* * 30 * *

منذ اليوم الأول سيهمس في أذني بعض الإخوة أنه يتوجب عليَّ الحذر، فلا أتفوه بكلام يجر علي متاعب داخل السجن. فهنا يوجد بعض من نكصوا على أعقابهم ، وكفروا بكل رسالات السماء، حتى يكون الكفر جسراً للعبور أو طوقاً للنجاة والخروج من السجن، ولكن ذلك كله لم يفدهم، كما سيتبين فيما بعد، كما أن تفلتهم ونكوصهم على أعقابهم لم يجلب لهم سوى الخزي والعار والاحتقار والازدراء من قبل زملائهم، ولم ينقذهم ذلك حتى من سياط الجلادين، بل على العكس.. بالغ الجلادون في احتقارهم وإهانتهم.. كما يوجد بعض المخبرين الذين تلقوا نفس المعاملة داخل وخارج المهجع.

إن حب الدنيا قد يورث المهالك في الدنيا، وبالتأكيد المصير القاتم في الآخرة، ولكن حجاب حب الدنيا بالإضافة إلى حجب الكبر والغرور تغلق كل نوافذ العقل، وتمنع من تسرب أي إشعاع من نور الحق والمعرفة والحقيقة إلى غرفة العقل. هناك يسود الظلام القاتل فيهبط المرء إلى أحط الدركات حتى ما دون البهيمية.. إذن، هي نار المحنة والتمحيص والابتلاء ستظل مشتعلة حتى خروج السجين من معتقله.. وفي الحياة أيضاً، حتى خروج الروح من الجسد، فأسأل الله – عز وجل – حسن الختام.

نعم.. كان هناك شابان في المهجع قد أعلنا كفرهما بالرغم من الحوارات الكثيرة والمحاولات التي بذلت من أجل إقناعهم للعودة إلى الطريق، ولكن عبثاً.. فمعظم الذين نحوا هذا المنحى – وكانوا قلة قليلة تعد على الأصابع – عندهم استعداد لهذا الأمر فهم مصابون بأمراض نفسية خطيرة، كما سمعت ممن عرفهم قبل ظهور انحرافهم العقائدي، أنهم من الصنف المغرور الموشى بالكبر المطعم بجنون العظمة.. إذ سيلحق بهم شخص فيما بعد له نفس المواصفات، وبمجرد أن عرفته أدركت أنه أعمى البصيرة!

أما المخبرون، فهم – كما عرفتهم داخل السجن وخارجه – حثالة انتهازية وصولية لا دين لها ولا مبدأ، لا قيم ولا أخلاق، مترعة بالحسد والحقد تجاه الناس، لا تؤمن إلا بمصالحها فقط مهما كان الثمن، إنهم لا يكترثون لموت أو عذابات أو آلام الآخرين، ما يهمهم هو مصالحهم وإرضاء أسيادهم على حساب أذى الآخرين.. إنهم لا شرف لهم ولا كرامة، فدائماً تحت الأحذية والأقدام، وكلما ركلهم أسيادهم ازدادوا تعلقاً بهم، وكرها وحقدا على الناس.. يبيعون الأوطان، ويتاجرون بأعراضهم من أجل أن ينالوا حظوة عند أسيادهم وإيذاء للآخرين.. لو اجتمعت كل كلمات الفجور والهجاء التي يلبسها المخبر لما وفته جزءاً من حقه فهو النذل الواطي الحقير الوضيع

الخسيس الجبان اللئيم الحاقد الخائن العميل التافه ... إنه بعبارة مختصرة يعكس صورة وحقيقة حافظ أسد مع نظامه النتن.

إذن.. حتى داخل الأسوار لم ننج من هذه الزمرة العفنة التي حازت كل صفات الرذالة. نعم، لقد طالنا الحصار داخل الحصار، وبقينا داخل دائرة الحذر حتى داخل القضبان.. ما هذا البلاء ؟!!!

* * 31 * *

وللإنصاف كان للبعض منا أمراضه النفسية والدعوية، فهناك بعض الإخوة – وخاصة ممن اعتقلوا وهم صغار السن – ظهرت عليهم بعض أثار العجب ومظاهر الغرور، وذلك يرجع بالتأكيد إلى أنهم لم يتلقوا التربية الكافية في صفوف الدعوة، ويرجع سبب هذه الأمراض إلى مقدراتهم الحفظية التي برزوا فيها، فقد استطاعوا حفظ القرآن الكريم في شهور قليلة، وتلقوا كماً كبيراً من المعلومات دون مراعاة الجانب التربوي ممن أعطاهم هذه المعلومات.. كما تميزوا بشجاعتهم الكبيرة وفدائيتهم، ولكن عندما سألتقيهم خارج الأسوار أو ألتقي البعض منهم ستكون تلك المظاهر المرضية قد اختفت، فلا أدري إن كانت بعلاج تربوي ذاتي يرجع إلى مراقبة النفس، أو أنه المرض الذي لا يزال يكمن في الصدور.. وعلى أية حال كانوا اخوة جيدين وأحياناً رائعين بالرغم من أخطائهم وأمراضهم لأنها لم تبلغ درجة المرض

العضال، ومن الممكن بالحب والصحبة والمناصحة والمتابعة أن تعالج تلك الظواهر.

أما من الناحية الدعوية فقد أساؤوا فهم بعض القضايا، كالمفاصلة والعزلة الشعورية، وأسقطوها بشكل خاطئ في السجن، فكان البعض منهم يفاصل بعض من لا ينتمي إلى تياره الفكري، أو من ينتمي إلى خارج التيار الإسلامي.

إن من واجب الأخ الداعية أن يتصل بكل الناس دعوياً، بمعنى آخر.. ألا يقطع خيوط الدعوة بينه وبين الناس على اختلاف انتماءاتهم، وإلا فكيف سندعو الناس إلى الاسلام ... إلى الخير والحق والعدل الذي نؤمن به ونحبه لنا ولجميع الناس.

كما ظهرت بعض الأمراض النفسية عند بعض الكبار كحب الرئاسة وحب المشيخة والتنافس على التلاميذ أو الطلاب.. من أجل ذلك قلبوا بعض المفاهيم، فبدل أن يجري الطالب وراء الشيخ كان العكس، وبدل أن يبذل الطالب ما في وسعه من جهد وحرص في سبيل تحصيل العلم والتحلي بالأدب، راح بعض الاساتذة يجرون وراء طلابهم من أجل ضمهم إلى حلقاتهم، ليس ذلك حرصاً منهم على تعليمهم، وإنما من أجل كسبهم إلى صفهم بغض النظر عن مدى استفادتهم علماً وخلقاً وأدباً.

يا إلهي معقول أن يهبط الإنسان بنفسه وعلمه إلى هذه الدرجة من الابتذال، ولماذا ؟

هذا الموضوع يحتاج إلى بحث مستفيض ليس هذا مكانه ... ولكن بالرغم من وجود هذه الغيوم في سماء السجن يتألق نجم الشيخ (هاشم المجذوب) رفعة وعلماً.. إنه إنسان رباني كما عرفه كل من التقى به، إنه مثال العالم المسلم. أسأل الله – عز وجل – له الحفظ والتوفيق، كما يتألق كثير من النجوم الذين لمعوا في ليل السجن المظلم ...

* * 32 * *

في (جديد حنفية) ستبدأ أهم مرحلة لي في سجن تدمر، حيث ستتبلور عندي كثير من القضايا السياسية والاجتماعية والدعوية. وهناك سأكون مع ثلة من إخواني رموزاً للتيار المعتدل المقبول من جميع الأطراف، وسيحالفني التوفيق في كثير من الأحيان، وسأتعثر في أحيان أخرى – خاصة عندما سأتنازل عن بعض قناعاتي عند رغبة الأخرين كي لا أخسرهم، وهذا كان في الواقع من أخطائي الفادحة التي وقعت بها والتي سأدفع ثمنها غالياً من أعصابي وراحتي النفسية، فعلى المرء أن يبقى منسجماً مع قناعاته طالما يعتقد أنه في الاتجاه الصحيح، وأن بوصلته دقيقة ونوافذه مفتوحة، وهواؤه الذي يتنفس هو الذي يناسب جهازه التنفسي، ويمده بالأوكسجين اللازم.

لقد خفت وطأة السجان علينا في هذا المهجع المميز، ولكن لم يغب صوت الصراخ عنا في الباحات والمهاجع الأخرى بين حين وآخر.

(جديد حنفية) كان بالنسبة لي محطة لإتمام حفظ القرآن الكريم، فقد أنهيت حفظه بعد ٥ شهور من دخولي إليه، بعدها سأسمع دروساً في الفقه والدعوة والتربية والسياسة، ومن خلال الجلسات سأسمع الكثير من القصص عن الشهداء والمعتقلين في المهاجع الأخرى، وسأكتسب كثيراً من الخبرات الاجتماعية من خلال كل من أجلس إليه.

وخلال مرحلة إتمامي لحفظ القرآن الكريم كنت أجلس في زاوية أرى من خلالها كل أفراد المهجع، كنت أرقب تصرفاتهم وأتعرف عليهم من خلال أحاديثهم التي يتبادلونها مع الآخرين، لا تجسساً فأنا لم أجلس يوماً إلى جانب اثنين أو أكثر يتبادلون الحديث إلا وأخبرتهم بقدومي إلى جانبهم وتنبيههم إلى أنني أصبحت في جوارهم فإذا كان بينهم حديث خاص فليحذروا، أو إن رغبوا أنتقل من جوارهم إلى مكان آخر.. كنت أرقب اهتماماتهم، وكيف يقضون أوقاتهم، ومن خلال هذه المراقبة كنت أقرر حجم التعامل مع كل فرد، وكيف أتعامل معه.. لقد عرفت شخصية كل فرد بدقة.

هنا في هذا المهجع سيتردد اسم كثيراً.. هذا الاسم أجمع كل أبناء التيار الاسلامي على أنه كان مثالاً نادرا في البطولة والشجاعة والكرم والإيثار والصبر، إنه أحد عمالقة سجن تدمر بحق، ولكن سيختلف

البعض في بعض تصرفاته إن كان على صواب أو كان على خطأ، كما أن البعثيين الذين عايشوه لم يذكروه أبداً باستثناء القلة التي أخذ الإيمان طريقه إلى قلبهم.. إنه أبو محمود (رجل بألف..).

* * 33 * *

بعد ما يقرب من شهرين – وكان دوري سخرة على الباب لإدخال الطعام – حين فتح الباب، خرجت لإدخال الخبز، فأمسك بي شرطي، وطلب مني رفع رأسي عالياً مع إغماض عيني، وفجأة تلقيت ضربتين في وقت واحد على وجهي من الأمام ومن الخلف، ولم أكن أعلم أنه قد تمزق غشاء طبلة أذني إلا بعد دخولي إلى الحمام، حيث بدا لي أن قطرات من الماء تسللت إلى داخل أذني، مما أدى إلى ورم في أذني وفقداني السمع فيها.. استمرت معاناتي أسابيعاً، وقد عجز المسؤول الصحي عن احضار أي دواء لي إلى أن عافاني الله – سبحانه – بدون دواء. هنا يعرف الإنسان مقدار النعمة التي يسبغها الله – سبحانه وتعالى – عليه في كل عضو من أعضائه.. لقد كنت في هذه الفترة لا أرغب في الجلوس إلى أحد، فقد كنت أشعر أني أتكلم من اذني.. ولكن أي مخلوق ذاك الذي يضرب مخلوقاً مثله دونما سبب وهو أسير أعزل ؟!

إنه (حافظ أسد) نعم، فهذه مدرسة (حافظ أسد) التي يديرها ويرأسها (حافظ أسد) المتغول ليس فقط على الشعب السوري، وإنما على شعوب كل بلاد الشام، وربما طال إجرامه ما وراء حدود الشام..

(حافظ أسد) الجبان الذي إذا ما استشعر أو توهم أي خطر على كرسيه مهما كان بسيطاً، فإنه يضرب بيد من حديد، فهو يعرف نفسه جيداً.. يعرف أنه غير مؤهل للحكم، وهو مغتصب للسلطة، وقد أتى الحكم من غير بابه كما أنه لا يملك صفات الحاكم، وليس لديه أي إحساس بانتماء إلى الوطن الذي يعيش فيه، فهو لن يفكر بخدمة هذا الوطن الذي يعيش فيه، ولم ولن يفكر بتطوير هذا البلد، فهذا لم ولن يخطر له على بال. ففكرة النهوض والتطوير تتنافى أصلا مع طريقة وصوله إلى السلطة، ولا يملك المؤهلات الفكرية والنفسية والعقلية للقيام بهذا الأمر، إنه لن يفكر إلا بأمر واحد: ألا وهو سرقة هذا الوطن، وتدميره، والبطش بكل من يفكر بالوصول إلى السلطة، أو قلب نظام الحكم.

نعم ستمر علي ليال طوال، وأنا أتألم بنسب متفاوتة بين ليلة وأخرى ضمن أفق مسدود في العلاج..

في سجن تدمر تتجسد حالة الياس من الدواء خارج باب المهجع، وسينحصر التفكير في مد كف إلى السماء وأخرى تتناول ما في المهجع من قشور – إذا توفرت – في معالجة الأمراض، كقشور البيض أو قشور

الخضار والفواكه على ندرتها – إذا دخلت علينا – وفي غالب الأحيان سيمد كفيه إلى السماء ..

منذ هذا اليوم – وبعد أن كتب الله – عز وجل – لي الشفاء، سأقوم بحشو أذني، كما يفعل الإخوة القدامى بسدادات من صنع تدمري لأنقذ نفسي من فقد السمع بشكل جزئي أو كلي كما حدث مع بعض الإخوة..

حتى العمليات الجراحية كانت تتم لا بوسائل بدائية، وإنما بالأشد بدائية، فهي تقتصر على أداة حادة بدائية من صنع تدمري أيضا مع خيط من النايلون..

في هذه الأجواء – أيضا – تتجلى إرادة الله – سبحانه – في الحياة لهؤلاء الناس، لقد كانت هذه الأمور الخارقة للعادة في معالجة المرضى وشفائهم مع كمية الطعام القليلة جدا التي كانت تدخل إلى المهاجع أمرا مذهلا بالنسبة للرقباء ولإدارة السجن، إذ كيف يبقى هؤلاء أحياء.

في (جديد حنفية) سأجوع في بعض الأحيان، ولكن غيري سيجوع في كثير من الأحيان، لأن حصتنا من الطعام متساوية، لكن حاجة أجسامنا غير متساوية.. ولكن، وبالرغم من كل ذلك، فقد كانت قضية الطعام والجوع ليست ذات أهمية كبرى بالنسبة لي، فقد كان مهجع (جديد حنفية) هو الأكثر أمانا بين المهاجع الأخرى والأقل تعذيبا وإرهابا.

* * 34 * *

لم يمض شهرين أو أكثر حتى قرئت لائحة من الأسماء، كان من بينهم بضعة أشخاص من مهجعنا، ولكن كانوا جميعا من البعثيين الذين سيتم الافراج عنهم في نيسان، وكان من بينهم إخوة من الطراز الممتاز، من خيار الناس الذين دخل الايمان قلوبهم. وفضلا عن سلوكهم الرشيد امتازوا بالشجاعة والجلد والصبر، فأحدهم – وهو من مدينة بانياس – جلد على رجليه ألف سوط ومئة وخمسين بورية حديد ولم يصرخ صرخة واحدة، فملأ الغيظ قلوب الجلادين، كما كان الغيظ يملأ قلوب زملائهم البعثيين– خاصة عندما يصطفون إلى جانب الاخوان – وبالرغم من أنني لم أقض معهم وقتا طويلا إلا أنني تألمت لفراقهم.

هنا في حالات إخلاء السبيل تبرز ظاهرة من أغرب الظواهر، وهي: أنه عندما يخرج شخص سيئ يفرح الناس بشكل كبير – بالرغم من أنه يخرج من السجن – وهذا يعني الفرح والسرور له، لكنه كان بلاء على المهجع، فيسعد السجناء بالتخلص منه. أما الانسان الجيد فعندما يخرج من المهجع يفرح الناس من جهة خروجه إلى أهله، وإلى فضاء أوسع (إلى سجن أوسع وأهون) والخلاص من مآسي السجن وابتلاءاته. ومن جهة أخرى يحزنون لفراقه.. نعم في هذا المشهد تختلط مشاعر الحزن والفرح فترى دمعة في العين وبسمة على الشفاه..

سيظل الناس يذكرون الناس الجيدين لبضعة شهور، ثم يقل ذكرهم يوما بعد يوم إلا في المناسبات. أما الناس السيئون فسينطفئ ذكرهم بمجرد خروجهم من باب المهجع.

* * 35 * *

في مهجع الندوة مر علينا عامان لم نصم فيهما شهر رمضان، وذلك لأن المهجع - كما سبق وذكرت -مكشوف تماما أمام عيني السجان، والصيام ممنوع كبقية مظاهر العبادة الأخرى عند نظام (حافظ أسد) الذي لا دين له.. النظام الذي يحارب الاسلام سرا وجهرا في البيت والمدرسة والشارع وجميع المؤسسات الرسمية وغير الرسمية وفي المساجد وفي ثكنات الجيش، وفي الاعلام يشن حربا شعواء على الاسلام تحريفا وسخرية واستهزاء بالمظاهر الاسلامية، وباختصار شديد إنها باطنية (حافظ أسد) وإباحيته وانحلاله التي تتجسد في كل سياساته.

لم يغامر في صوم شهر رمضان في مهجع الندوة سوى ثلاثة أو أربعة معتقلين بسبب الرقابة الشديدة علينا، فقد كان يطل علينا السجان خلال وجبات الطعام، وبعد غروب الشمس، لذلك كان هؤلاء الصائمون يؤخرون طعامهم أكثر من نصف ساعة، ويلتهمون طعامهم بأقصى سرعة، ووجبة واحدة خلال الأربع وعشرين ساعة.. بدون سحور طبعا.

عندما دخلنا (جديد حنفية) وجدت بعض الأخوة يصومون نافلة، فعرفت أن الأمر ميسر في هذا المهجع نتيجة الميزات التي يتميز بها، فباشرت على الفور بقضاء شهرين فاتاني في مهجع الندوة.. كنت أصوم يوما وأفطر يوما حتى لا يرهقني الصيام، وما إن انتهيت من قضاء الشهرين حتى أقبل شهر رمضان الثالث لي في سجن تدمر. كنا نرقب شهر رمضان من خلال انصاتنا لصوت المآذن، حيث كانت العادة في مساجد تدمر تماما كالعادة في مساجدنا إذ يتم التشويق في المآذن في كل ليلة من ليالي رمضان ...

ولرمضان مكانة خاصة في قلبي كما في قلوب معظم المسلمين، وله طعم مميز. كما أن الصيام من العبادات المحببة إلى نفسي سواء فرضا أو نافلة لذلك أستقبل شهر رمضان بفرح في كل الفصول.

كنا نضع سحورنا في قلب الوسادة ، وعندما يستيقظ السجين في الليل ينظر إلى الحارس الليلي فيعرف من خلاله الوقت، وفي النوبة التي يتم فيها السحور أو قبلها يستفسر النائم عن الوقت من خلال الاشارة.

وللسجن بعض المفردات الخاصة لا يفهمها إلا السجين، كما أن هناك بعض من لغة الاشارة، بالإضافة إلى استخدام لغة (المورس) ... في وقت من الأوقات دفع معتقلو سجن تدمر ثمنها غاليا بسبب بعض المخبرين الذين أوصلوا خبرها إلى إدارة السجن.

صمنا رمضانين في (جديد حنفية) بارتياح نسبي، وإن كانت وجبة السحور مرهقة لنا، حيث كنا نتناولها تحت البطانية في فراشنا ، وفي ذلك مشقة كبيرة.

ويأتي العيد
تشرق من مباهجه
وجوه الناس بالبشرى
ويأتيني بكل مرارة الذكرى
ليوقظ في الحشا جمرا
" شاعر "

ينقضي شهر رمضان بعد أن يثير في النفس شجوننا، وتتخلله آلاف الذكريات، وفي ليلة العيد التي نعرفها من خلال تكبير المآذن يكون لكل منا عالمه الخاص، فلكل شجونه وأشجانه وذكرياته، ويحلق بعيدا بعيدا وراء الأسوار وخلف السنين..

يا ألله! ما هذا الانسان بخياله الرحب الواسع ؟ وما هذا الانسان الذي يتحمل كل هذه الآلام ؟ وما هذا الانسان الذي يحمل بين جوانحه تلك الآمال ؟!!!...

العيد الأول كان الأكثر مرارة، فعندما استيقظنا صباحا، ومع ارتفاع صيحات التكبير كانت الدموع تملأ مآقي العيون.. في حين عجزت رباطة الجأش عند البعض أن تمنع جريانه على خدودهم،

وكانت عبارة (كل عام وأنتم بخير) تخرج من الأفواه مثل كتلة من الثلج البارد، أو تلقى كورقة شجرة صفراء سقطت على الأرض في فصل الخريف ...

صحيح أن النظام المجرم قد قتل الفرح في بلادنا، واغتال مظاهر البهجة في وطننا، وطمس معاني العيد في حياتنا، وأصبح لونه باهتا ووجهه شاحبا، إلا أننا كنا نحتفل به من أجل أطفالنا، ونتبادل الزيارات مع أقاربنا وأصدقائنا، لذلك فإن قدومه علينا سيلقي بظلال كئيبة علينا.

ومع مرور السنوات.. وحين سيصبح السجن هو عالمنا سيكون لنا عيدنا الخاص بنا، وسنصلي العيد ونتبادل التهاني والأمنيات التي تنحصر في عبارتين فقط : (كل عام وأنتم بخير) و (العيد القادم إن شاء الله بين أحبتكم) كما أن لكل شاعر قصيدته الخاصة بالعيد أو في كل عيد، فتارة يقول:

وجودي من وجود الحق والإيمان

وعيدي غاب مذ غابت خلافتنا عن الأوطان

....

وتارة يقول:

وراء الأفق لم تضحك أمانينا

وخلف السور كم قلب ينادينا

ويأتي العيد بالأفراح للناس

وعين الأم خلف البيد تبكينا

وصار الحزن أنهارا بإحساسي

وصوت الحق من أرواح إخوتنا يواسينا

وعيد الحر في وطني

لواء الحق خفاقا بوادينا

* * *

سلاما أيها العيد

أنا المأسور في وطني

أخط على جبين الدهر أغنيتي

لإخواني وأهلينا

تداعى الجسم من سقم

وفاض القلب بالأحزان والألم

كتبنا من رحيق الصبر لو تدري دواوينا

وخططنا على جدران أنفسنا مآسينا

وأمسى الحزن بالأحزان يرثينا

ورغم القهر والتعذيب ضوء الفجر يغرينا

ودمتم يا أحبائي

فذكراكم دموع في مآقينا

* * *

ظلام السجن يطوينا

ونار الشوق والآمال تكوينا

ونور الله يغمرنا ويهدينا

وعبر نوافذ الأمل

سمعت اليوم أنشودة

يلحنها صبي مسلم المقل

يتيما عشت يا وطني

فما أعددت للأوغاد والوثن

تربينا على القرآن

ترعرعنا على الآلام والأحزان

فكن يا عيد قنبلة وباروده

رصاصاتي برأس الفاجر الكفار أغروده

رفات الحر مازالت شموعا في ليالينا

وأحرار الغد الآتي

لقد ربطوا أمانيهم بماضينا

* * *

فيا فرعون قصتنا

ويا أنذال حقبتنا

عهود الظلم مادامت

عروش البغي واهية

فلا كنتم.. ولا كانت

وعين الحر ما نامت

دموع المرأة الثكلى

براكين لمنزلكم

وبسمة فجرنا الوضاء

إعصار بناديكم

* * *

وراء الأفق قد غنت أمانينا

ظلام الليل قد ولى

أمام النور من دمنا وفي فينا

إلى الآفاق قاطبة

سنهدي الحق والدينا

ونعلنها مدوية

سنفدي الحق والدينا

فأبشر يا شهيد الدرب قد جينا..

لقد جينا

" كاتب المذكرات "

*****

في الأعياد القادمة سنحضِّر الحلوى للعيد، إذ كنا نجمع في شهر رمضان ما يدخلنا من الحلاوة والمربى، فقد كان نصيب الواحد منا نصف أو ربع ملعقة.. سنجمع ما يأتينا في علبة حتى صباح العيد، حيث سنذيب الحلاوة والمربى، ونسكبه فوق الخبز المفتت في صحن كبير، ونتناول وجبة حلو مميزة وشهية في مضافة (حافظ أسد) وبرعايته طبعا، ومن مكرماته المنقطعة النظير.

* * 36 * *

إنه صباح يوم أسود كئيب.. كانت الحركة في الباحات غير عادية.. يدرك السجناء معناها جيدا من خلال تجربة طويلة مريرة. جو السجن يوحي بأن هناك حفلة اعدام .

وقف أحد الشباب على الباب، وبدأ يرقب الحركة من خلال ثقب صغير.. أتى الرقيب وقرأ قائمة من الأسماء، بعد نصف ساعة أو أكثر فتحت الأبواب التي يوجد فيها بعض من قرئت أسماؤهم وخرجوا منها، ثم اقتيدوا إلى الباحة السادسة ((باحة الاعدام)) كان أحد الرقباء المتطوعين – وله أسماء مختلفة في المهاجع.. أما اسمه الحقيقي فهو: (أحمد المحمود) – ينهال بالضرب على شباب معصوبي الأعين ومقيدين من أياديهم ، إذ بمجرد أن يخرج الشاب الذي سينفذ فيه حكم الاعدام من باب المهجع تقيد يداه وتعصب عيناه، كان هذا الرقيب

مميزا بشدة نذالته ولؤمه وحقده وقذارته وفجوره، ولكنه وللإنصاف كان من كبار اللصوص الذين مروا على سجن تدمر.

إنه يوم الثالث عشر من أيار (العيد الوطني لليهود) في هذا اليوم تقدم كوكبة من خيرة شباب الوطن إلى أعواد المشانق قربانا لعرش الطاغية المجرم الخائن، وعربون ولاء للصهاينة على تنفيذ تعهداته بخنق كل صوت حر، واعدام كل نفس أبية.

عندما نزلت لجنة تنفيذ الأحكام بالإعدام، كان من بينهم واحد له لحية طويلة، يمشي وكأنه قد تلبسه الشيطان. أقسم أحد الإخوة أنه يبدو (كحاخام)، وآخر قال بأن وجهه (وجه شيطان) لقد كانت وجوه جميع أعضاء اللجنة خالية من الحياة.. إنها وجوه محنطة رهنت نفسها للطغيان والاجرام، ليس فيها ذرة من الانسانية، يترأسها المجرم الكبير (سليمان الخطيب)، أما رأسها الأكبر الذي يقبع في القصر الدموي فلن يكون إلا (حافظ أسد) ..

يا لها من قصة رهيبة تلك التي يعيشها سجناء تدمر!! ويا لها من مأساة تلك التي يعيشها أبناء شعبنا في ذلك السجن الكبير المسمى سوريا!! وأية سوريا ؟ (سوريا الأسد) !!، يا للعجب العجاب!!! ... ذلك الوطن الجميل في خمسينيات القرن العشرين يتحول إلى مزرعة، بل إلى حظيرة، لأنه من الظلم بمكان أن يطلق عليها مزرعة، لأن المزرعة تتميز بخضارها الجميل ونمائها، أما (حافظ أسد) فقد

قضى على كل مظهر جميل في حياة الشعب السوري، وأفسد كل شيء حتى الهواء الذي نتنفسه..

لقد كان (حافظ أسد) كما عرفه المقربون منه، وكما يتجلى في طبيعة حكمه.. لا يريد أن يرى بشرا. لقد حصر برنامجه في ثلاثة مواد (الأكل والشرب والنوم) وحتى الأكل لا يناله الناس لحد الشبع فمبدؤه: (جوع كلبك يتبعك) فكان أن تحول المجتمع إلى فئتين:

-واحدة منها تلهث بشكل متواصل وراء لقمة العيش فلا تجد مساحة من الوقت لتقرأ ما يدور حولها ولا تفكر في سياسة الحكم وطبيعته .

-وأخرى متخمة بليدة الإحساس لا تحس بآلام الآخرين، ولا تريد أن تحس.

كما تحيط (بحافظ أسد) ثلة من العبيد ، فهو لا يريد سوى العبيد ، و لا يحسن التعامل إلا مع العبيد ، لذلك ترى هؤلاء المرابعين المرتزقة من وزراء و رؤساء وزراء و ضباط كبار عندما يجتمعون (بحافظ الأسد) يطأطئون رؤوسهم ، لا يتفوهون بكلمة أمامه – إلا بإذنه – و غالبا لا يتكلمون ، بل ينفذون ما يسمعون من أوامر ، و يصفقون كثيرا ، و ينزلون إلى الشوارع في المناسبات التي تخص (حافظ أسد) ليهتفوا باسمه ، و يرددون الشعارات التي تتغنى بأمجاد (حافظ أسد) الكاذبة ، يهتفون و يصفقون كأي صعلوك مرتزق ، لأنهم أيضا

مرتزقة . لكن (حافظ أسد) كان لا يجلس مع الأحرار، ولا يجرؤ على الجلوس معهم، لأنه سيتعرى أمام نفسه تماما، وستتجلى أمامه حقيقته الفاضحة: وهي أنه عبد قزم وصعلوك قذر.

مضت اليوم كوكبة إثر مواكب كثيرة سبقتها من الشهداء.. مضت إلى ربها تشكو ظلم الطغاة المجرمين.

حين سيحين موعد الطعام سأتقدم لآكل قليلا حتى لا أصاب بالسل كما يقول الاخوة، نعم.. لقد أكلت قليلا من الطعام لا أزال إلى اليوم أحس بمرارته في فمي، وألوم نفسي قائلا: كان علي ألا آكل ذلك اليوم حتى ولو أصبت بالسل احتراما لأرواح الشهداء الذين ارتقت أرواحهم إلى السماء.. ألوم نفسي بالرغم من أنني بقيت لأسبوع لا أستسيغ طعاما ولا أحسن المضغ، لا خوفا.. ولكن من شدة الحزن والمرارة التي صبغت عالمي ...

* * 37 * *

بعد خروج آخر دفعة اخلاء سبيل وذلك في نيسان ألف وتسعمئة واثنان وتسعين تم فرط المهجع (١٤)، وأدخلوا إلينا عددا منه.. عندما دخل هؤلاء الاخوة إلينا بدوا وكأنهم جاؤوا من القبور لتوهم، كما اعتدنا أن نرى كل من يدخل إلينا من المهاجع الأخرى.. عندما دخلوا كانت البهجة تملأ قلوبهم، وكأنهم قد أخلي سبيلهم، ذلك أنهم كانوا

نزلاء مهجع " الابتلاءات " انه المهجع (١٤) السيئ الصيت (أسوء مهجع في سجن تدمر)، كان وجود أحد الاخوة بينهم مثيرا للدهشة عند البعض من أبناء مهجعنا، فقد أخبر السجناء بأن هذا الأخ ((أبو نجيب)) قد مات، وذلك عندما نقل – يوما ما، في أحد الأعوام – إلى المستشفى، ولكن تم بناء هذا الخبر على معلومة قاصرة.. ذلك أنه عندما تم اخراجه من المهجع على بطانية، قال أحد الرقباء: إن هذا الشخص سيموت في الطريق، ولن يصل إلى المستشفى. وذلك بسبب وضعه المتردي.. لقد كان الأخ مصابا بفقر دم شديد، فضلا عن اصابته بعدد من الامراض الأخرى، وعلى رأسها السل.. وبناء على هذا القول الذي سمعه أحد الأخوة الواقفين على الباب نشر الخبر على أنه قد مات.. والحمد لله الذي حفظه، فقد كان من أنبل وأطيب من عرفت في حياتي، ليس في السجن فحسب، لقد احببت هذا الأخ كثيرا. كان يتعامل معنا كأب رحيم وأخ كريم، فضلا عن أنه كان مجتهدا دؤوبا ذا أخلاق عالية.. تحية من القلب إلى (أبي نجيب) أينما كان ....

كما كان من بينهم شخص يدعى (هيثم) بدت عليه منذ دخل إلى المهجع مظاهر العجب والغرور.. هذا الشخص سينزلق فيما بعد منزلقات خطيرة داخل السجن وخارجه، حيث سيعمل مخبرا لأجهزة قمع النظام المجرم خارج سوريا، فبعد انتقالنا إلى سجن (صيدنايا)، سيدخل علينا شاب صغير السن عمره ستة عشر عاما من أسرة مميزة في

ذكائها ومواهبها.. هذا الشاب الصغير كان على وشك إنهاء حفظ القرآن الكريم، وهو خارج السجن وله مواهب أخرى.. أخبرنا بأن (هيثم) هذا ، هو من اتصل بأجهزة القمع وأودى به إلى السجن، كما كان من بينهم شخص عرف باسم(الطيار) وصولي أفاق منحط. كان بلاء على المهجع لفترة قصيرة ثم لم يطل به المقام بيننا حتى أخلي سبيله والحمد لله.

* * 38 * *

نحن الآن في فصل الصيف عام (٩٢).. أستلقي على فراشي لأخذ قيلولة.. تحصل مشادة صغيرة بين شخصين (كلاهما بعثي) ومن بلد واحد، أحدهم يريد افتعال مشكلة مع الآخر، أما الآخر فكان مسالما إلى أبعد الحدود.. لا أدري بالضبط ما الذي حمل ذلك الشخص على افتعال تلك المشكلة الصغيرة.. تقدم الشخص المسالم من سلته التي يضع فيها ثيابه.. الآخر مضطجع تحتها.. تسقط سترة قرب رأسه.. ينهض من مكانه، ويقول للمسالم:

– لو كنت نائما لأيقظتني من النوم.

– يرد عليه المسالم: عفوا، سامحني لم أقصد.

– يقول الآخر: ولكنك كنت ستوقظني من النوم ((بوجه عبوس طبعا)).

– يرد المسالم: ولكنك على أية حال لم تكن نائما..

- فيقول الآخر: ولكن لوكنت نائما لأيقظتني.

- يرد المسالم: يا أخي حل عني، أنا لا أريد أن أتشاكل معك..

يبربر الآخر بكلمات غاضبة، ثم يستلقي على ظهره.

في الواقع، أمام هذا المشهد ابتسمت في داخلي ابتسامة عميقة ناتجة عن الدهشة والاستغراب.. أمام حالة في غاية الطرافة لا تحتاج إلى تحليل، ذلك أن الشخص المشاكس يوظف أتفه الأسباب من أجل إثارة مشكلة ...!!

ومرة في وقت القيلولة كان يقف أربعة من البعثيين، كان أحدهم ويدعى (مكاري) قد عرف بشدة كذبه.. كان يطلق عليه أصحابه لقب "عبد الله بن أبي بن سلول" كبير المنافقين في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقص مكاري على أصدقائه قصة، أو ينقل لهم خبرا، لا أدري بالضبط، ولكنهم يكذبونه..

يقول لهم بانفعال: صدقوني يا شباب..

- فيجيبونه: بأنك كذاب..

يزداد انفعاله ويقسم لهم.. وفي كل مرة تتكرر الاجابة بأنك كذاب، تبلغ درجة انفعاله أقصى الحدود، ويحمر وجهه حتى يكاد الدم يخرج من وجنتيه، ويقفز في الهواء ويجلس إلى الأرض، ويعاود الكرة تلو الكرة مقسما لهم بأغلظ الأيمان بأن ما يقوله قد حصل..

ينظرون إليه وهم يضحكون بملء أفواههم من هذا المشهد الهزلي الذي يتجسد أمامهم، ثم يجيبونه: بأنك كذاب..

وعبثا حاول إقناعهم بأنه صادق فيما يقول، ولكن دون جدوى.

قلت لأخ بجانبي: أرأيت هذا المشهد؟

كانت ابتسامة عريضة ترتسم على محياه، قال: نعم.

قلت: هذه تلخص مأساة الرجل الكذاب، إنه هو من رسم هذه اللوحة التي اختلط فيها الضحك مع الغضب.. قد يكون "مكاري" صادقا في هذه المرة، ولكن أحدا لن يصدقه لأنه عود الناس على أنه شخص كذاب، لذلك لن يصدقوه ألبته ....

ومرة كنت نائما وقت القيلولة، استيقظت على صوت شابين يتحدثان بهدوء حديثا يجري في عروقه الملل والسآمة، كان يقول أحدهما للآخر:

- هذا الصيف يكاد ينتهي ولا حركة فيه، لا تنفسات ولا إعدامات..

أخذتني الدهشة مما تفوه فيه، وقلت في نفسي: (يا إلهي.. ألهذه الدرجة يمكن أن تبلغ بلادة الإحساس وبرودة المشاعر لدى البعض ؟!). وكأن حفلات التعذيب فيما يسمى بالتنفسات، وتنفيذ أحكام الإعدام أصبحت جزءا من حياة السجين، وطابعا ملازما للسجن.. لقد نجحت عملية غسيل الأدمغة عند عدد لا يستهان به من نزلاء السجن

حتى جعلت من أمور مثيرة تمر دون أن تحرك فيهم شيئا، في حين انحصر اهتمامهم في أمور تافهة ...

قليلا ما كنت أقترب من ثقب الباب وأنظر من خلاله إلى ما يجري في الباحة، فقد كان هناك من استأثر بهذا الموقع لدرجة مزعجة، إذ احتكروا هذا الثقب الصغير دون أن يعطوا فرصة للآخرين لإشباع بعض فضولهم ....

ومرة في فصل الصيف بينما كنت مستلقيا وقت الظهيرة، وحين كان غالبية من في المهجع يرقدون في قيلولة، ولا يوجد أحد على الباب، انتهزت هذه الفرصة ونهضت من مكاني متجها نحو الباب لأنظر من ثقبه، اقتربت منه ورفعت قطعة القماش التي تغطي الثقب ووضعت عيني عليه .. كان مقابل (جديد حنفية) مهجع الرعب (١٤) على بعد عشرين مترا من (جديد حنفية) بالإضافة إلى المهجع (١٥).. كان يقف على سطح المهجع (١٤) شرطي يحمل بارودة، اعترتني أحاسيس غريبة منها: أني شعرت أن هذا الشرطي السجان لا ينتمي إلى هذا الوطن.. وشعرت بعداء شديد تجاهه إذ لا يمت إلي بأية صلة، لا وطنية ولا دينية.. ومن الممكن في أي وقت أن يصوب بندقيته إلى صدري ويقتلني. كما أنه هو من يجلدني بسياط القهر والإرهاب صباح مساء..

صحيح أنه أداة قذرة في يد الجلاد الكبير (حافظ أسد) ولكن هذا لا يعفيه من المسؤولية بأي شكل من الأشكال، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ..

كما شعرت أن شبح الموت يخيم في سماء السجن، وتبدو ملامحه في كل ركن وفي كل زاوية بل في كل شبر في السجن.. ترى هل يعود هذا الإحساس إلى كثرة من قضوا في هذا السجن قتلا وإعداما ومرضا وتعذيبا فباتت أرواحهم تشكل مظلة تخيم في سماء السجن، أم لأنني كنت مهددا بالإعدام من قبل المجرم " سليمان الخطيب " ؟؟!!

في الشهر الأخير من عام (٩٢)، وفي أحد الأيام كان طعام الغداء فاصولياء بيضاء، تناولنا طعامنا كالمعتاد، لكن عند منتصف الليل كثرت الإشارات للحارس الليلي للخروج إلى دورة المياه ... إنها حالة إسهال شديدة أصابت غالبية أفراد المهجع، يبدو أنهم وضعوا شيئا في الطعام، سمعنا أبواب المهاجع الأخرى تفتح.. وبعد دقائق فُتح باب مهجعنا، إنه مساعد السجن، سأل المسؤول الصحي:

- كم حالة إسهال عندك؟

-حتى الآن خمسة عشر والعدد في ازدياد.

أعطاه حفنة من الحبوب ثم انصرف..

توقعنا أن تخرج دفعة إخلاء سبيل، لقد تكررت هذه الحالة، فقبل خروج دفعة إخلاء سبيل يضعون شيئا في الطعام يؤدي إلى إسهال، ثم يوزعون الأدوية ليظهروا أنهم يهتمون بالحالة الصحية للمساجين..

نعم.. لقد كانوا يهتمون بوضعنا الصحي كثيرا، فعندما كان يأتي طبيب السجن – وهو من أبناء الطائفة النصيرية – يمر على المهاجع كل شهرين أو ثلاثة أو ستة أشهر مرة واحدة، ويطلب الحالة المرضية الأشد، كان هذا المجرم الذي يطلق عليه زورا وبهتانا لقب "الطبيب"، يطلب من السجين أن يستلقي على الأرض ثم يجسه بقدمه، ويسأله عن مرضه!!! وأحيانا كان يضربه بمنتهى الإنسانية التي تتناسب مع شهادة الطب التي يحملها..

وعندما كانت تستعصي بعض الحالات المرضية على الأطباء المعتقلين، وتحتاج لإجراء عملية جراحية، كان يجريها الطبيب (طبيب المهجع) بأبسط الأدوات وبدون مخدر ولك أن تتخيل شدة المعاناة من قبل المريض والطبيب.. وحين يتعذر إجراء العملية لسبب ما، كخطورة العملية.. ويبلغ عنها إدارة السجن، يؤخذ المريض إلى المستشفى التابع لإدارة السجن، وإذا كانت العملية تحتاج إلى فتح بضع سنتيمترات في بطنه، كان يقول الرقيب للطبيب: قصِّبْه، فيفتح له بطنه من أسفله إلى أعلاه، بمقدار لا يقل عن ثلاثين سنتيمترا..

أما العضال، فكان مساعد السجن يطلب من المسؤول الصحي ألا يخرج إلا من هو محمول على

البطانية، وكأنه يقول له: أخرج من سيموت في أقرب وقت. أما مرض السل الذي عشش في أجساد الكثيرين من المساجين، فلن يرشح أحد منهم كمريض عضال، ذلك أن مرض السل قابل للعلاج، والمصاب به قد يعيش فترة طويلة ...

لقد عرفت مريضا لا تبدو عليه علامات المرض، وكانت حركته لا تشي بأي عرض.. هذا الشخص انقلب وضعه رأسا على عقب خلال أسبوعين، ومات.. لقد كان مصابا بسرطان في المعدة. لقد بلغت العناية الصحية ذروتها في مضافة (حافظ أسد) أدت إلى وضع حد لحياة كثير من المعتقلين..

هذه الحالة ومئات الحالات الأخرى، بل آلاف، جسدت إنسانية (حافظ أسد) بشكل مذهل، هذا إذا كان ينتمي إلى عالم الإنسان هو وأزلامه وجنوده ...

وبالفعل، بعد أيام تم إخلاء سبيل دفعة قدر عددها بحوالي مئة معتقل..

* * 39 * *

في نبسان (٩٣) شحت مياه (جديد حنفية).. لقد كان خط هذا المهجع مع مهجع آخر غير خط المهاجع الأخرى.. لقد كانت مياه (جديد حنفية) قليلة نسبيا، لكنها كانت كافية إلى حد ما إذا تعامل السجناء معها بعيدا عن الإسراف، وبنوع من الاقتصاد.. بالإضافة إلى كونها عذبة بخلاف مياه المهاجع الأخرى التي توصف مياهها بالمرة..

عندما بدأت تشح مياه (جديد حنفية) بدأنا نقتسم المياه بالكاسات، وتمكن أحد الإخوة من صنع مضخة يدوية بأدوات بدائية جدا، وبدأنا نضخ ليل نهار، لأن الخروج من مهجع جديد حنفية يعني الكثير لنا: إنه العذاب المستمر.. وبالرغم من كل محاولاتنا في توفير المياه من داخل المهجع، ومحاولة شفطه من داخل الأنابيب إلا أن ذلك كله لم يجد نفعا ...

بلغنا الرقيب بأنه لا يوجد عندنا ماء، طلب منا أن نخرج البيدونات الفارغة، وطلب من المهجع (١٢) بجوارنا أن يخرج مثلها ممتلئة، فأدخلناها.. وتكرر الطلب عدة مرات بالرغم من اعتراض عدد من أفراد المهجع – خاصة أولئك الذين جاؤوا من المهجع (١٤) – خوفا من فرط المهجع، أو الانتقال إلى مهجع آخر فتشبثوا بالمهجع بشكل غريب نتيجة المعاناة التي عاشوها في ذلك المهجع البالغ السوء.. لقد

كان المهجع (جديد حنفية) فندقا بالمقارنة بالمهجع (١٤).. ولكن ما العمل؟ لا يمكن الاستمرار بدون ماء بأي شكل من الأشكال، ليس لأجل الشرب فحسب، وإنما من أجل النظافة: نظافة الجسم والثياب والمهجع ودورة المياه..

في غضون الأيام التي سبقت رحيلنا من (جديد حنفية) أخرجونا إلى باحة الحمامات، الأمر الذي أعاد إلى أذهان السجناء ذكريات (حمامات الدم) المصبوغة بالأسى والآلام، وأطلق في سماء السجن سحبا من الخوف والرعب خشية من عودة الحمامات ...

زرنا باحة الحمامات (الباحة الثانية) مرتين، مرتا بسلام، ولكن لم يعد الأمر يطاق.. إن الماء هو الحياة فعندما كانت المياه تنقطع في أي مهجع تسيطر حالة عجيبة من الركود والقلق يعجز التعبير عن وصفها، إذ تكاد تنعدم الحركة في المهجع ويشاهد الناس في حالة أشبه ما تكون بحالة اليأس والقنوط، ولا يكاد المرء يلحظ ابتسامة واحدة على وجوه السجناء، بل يلمس حالة من البرود تشبه حالة الموت وذلك عندما تطول فترة انقطاع الماء ... وعندما تعود المياه إلى الجريان تدب الحياة في أوصال المهجع، وتموج الحركة فيه، وتعود البسمة إلى وجوه الناس ..

أيام قليلة .. ويأتي الرقيب ليطلب منا أن نجهز أغراضنا للانتقال إلى مهجع آخر.. بعد ساعة نخرج من المهجع واحدا إثر آخر يتقدمنا شرطي يأخذ بطرف رئيس المهجع الذي يصطف في الأمام ..

يقوم الرقيب بعملية التفافية في الباحة للتضليل حتى لا نعرف إلى أية باحة سوف يقتادوننا.. بعد ذلك يدخلنا إلى باحة ثم إلى مهجع، وبمجرد أن نرفع الأغطية (الطماشات) عن أعيننا يعرف البعض منا في أي باحة وفي أي مهجع صرنا، فقد زار البعض منا معظم المهاجع – خاصة أولئك الذين دخلوا مهاجع السل.. قال أحد الشباب:

إنه المهجع (٢٣) في الباحة الرابعة..

* * 40 * *

ما إن دخلنا مهجع (٢٣) ووضعنا أغراضنا حتى بدأنا نتفحص المهجع.. كل زاوية فيه، كانت المياه تجري عبر أنابيبه بغزارة، وكان المهجع يختلف تماما عن مهجع "الندوة" و"جديد حنفية" من جميع النواحي، فهو يتألف من ثلاث غرف. كما أنه من المهاجع القديمة التي بنيت أيام الفرنسيين، وبدأنا نبحث عن ثقب في الباب، ومن خلاله عرفنا أنه لا يمكننا أن نرقب أي حركة مما يدور في السجن. بعد قليل سنتوزع مساحة المهجع بعد قياسه ومعرفة مساحة كل فرد منا، ثم

سنعمل على ترميم المهجع من الداخل، وشغل الشبك من أجل وضع الأغراض على الحائط.. وهكذا.

عندما حان موعد التفقد اصطففنا خمسا خمسا، وما إن فتح الباب وسمعنا صوت الشرطي "اخرج" حتى أسرعنا بالخروج، واصطففنا في وسط الباحة، لقد كانت تجربة جديدة لي ولكل من كان في دفعتي ... أن يكون تفقدنا خارج المهجع، وبدأ الشرطة يقتربون منا ولطمة من هذا ورفسة من ذاك.. لقد كان التفقد خارج المهجع كارثيا لأنه حفلة يومية لا بد منها، وكان مهجعنا آخر مهجع في الباحة، لذلك سنكون في متناول أيدي الشرطة ما لا يقل عن عشر دقائق.. كانت قلوبنا تضرب صدورنا بقوة، وننتظر بفارغ الصبر أن يصل الرقيب إلينا ليسأل عن العدد، وما إن يسمع السجناء كلمة "ع المهجع" حتى يندفعون إلى باب المهجع بقوة.. وما إن يدخل الواحد منا المهجع حتى يتنفس الصعداء، وكأنه قد نجا من مخالب وحش ضار قد هم بافتراسه ..

وفي أحد الأيام تكالب علينا اللئام بشكل فظيع، وعندما التفت "العريف" المرافق لهم، وكنا نطلق عليه اسم (جساس) حتى صرخ فيهم: ما هذا ؟ مذبحة ؟! ويبدو أنه نقل الصورة لإدارة السجن، ومنذ ذلك اليوم لم يعودوا يخرجوننا إلا قبل أن يأتي دورنا بالتفقد بمهجع واحد، فأصبحت عملية تفقدنا لا تستغرق أكثر من دقيقة في غالب

الأحيان، وأصبح رئيس المهجع يتحكم بإدخال المساجين إلى المهجع تجنبا للفوضى.

ما إن دخلت إلى المهجع في أول تفقد لنا في (٢٣) حتى بادر أحد الشبان ممن قدموا من المهجع (١٤) إلى حمل إبريق الماء، وراح يطوف به على بعض السجناء قائلا له: اشرب.. اشرب.. الماء نهر.. إنه كثير.. كثير.... اشرب. في الواقع استأت من هذا التصرف، واعتبرته بيني وبين نفسي نوع من قلة الأدب. علما أن هذا الشاب كان لبقا في التعامل مع الناس، ولكن سبحان الله لكل منا هفواته. لقد نسي أنا بذلنا كل ما في وسعنا من أجل الحصول على الماء في "جديد حنفية "، ولكن مرارة مهجع "١٤" حملته على هذا التصرف.

ثم أصبحنا نمزح مع بعضنا، خاصة مع الأخوة الذين كانوا يوفرون كاسات الماء التي يستحقونها، وأكثر ما كان محطة للتندر طبيب أسنان اسمه "عبد الله" فهو كان الأكثر توفيرا للماء.

تقدم مني بعض الأخوة وسألوني: ما رأيك بهذا المهجع؟،

- أجبتهم: إنه أفضل من مهجع الندوة بكثير.

لقد تعلمت دائما أن أقارن الواقع المعاش بالأسوأ... ونسيت مذ دخلت "٢٣" مهجع "جديد حنفية"،' لذلك اعترتني حالة من الارتياح.. ظل بعض الشباب يحنون ويذكرون "جديد حنفية" ويأملون

في الرجوع إليه بعد تصليحه، ولكنها كانت مجرد أوهام لن يحصدوا منها سوى الحسرات..

* * 41 * *

بعد أربعين يوما تقريبا من دخولنا مهجع "٢٣ " قرئ اسم أحد الشباب الدمشقيين ... لم يقل الرقيب شيئا، بدأ التساؤل: لماذا، وما الأمر؟ وحين عاد الرقيب وطلب منه الخروج، قال له – خارج المهجع –: ارفع رأسك، ثم أعاده إلى المهجع،

– قال الرقيب لرئيس المهجع: احلق ذقنه وألبسه ثيابا جديدة..

إذن، إنها "الزيارة" منذ سنوات طويلة قد انقطعت الزيارات، وتحديدا أيام المجرم (فيصل غانم) مدير السجن الأول لسجن تدمر أيام محنة الإخوان.. لم تعد توجد زيارات إلا في حالات نادرة جدا جدا..

أيام (فيصل غانم) محفورة في أذهان نزلاء سجن تدمر. نعم. إنها محفورة بالدم.. محفورة بكل ما أوتي نظام (حافظ أسد) من وحشية ولؤم ونذالة وإرهاب، وملونة بكل أشكال التعذيب، وتفوح منها كل روائح الألم..

(فيصل غانم) هو أبو جهل سجن تدمر، حيث تقرأ أسماء المزارين الذين دفع أهلوهم عرق جباههم وعصارة عمرهم واشتروا قطعا ذهبية لدفعها لأم المجرم (فيصل غانم) مقابل الحصول على كرت زيارة لأفلاذ

أكبادهم الذين زجوا في المعتقل الرهيب، لأنهم تجرؤوا على قول: (لا) لصنم سوريا المجرم الأكبر "حافظ أسد".. في الوقت الذي كان فيه بعض الشبان يذهبون للزيارة، كان يقاد آخرون إلى باحة الإعدام، لتنفيذ الحكم فيهم شنقا.. وبعد عودة الأخ من الزيارة كان يسرق منه معظم الأغراض التي أحضرها له أهله من ثياب وطعام ثم تباع له من جديد، كما يأخذ مساعد السجن نسبة من الأموال التي أخذها السجين من أهله.. هذه اللصوصية ليست غريبة على الإطلاق عن نظام حافظ أسد المعروف بشدة وقاحته في اللصوصية والإجرام، فهو وحاشيته وأزلامه عاثوا فسادا في سوريا سلبا ونهبا وتدميرا وخرابا وقتلا وإجراما.

في العودة إلى الشاب الذي قرئ اسمه للزيارة، بعد أن جهزوه لباسا وحلاقة. أتى الرقيب وفتح الباب وطلب منه الخروج. وبدأنا بالانتظار في مشاعر يعز وصفها. ترى كيف سيقابل أهله بعد فترة غياب زادت عن عشر سنوات ؟ ماذا سيقول لهم ؟ وماذا سيقولون له في جو الإرهاب الذي يخيم على كل مفاصل السجن؟، أسئلة كثيرة انهالت على خواطرنا، وتخيل كل منا أهله عندما يزورونه، وكيف أصبح وضع كل واحد من أفراد أسرته وكيف سيكون قد تغير شكله، وكم ستكون الصدمة كبيرة عنده وعندهم، وكيف سيقابلهم في هذا الشكل البائس..

غاب الشاب قرابة ساعتين ونصف، فتح الرقيب الباب ثم طلب الرقيب من رئيس المهجع أن يخرج اثنين من أجل إدخال أغراض

الشاب المزار.. وما إن أغلق الباب حتى هب جميع أفراد المهجع يهنئونه على الزيارة ...

بعد قليل طلب رئيس المهجع من الجميع الجلوس ليسمعوا ما سيقصه عليهم زميلهم من خبر زيارته، جلس الجميع ينصتون.. وقف أمامهم يحكي ما جرى في زيارته منذ اللحظة التي خرج منها من باب المهجع ...

عندما وصل إلى باحة الإدارة كان شابان آخران يجلسان إلى الحائط ينتظرون الإذن لهم للدخول لزيارة أهليهم.

كانت الزيارة في هذه الأثناء تتم في غرفة المساعد، حيث يجلس الأهل على كراسي أعدت سلفا ثم يؤتى بالسجين الذي ينتظر في الخارج.. يعطيه الرقيب حزمة من التعليمات (وضعنا جيد.. لا نحتاج لشيء. كل شيء متوفر عندنا من الغذاء والدواء.. لا تسأل عن أحد غير أفراد أسرتك، ولا تتكلم عن أي شيء عام ... لا تأخذ منهم أكثر من ثلاثة آلاف ليرة لأنك لست بحاجة للمال أصلا، وكل شيء تمام..)

ثم بدأ يقص علينا كيف دخل على أهله، وكيف احتضنوه وعانقوه ودموعهم تسيل على خدودهم، سأل عنهم ماذا يعملون، وممن يتزوجون، وماذا خلفوا ؟؟؟ وماهي الدراسات التي حصلوها ؟ و و و.. وكلها أمور شخصية.. كيف حال عمي وعمتي وخالي وخالتي وجدي وجدتي؟ استغرقت الزيارة ٢٠ دقيقة تقريبا..

– قال له المساعد: هل تريد من أهلك شيئا؟

– أجاب: لا.

أخرج أحدهم مالا. قال له ثلاثة آلاف فقط.. أرادوا أن يعطوه المزيد. قطع عليهم المساعد الطريق. وقال: يكفي ثلاثة. إنهم لا يحتاجون للمزيد.. ودع أهله وخرج. وبالرغم من أن الزيارة تستغرق ما بين ربع ساعة وثلث الساعة إلا أن السجين عندما يحكي ما جرى في زيارته تمتد الفترة إلى حوالي ثلاثة أرباع الساعة، حيث يدخل في أدق التفاصيل، ويأخذ الوصف حيزا كبيرا من حديثه.. بعدما أنهى حديثه تقدم البعض يهنئونه، كما تقدم البعض لتهنئته للمرة الثانية مع الدعاء له بأن يكون قريبا بين أهله وأحبائه.. وبعد أن تنتهي التهاني، يجلس مع صديق له أو أكثر لينظر ماذا أحضر له أهله ... ماذا سيأخذ لنفسه، وماذا سيوزع، ولمن سيعطي ؟؟؟... قلة هم أولئك الذين سيمدون أعناقهم طمعا في الحصول على شيء، ولكن الغالبية ممن عرفت من سجناء تدمر يرتدون ثوب العفاف.. والبعض منهم سيترفع عن الأخذ حتى لو جاءتهم الهدية، عفة أو إباء أو إيثارا..

في هذا العام ستأتي عدة زيارات لأفراد متفرقين في عدة مهاجع، ولكنها بقيت قليلة ومعدودة .

* * 42 * *

في بداية صيف (٩٣) أمرنا بالخروج من أجل التنفس، وأمرنا بالاصطفاف في وسط الباحة ثم أمرنا بالمشي ... إنه أسلوب جديد في التنفسات. كانت العادة في التنفسات أن نجلس أمام المهجع خافضي الرؤوس وأيدينا وراء ظهورنا، أما طريقة المشي فلم يعهدها سجناء تدمر، لا بد أنه قد طرأ جديد في الإدارة.. بعدها أمرنا بالإسراع في المشي ثم الجري.. ولكن السجناء كانوا يجرون أرجلهم جرا، وقلة قليلة هم أولئك الذين حافظوا على توازنهم كانت السياط تنهال على ظهور من سقطوا ، وبقوة ، لذلك كان يحرص كل واحد منا على ألا يسقط على الأرض خوفا من سياط الجلادين، ولكن اللافت أن كل من سقط لم يستطع أن يستجمع قوته مرة أخرى للنهوض، لقد فرغ كل طاقته، ولم تبق لديه أية شحنة تسعفه في الوقوف .. حتى الخوف لم يتمكن من شحنه بأي شكل من الأشكال.

يا إلهي لقد بلغ الضعف منا كل مبلغ حتى أنا الذي كنت أتمتع بحيوية عالية، وكان أصدقائي يصفونني بأنني ذو لياقة بدنية ممتازة أصبحت أجر أقدامي جرا كي لا أسقط على الأرض.. كنا نلهث بقوة، والعرق يتصبب من أجسامنا حتى أغرق كل ثيابنا، أما الذين سقطوا

على الأرض فكان صراخهم يشق الفضاء وهم يكوون بسياط اللئام الحاقدين.

عندما دخلنا إلى المهجع وقفت أنظر في وجوه القوم والحالة التي صاروا إليها.. لفت نظري شخصان عندما دخلا الباب تابعا جريهما إلى الغرفة الثالثة، وهناك قذفا بأنفسهما على الأرض لم يخطر على بالي في تلك اللحظة إلا قول الله عز وجل "لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون" نعم لم يكونا يباليان بشيء أمامهما، وكانا يبدوان كدابتين جامحتين، ولو وجدا جحر فأر لحاولا الولوج فيه من شدة الذعر.. هذا النموذج من الناس ترتفع أصواتهم داخل المهجع، ويكثرون الجعجعة، ولكنهم خارج المهجع كانوا خوارين (أجسام ضخمة بقلوب فئران) ...

في نفس اليوم أو بعد بضعة أيام شوهد من خلال ثقب الباب ضابط برتبة عميد لم يبرز على الساحة من قبل.، وبدأنا التكهن: ترى هل تغير المجرم (غازي الجهني) وحل محله هذا الوغد ؟ تبين لنا فيما بعد أن هذا الضابط جديد على السجن، ولكنه ليس بديلا لغازي الجهني وإنما مساعد له. لايزال الشباب القدامى يذكرون المجرم (غازي الجهني) حينما قدم إلى السجن، وحين وقف في الباحة الأولى وأمامه الشرطة والرقباء، وكيف خاطبهم قائلا: أريد رؤية الدم يجري

في الباحات.. أريد أن أرى عينا هنا، وأذنا هناك، لقد كانت الجريمة تجري في عروقه، كان يتنفس حقدا ويزفر لؤما وينضح قذارة ...

بعد أن انصرف من الباحة، قال مساعده المجرم " نعمة " مخاطبا الشرطة والرقباء: أوامر سيادة العميد تنفذ كلها، ولكن بأمر مني..

نعم، لقد كان نعمة بالرغم من إجرامه قوي الشخصية، لا يتحرك رقيب أو شرطي بحركة إلا بأمره. لدرجة أنه عندما يرتفع سوط الجلاد فوق جسم السجين وتأتي الإشارة له: (أن.. لا..) لا يجرؤ الشرطي على إنزاله على جسد السجين ومخالفة أمر الرقيب، وهذا الانضباط من مصلحة السجناء، لأننا سنشاهد – فيما بعد – عندما يتغير (نعمة)، ويأتي محله آخر ضعيف الشخصية، ستكون كارثة على السجناء.. ستستمر تنفسات صيف هذا العام مشيا على الأقدام تتنوع المشاهد والأحوال فيها بين القسوة والعادي.

* * 43 * *

كنت شديد الاهتمام بنظافة أسناني، لكنا حرمنا من الفرشاة والمعجون في السجن، فبدأت أنظف فمي بالصابون، ولكن حرصي على نظافة أسناني لم يحل دون تسوس بعض أسناني، ربما يرجع السبب إلى سوء التغذية، كما يعود السبب إلى عامل وراثي كما حدثني أحد أطباء الأسنان عندما سألته عن ذلك..

في أحد الأيام بدأ أحد أضراسي يؤلمني، وألم الضرس –كما هو معروف – لا يطاق، ولا سبيل لمعالجته – في السجن – سوى بوسيلة واحدة، وهي الخلع، فطلبت من طبيب الأسنان أن يخلع لي ضرسي، ولم تكن هناك أدوات فنية ولا مخدر، كل ما هناك هو قطعة معدنية مأخوذة من قصاصة أظافر. أو الخلع بوساطة الخيط..

لقد كان خلع الضرس مرعبا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، إنه أشبه ما يكون بانتزاع الروح من الجسد. كان الأخ الطبيب يعالج ضرسي ليخلعه وأخ آخر يمسك براحة يدي في منتهى الشفقة والحنان، يدعو الله –عز وجل – ويسترجع قائلا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقدت عددا من أضراسي في هذه المرحلة الرهيبة التي امتدت إلى ما يزيد عن ستة عشر عاما أسأل الله – عز وجل – أن يغفر لي ويعفو عني.

* * 44 * *

ومضى عام آخر ..

رسول الشوق هل سافر؟

إلى أمي

إلى أبتي

إلى الأحبة من أهلي وإخواني

مساء خريفنا الأول

حمام القلب قد هاجر ..

* * *

وثار الشوق في نفسي فأرقني

تفجر من صميم القلب وزعني

على الآلام والأحلام والذكرى

إلى الفجر الذي أسرى

وطال البعد عن أحضان قريتنا

وطال البعد عن أقناء مسجدنا

عن الحقل الذي كنا زرعناه

تراه اليوم هل أزهر؟

* * *

ومضى عام آخر ..

سؤال الأمس في نفسي

مجاري العقل قد حاصر

عن الطاعون في وطني

عن الحبر الذي قد صار كالعفن

عن الإنسان في زمني

وما زمني؟!

أنا زمني

فإن كنت لهيبا يحرق العفنا

صحا مجدي

وإن كنت غبيا أعبد الوثنا

فمصنوع على قدي

*   *   *

ومضى عام آخر ..

جنون الكفر والإلحاد

بالأرواح قد تاجر

وسوط البغي والجلاد

بكل مبادئ الإنسان قد قامر

*   *   *

ومضى عام آخر ..

سفير النور أخبرني

بأن الفجر من ميناء آلامي وأحزاني

لقد أبحر ...

" كاتب المذكرات "

ها نحن الآن نودع عاما آخر ونستقبل عاما جديدا، وفي مستهل العام الجديد (٩٤) عند المساء تحديدا في " ٢١ " كانون٢ سمعنا فجأة عبر مكبرات الصوت لمآذن مدينة تدمر أصوات قراءة القرآن تصدح في

سماء المدينة، انطلقت قراءة القرآن من جميع المآذن في مساجد المدينة.. أنصت الجميع.. وخشع الناس في حالة من الترقب.. لقد اعترتني حالة من الشعور بالفرح مع الحذر، ما الذي يمكن أن يكون قد حدث غير موت الطاغية (حافظ) ؟!

بعد قليل جاء الشرطي، وعبر الفتحة السقفية (الشراقة) أمرنا بالنوم قبل موعد النوم بساعة تقريبا. عندما استلقينا على الفراش وأخذنا وضعية النائم و (الطماشات) على أعيننا كان كل واحد منا يفكر فيما وراء قراءة القرآن . لا شك أن الهواجس بين الجميع كانت واحدة والتحليل متقارب جدا وإن كان لكل منا طريقته في التفكير والتحليل.

في الصباح.. بعد الاستيقاظ بقليل، عاد صوت قراءة القرآن يصدح في سماء المدينة، فيصل إلى أسماعنا كأنه صوت من الجنة، واكتست غالبية الوجوه بملامح البشرى والفرح متأملين أن يكون الطاغية المجرم قد مات، لأن ذلك يعني لنا الخروج من السجن فنحن لم نكن فرحين بموت الطاغية فحسب، ولكن ما سينتج عن موته من فرج ومخرج لنا من السجن وتغيير في سياسة البلد (هكذا كنا نحسب) لأننا لم نكن نتصور أن تصل الوقاحة والاستخفاف بالناس أن يورث المجرم ابنه رئاسة البلد في نظام يفترض أنه جمهوري _ خاصة بعد موت الوريث الأول _

في النتيجة معظمنا بدأ يحلم بالخروج من السجن ... لقد كان موت (حافظ أسد) أمنية لنا، وكل الآمال معلقة بموته.

لقد حلقت بعيدا في هذه الليلة على أجنحة الأحلام وأسرة الأماني، وضعف سلطان النوم أمام الهواجس التي ألمت بي.. لكن غالبية المهاجع الأخرى كانت تعرف حقيقة ما حدث – كما تبين لنا فيما بعد – ذلك أنه قبل البدء بقراءة القرآن قرئ اسم الميت وقد سمعه البعض وأخبروا رفاقهم. أما في مهجعنا فلم نسمع ذلك، وبالتالي بقينا في حالة ترقب لشهور..

ولمدة أسبوع استمرت قراءة القرآن في المساجد من الصباح إلى المساء.. كانت جلساتنا في هذه الفترة تدور حول الحدث تحليلا وتركيبا، فقراءة القرآن تشير إلى موت شخصية هامة، ومن المستبعد جدا أن تكون هذه الشخصية من خارج العائلة الحاكمة، لأن (حافظ أسد) لم يكن يأبه لأحد ممن حوله، فبطانته عبارة عن مرتزقة وصولية اشترى ذممها وقتل ضمائرها فغدت عند حافظ أسد مجرد أحذية يخلعها متى شاء، وفي أحسن الأحوال أدوات يستخدمها في تحقيق مآربه ليس إلا..

إن جو السجن لا يوحي بأن شيئا قد تغير، ذلك أن الضرب والشتائم لا تزال مستمرة كبقية الأيام، ولم يطرأ تغير إلا في الطعام كما

ونوعا لعدة أيام.. ولكن مع ذلك افترضنا أن يكون (حافظ أسد) قد مات، فمن سيخلفه يا ترى؟!

وعدنا نحلل الوضع السياسي بدون أية معطيات من الواقع، ذلك أنا لم نقرأ كتابا أو جريدة منذ سنين طويلة، فضلا عن أن نسمع مذياعا أو نشاهد تلفازا.. إن البعض منا أصر على أن يكون الميت هو (حافظ أسد)، لأن موته هو طوق النجاة والجسر الوحيد للعبور من السجن إلى فضاء الحياة الرحب الضيق ..!! كان من بين هؤلاء أخ طيب لدرجة مذهلة، بسيط إلى أبعد الحدود، طبيب أسنان نال الترتيب العاشر على دفعته، متواضع جدا خدوم للناس.. ففضلا عن معالجته للأسنان وفقا للإمكانيات المتاحة كان يساعد في أعمال الحلاقة والخياطة، فلا تكاد تراه جالسا بلا عمل من الصباح إلى المساء، كان (عبد الله) الطبيب مصرا على أن يكون (حافظ أسد) هو من نفق، ولا يريد أن يسمع كلاما آخر. وعندما كنا نقول له: عليك أن تترك خطا للرجعة، فلا تضع كل توقعاتك وآمالك في سلة موت (حافظ أسد) كان يغادر الجلسة ولا يريد سماع مثل هذا الكلام. وفي الحقيقة كان ذلك الكلام موجودا على ألسنتنا فقط إلا أن قلوبنا كانت تعتقد وتتمنى أن يكون النافق هو (حافظ أسد) ليس غيره ...

وللطرافة، كما علمت فيما بعد، أنه في أحد المهاجع حين كان أفراده مشغولين بجلسة علمية، أو مذاكرة القرآن الكريم، أو حديثا

جانبيا أو عابرا، أو للتسلية.. كان رئيس المهجع يجلس بجانب الباب منفردا، وقد سمع الإعلان عن شخصية الميت، وحين ارتفع صوت قراءة القرآن اعتقد الجميع كما اعتقدنا، وبدأوا يتهامسون بفرح معلنين موت (حافظ أسد)..

اقترب منهم رئيس المهجع، وقال لهم: ليس الأمر كما تتوقعون. هب مجموعة منهم قائلين باستنكار:

_ ماذا تقصد؟

_ لن تصدقوني يا شباب.

_ قل يا أخي قل..

_ إنه باسل (ابن حافظ أسد). فأجابه بعض كبار السن من البسطاء الذين يعلقون آمالهم على موت (حافظ أسد):

_ يا لك من غبي، حقا إنك لا تفهم..

_ قلت لكم (لن تصدقوني) وأنا أعرف الحقيقة. عادوا وسألوه مرة أخرى:

_ وما الحقيقة ؟

_ إنكم لن تصدقوني..

_ قل ما عندك..

إنه كما قلت لكم ابن حافظ أسد واسمه (باسل)._

– يا لك من أحمق..

- قلت لكم: لن تصدقوني، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

صرنا نترقب ما سيحدث ..

ها قد مر أسبوعان ولم يفرج عن أحد، وجو السجن العام لم يتغير، لا نزال نتلقى الضرب من الأبالسة الصغار، ولا زالت الشتائم تنصب علينا من كل صوب، فالمقياس لخروج أي دفعة إخلاء سبيل هو نسبة الضرب ونوعية الشتائم، فعندما كان يهيأ الجو لدفعة إخلاء سبيل كانت تخف حدة الضرب والتعذيب بشكل عام، كما تتغير طبيعة الشتائم، فبدلا من أن يشتمون أمهاتنا وأخواتنا كانوا يطلقون علينا أسماء وصفات الحيوانات، وكنا نعتبرها حسن معاملة ودغدغة من قبلهم ..

كان المساعد (نعمة) شيطانا.. اعتمد على المخبرين في معرفة ما يجري داخل المهاجع وفهم نفسية السجناء، وطريقة تفكيرهم، وكيف يحللون الأخبار، ومنظارهم للأحداث التي تعصف بالسجن، أو تمر به مرورا عاديا..

فبعد مرور عشرين يوما من قراءة القرآن بدأت قراءة عدة لوائح من أسماء المعتقلين.. كانت عملية فرز -كما تبين لنا فيما بعد - للأحكام المؤقتة التي تمتد من ١٥ – ٢٠ عاما.. لقد أراد الشيطان (نعمة) أن يشغل أذهان المعتقلين بعد قراءة القرآن بهذه الإجراءات الشكلية.

بعد ثلاثة شهور جاءت زيارة لأحد الشباب في مهجعنا، وبعد أن عاد، كنا في لهفة شديدة لنسمع منه حقيقة ما وراء قراءة القرآن.. دخل علينا والابتسامة تعلو وجهه وكان أقرب للضحك منه للابتسام. بعد أن هنأناه بالزيارة، وقف يقص علينا خبر زيارته، كان يتكلم ويكاد يضحك، ونحن ننصت إليه وكأن على رؤوسنا الطير، ولم تكن في هذه المرة تهمنا أخبار الزيارة، كنا نترقب خبرا آخرا..

كان شابا ذكيا، لا شك .، فقد تعمد ألا يقص علينا الخبر الذي ننتظره إلا في النهاية، ذلك أن الناس عندما سيسمعون ما يشغل أذهانهم سينصرفون عن سماع ما يتعلق بالزيارة، فقال بعد أن أنهى حديثه المتعلق بالزيارة:

طبعا، يا شباب، أنتم تنتظرون خبرا آخر، خبر قراءة القرآن، إن الخبر ليس كما كنا نتوقع ونأمل.. إن الميت هو (باسل) . وروى لنا كيف حصل على الخبر، ذلك أنه عندما ذهب إلى الزيارة وجلس في باحة الإدارة بانتظار دوره لرؤية أهله كان يجلس بجانبه أكثر من شاب ينتظر الدخول على أهله أيضا.. فسأل صاحبنا من كان يجلس إلى جواره:

- من انت؟
- فلان
- من أي مهجع؟

– اثنان وعشرون.

– ما قصة قراءة القرآن؟

– لقد مات باسل بن حافظ أسد..

وما إن سمعنا الخبر حتى قمنا وكأنما صب على أجسادنا برميل ماء بارد في يوم شات.. كل التحليلات والآمال تلاشت كفقاعة على سطح نهر جار..

مرت أيام.. وعدنا لحياتنا الطبيعية نفسيا وحركيا، وبدأنا نعيد ترتيب أوراقنا السياسية ونعيد تحليل الواقع.. سبحان رب العباد، ما هذا الإنسان؟! وأية قدرة أعطاها الخالق العظيم لهذا المخلوق الضئيل؟، وأي طاقات توجد في كيانه ؟! وكيف تتغير أحواله ؟ وكيف يتكيف مع العوالم المحيطة، ومع كل بيئة أو واقع يصير إليه ؟! ثم ، سبحان الله، قاهر الطغاة والجبابرة، ها هو الإله العظيم، سبحانه، يسقي (حافظ أسد) من نفس الكأس التي سقى منها ، (حافظ) ، عشرات الآلاف من الآباء والأمهات. ربما كان يظن الطاغية المجرم أن أبناءه في حصن حصين لا تطالهم يد القدر..

نعم، هكذا يظن الطغاة المجرمون أنهم في منأى عما يصيب الناس، كأنهم هم من يصنع الأقدار ..

يا لها من مهزلة: أن يتحكم برقاب العباد هؤلاء الأوباش الأغبياء!! وسبحان الحكيم الخبير لو كنا ندرك الحكمة من وراء

الحدث لما رفعنا جباهنا من السجود لعظمة الله الحكيم الخبير.. ففضلا عن الانتقام من الطاغية المجرم بنزع فلذة كبده الذي كان يعده لمشروعه الشرير، ووراثة عرش الطغيان والإجرام، ها هي طعنة توجه إليه في الصميم، وتقول له: لا.. أيها الصعلوك التافه،

لا.. أيها النتن القذر،

لا.. أيها الغبي الأعمى الجاهل..

هذا حدك، والأمور لا تجري كما تريد وتتوهم وتهوى..

لقد كان ماثلا أمامك آلاف العبر فيمن سبقك من الفراعنة، ولكن أعماك الحقد والحمق والغباء فلم تستفد شيئا.. توقف قليلا، وتأمل، وتفكر، وتخلَّ عن حقدك وحمقك وغرورك في الربع الساعة الأخير من حياتك القاتمة.. قبل الرحيل الأخير حيث لا عودة، وانظر خلفك قليلا ثم انظر أمامك، أتراك تتعظ؟!!

لم يحدث التاريخ أن طاغية قرأ التاريخ الإنساني والسنن الكونية بشكل صحيح، ذلك أن حب الجاه وحب الدنيا والأنانية أعمت بصائر هؤلاء الطغاة..

ولكن عفوا، علينا ألا نحمل هؤلاء الطغاة المجرمين أكثر مما يطيقون، فهم في الحقيقة من أجهل خلق الله، إنهم خنازير في ثياب بشر لا يعرفون القراءة ولا يجيدون الكتابة.. لا يعرفون قراءة الحياة ولا يجيدون كتابتها بشكل مشرف ...

لقد كان الخير كل الخير في موت (باسل) سليل بيت العمالة والخيانة والإجرام، ذلك أن وراثته لعرش أبيه تعني تجدد شباب الطاغية المجرم (حافظ)، وهذه كارثة كبرى بحق البلاد والعباد ، ولا يمتد أثرها إلى سجناء تدمر وإنما يعم دخانها سورية بأسرها، كما تعني المزيد من الصفحات السوداء في التاريخ الإنساني.. مات باسل وأياما أو أعواما قليلة سيلحق به أبوه إلى مزبلة التاريخ بلا أسف ...

عاد الهدوء والطمأنينة إلى نفوسنا بعد هذه القراءة لما وراء الحدث، ومضينا في حياتنا الحزينة نرتدي عباءة الصبر إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا ....

* * 45 * *

بعد موت باسل بحوالي شهرين، ودون مقدمات، ارتفعت وتيرة التعذيب والارهاب في كل باحات السجن، وملأ الصياح سماء الباحات، ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟!

ولأول مرة منذ قدومي إلى سجن تدمر يخرجوننا إلى ما يسمى بالتنفس مرتين: تنفس صباحي وتنفس مسائي، كانوا يخرجون الناس من المهاجع بسرعة ولمدة تتراوح بين العشر دقائق وربع ساعة، يسحب خلالها الجلادون عدداً من السجناء ويبطحونهم أرضاً ، وعشرات السياط على الأقدام..

عادة كانت تختلف الذرائع من أجل التعذيب، بالإفصاح عنها تارة ودون الإفصاح عنها مرات، إذ يتركون الأمر للسجناء لكي يحللوا ويبحثوا عن الأسباب التي تكمن وراء حفلات التعذيب لإلهائهم وإشغالهم وتعذيبهم، على أية حال الذرائع موجودة دائماً، فقد تكون الذريعة الخلاف مع ميشيل عون أو موت الخميني أو فشل المفاوضات مع الصهاينة، أو غرق زورق يحمل أطفالاً نصيريين أو موت كلب مدير السجن أو.. أو..

وقد تكون الذريعة من داخل السجن، وما ينقله المخبرون إلى إدارة السجن عن لون من ألوان النشاطات أو قيام عبادة من العبادات، فكل شيء محظور في السجن، فالسجين محروم من كل الحقوق على الإطلاق، حتى الطعام والماء عندما ينالهم السجين يدفع ثمنهم دماً وأعصاباً من خلال صحن الخوف وملعقة الإرهاب وسيل الشتائم..

* * 46 * *

أمضيت أعواماً بسجن حويفظٍ	أكوى بنار القهر والإرهاب
وحرمت حتى من قراءة أحرف	كتبت بأيدي جاحد مرتاب
حتى أتتني ذي الغداة جريدة	أفكارها كضمير كل مرابي
فالناعقون تضخمت أبواقهم	والمدح والتصفيق دون حساب
للراكبين شعوبهم ببلادة	من كل أفعى أو ربيب ذئاب

(كاتب المذكرات)

صباح يوم صيفي ١٩٩٤ ومع إدخال طعام الفطور كان يوجد كيس مملوء بالجرائد، قال الرقيب: أدخل هذا الكيس، وأخرجه غداً صباحاً..

بعد أن أغلق الباب تزاحم افراد المهجع حول رئيس المهجع الذي يمسك الكيس بيده. ما هذا؟ جرائد؟ آه ما هذه المفاجأة؟ ما هذا التطور؟!

كذا كان لسان حالنا يقول، وبدأنا ننتظر أن يوزع رئيس المهجع الجرائد بفارغ الصبر.

بعد أن وزع الجرائد كان تاريخها يشير إلى عام (١٩٨٩)

ولكن بغض النظر عن محتواها وأقلامها المأجورة والمسمومة. فقد كانت فرحتنا لا توصف. إنه ورق وحروف، وأنا من عشاق الحرف والكلمة، لست وحدي كذلك، فأمثالي كثر.

حتى من لم يكونوا أصدقاء الكتاب والقراءة، تهافتوا لقراءة سطور الجرائد المهترئة.

نستطيع أن نفهم ما جرى في الخارج من خلال القراءة بين السطور وقراءة ما وراء الأخبار إلى حد ما..

كنا نجلس إلى الطعام والجرائد بجانبنا، تمضغ أفواهنا الطعام، وتلتهم عيوننا الكلمات، لقد كانت شراهتنا للقراءة تفوق شراهة الجياع في أرجاء الدنيا في مضافة (حافظ أسد)، ذلك المجرم الذي كان يمن على أبناء شعبنا ببناء المدارس والجامعات، وكأنه يبنيها من إرث أبيه.

لقد كان (حافظ أسد) من ألد أعداء الكلمة، ومن ألد أعداء العلم والعلماء، واتبع سياسة التجهيل، وهبط بمستوى العلم إلى أسفل الدرجات

الاجتماعية والمادية. لقد أصبح المعلم في زمن حافظ أسد مواطنا مسحوقاً، هذا بالنسبة للمعلم المؤهل ما قبل حقبة الطاغية الجهول، أما المعلم الذي درس وتخرج في عهده فهو يحتاج إلى دورات لمحو أميته المهنية والعلمية والفكرية والثقافية والتربوية، والبعض يحتاج إلى تعلم الأبجدية كتلاميذهم ...

استمر إدخال الجرائد بالأكياس. كان كل كيس يضم أعداد شهر تقريبا على توالي سنوات ٩٠- ٩١ -٩٢-٩٣ ولمدة عشرين يوماً، ثم بدأوا بإدخال أعداد ٩٤ ، بعدها أصبح التوزيع عددا إثر عدد.

رافق توزيع الجرائد حفلات تعذيب أثناء التنافسات تفاوتت شدتها بين يوم وآخر، كما زاد عدد الزيارات في المهاجع، خاصة لأبناء مدينة دمشق وحماه..

كان المخبرون في المهاجع يرقبون اهتمام السجناء بالجرائد وفرحهم بها، فأكل الحقد والحسد قلوبهم، فانتهزوا اهتمام السجناء بالأخبار التي تخص الشأن الاسلامي، فكان ذلك مادة دسمة تصلح لإيصالها إلى إدارة السجن، فتم إيقاف الجرائد لبعض الوقت، ثم عادوا لإدخال الورقة الخالية من الأخبار السياسية فقط..

لقد كان توزيع الجرائد يعني الإعداد لمرحلة ما، لقد كانت عناوين المقالات كلها تصب فيما يسمى "بالسلام" من قبيل: متطلبات السلام –

السلام خيار استراتيجي – مستحقات السلام – مبادئ السلام – الأرض مقابل السلام – معادلة السلام.. وهكذا..

وفي قراءة أولية لهذه العناوين والمقالات تهيئة للرأي العام لقبول الصلح، والتصالح موجود أصلا في نفوس وسياسة من يتحكمون بزمام السلطة، لأنهم لم يكونوا أعداء في يوم من الأيام للكيان الصهيوني، بل إنهم خدم وحراس، إنهم لم يعادوا إلا الشعب الذي يحكمون باسمه، ولم يخوضوا حرباً حقيقية إلا مع الشعب، وبكل الوسائل التدميرية المادية والمعنوية..

*** * 47 * ***

على سبيل الدعابة قال من ينظر من ثقب الباب لرفاقه: من يحزر ما فاكهة اليوم علماً أن أول حرف يبدأ به هو (النون)؟، وعبثاً حاولوا معرفة ما على الباب، وحين أعياهم الجواب، قال: نصف بطيخة.

أمام مهجع آخر قال الشرطي للرقيب أول، ماذا سيفعلون بهذه البطيخة؟

أجاب الرقيب أول ساخراً: يخللوها.

نعم يا حضرة الرقيب أول، سيأكلون قلبها ويخللون قشرها أو يأكلونه. ليس قشر البطيخ فقط، وإنما قشور كل الخضار والفواكه حتى قشر البيض نسحقه. ولكن هذا شاهد على جرائمكم، وبرهاناً على أنكم

لستم أهلاً لحكم البلد.. لقد أتيح لكم أن تحكموا هذا البلد مرة فملأتموه ظلما وجورا وفسادا وخرابا وتدميرا.. إن أحدا منكم ممن تقلد مسؤولية صغيرة أو كبيرة لم يكن أهلا لتلك المسؤولية، ولم يسطر صفحة بيضاء في تاريخ هذا البلد، ولم يبن لبنة واحدة في هذا الوطن، ولم يُشعر أبناء هذا الوطن يوما أنه ينتمي إليه، لا إلى الوطن ولا إلى الشعب، وإنما كان لصا مجرما مارس التخريب والتدمير في جسم هذا الوطن بأبشع الأشكال.

تدخل البطيخة إلى المهجع مع طعام العشاء، ومع توزيع الطعام توزع البطيخة على المجموعات، وفي كل مجموعة يوزع الطعام بالتساوي كما توزع حصتهم من البطيخة، بعضهم يأكل حصتهم ويضع قشرها أمامه، وبعضهم يأكلها مع قشرها، وبعضهم يهدي حصته إلى آخر..

يطوف طبيب الأسنان (عبد الله) على المجموعات قائلاً: من عنده قشور لهذا الخروف، والبسمة تغرق وجهه الأشقر، من عنده قشور لهذا الخروف؟ تؤكل البطيخة مع قشرها وبذرها.. بعد أن يفرغ الناس من طعامهم وترفع الصحون وتغسل، ويكنس المهجع، ويجلس أفراد المهجع إلى بعضهم يتدارسون ويتحدثون. يقول عبد الله (طبيب الأسنان): يا جماعة كنت في بلدنا المشهور بالبطيخ لا آكل سوى لب البطيخة. الآن أبحث عن القشور. ما هذا؟! لعنة الله عليك يا حافظ.. يجيبه آخر: خذ راحتك يا عبد الله، واشتم (حافظ أسد) كما تريد في هذا السجن، لأنه لن يتاح لك أن تشتمه عندما تخرج من السجن.

يقول آخر: وهل سنخرج.. من السجن؟؟

يجيب آخر: الله كريم يا أخي..

مع الإيمان بالله، سبحانه، الذي بيده مقاليد كل شيء، ومصرف الأمور ومقدر الأقدار. كانت سحب اليأس تحلق في سمائنا. إنها طبيعة السجن الرهيب. لقد سدوا كل منافذ الأمل في وجوهنا. ترى هل سيأتي يوم نكون فيه خارج الأسوار.؟ يا إلهي!! كم سور يحيط بنا وكم باب موصد أمامنا!! وغالبنا محكوم بالمؤبد..

في زاوية أخرى كان يقول أحدهم: لقد انطبقت علينا قصة الفلاح الذي شرد حماره. خرج ذلك الفلاح يبحث عن حماره في نهار صيفي قائظ، ويحمل معه بطيخة، وحين أصابه الجهد والعطش جلس تحت شجرة وكسر البطيخة، أكل لبها وترك القشور والبذور، ثم قال لنفسه: إذا مر شخص تحت هذه الشجرة فسيقول: مرَّ أمير من هنا وأكل بطيخة، ثم تابع سيره، وبعد ساعة عاد إلى الشجرة وأكل ما تبقى من البطيخة ولم يترك إلا قشرها. فقال: إذا مرَّ شخص من هنا، فسيقول: كان يجلس فلاح هنا وقد أكل بطيخة. ثم تابع.. وعند المساء عاد فأكل قشر البطيخة، وبعد أن انتهى قال: إذا مرَّ شخص من هنا، فسيقول: مرَّ حمار من هنا وأكل بطيخة..

لا يزال الشباب يذكرون أيام المجاعة، وكيف كانوا يدخلون الطعام ولا يخرج أية آثار مما يسمى "زبالة". نعم لم تعد تخرج زبالة

لقد كانوا يأكلون كل ما يدخل إليهم. أما بعضهم، فقد كتب على قميصه "ملك القشور" وغيرها من العبارات التي تدل على أنه يلتهم كل شيء..

وقد شهدت أحد الأخوة يقول لآخر حين كان يأكل عظم دجاجة: إنك لا تعرف أكل العظام. إنك تبقي منها الكثير. أعطني عظمة لأعلمك كيف تأكلها، ثم انظر كم أبقي منها. فبدأ يأكلها، فأكلها جميعها ولم يبق منها شيء. ضحك من أعماقه، وقال: لم يخرج منها شيء. لقد كان يظن هو نفسه أنه سيبقى منها شيء قليل...!!

* * 48 * *

ازداد عدد الزيارات، وكان وراء كل زيارة قصة، لقد أثرت الزيارات في نفوس الناس، ومع حالة من الانتعاش التي تطرأ على المهجع مع كل زيارة.. حيث يأتي اللباس الجديد وبعض من المأكولات وكمية من النقود لشراء الدواء، إلى جانب هذا الانتعاش كانت الزيارات تثير شجوناً وأحزاناً.. كان البعض يستغرقه جو الزيارة أكثر من أسبوع ثم يعود إلى حياته الطبيعية، ولكن كان هناك حالات خرجت عن إطارها الطبيعي، فعندما جاءت زيارة لأحد الشباب أخذته حالة شديدة من الأحزان، لقد استمر في عزلته عدة أسابيع يضع رأسه بين ركبتيه ويديه تحت رأسه ويبكي، وبالرغم من أن المقربين منه حاولوا التخفيف عنه، لكنهم لم يفلحوا في ذلك..

وكان أحد الإخوة قد أصابته حالة من انفصام الشخصية بسبب ضغط السجن، ولكن حالة الفصام كانت تعتريه في أوقات قليلة، وعندما يعطيه الطبيب بعض الحبوب يعود لحالته الطبيعية، وعندما جاءته زيارة أخبر أن أمه قد ماتت، وعند عودته إلى المهجع جاءته حالة انفصام، واستمرت سنوات إلى أن خرج من السجن وهو في هذه الحالة..

في مهاجع أخرى -كما حدثني الإخوة الذين التقيتهم - أن أحد الأخوة حين دخل على أهله في غرفة الزيارة، صرخ أهله: إنه ليس ابننا. تأتون بشخص وتقولون: (هذا ابنكم).

أخرجه المساعد من الغرفة وسأله:

- ما اسمك؟

- قال: فلان بن فلان.

- هل هؤلاء أهلك؟

- نعم. إنهم أهلي..

- طيب عندما سأدخلك إليهم من جديد اذكر لهم أشياء لا يعرفها غيرك..

دخل السجين إلى أهله من جديد، وبدأ يذكر لأهله أموراً في البيت وتفاصيل عن المنزل الذي عاش فيه.. هنا انخرط الجميع في البكاء، وهبوا لعناقه.. انتشرت أخبار الزيارات في معظم مهاجع السجن من خلال (المورس) أو عندما يجلس المزارون إلى جانب بعضهم في باحة

الإدارة حيث يتهامسون لنقل الأخبار عندما يشعرون أن الشرطة بعيدة عنهم ولا تستطيع سماع همساتهم..

فقد حكى لي أحد الإخوة أنه عندما دخل على أهله لم يعرف أحداً منهم ولم يعرفه أحد، وكان قد سمع بأخبار بعض السجناء الذين لم يعرفهم أهلهم. فبدأ يذكر أسماءهم واحداً بعد آخر مخمناً عن شخصياتهم.. لقد كانت كل زيارة تحمل في طياتها مأساة حقيقية، فبالرغم من فرح الأهل بلقاء ابنهم، وفرح الابن بلقاء أهله، إلا أن شلالاً من الأحزان كان يسود جو الزيارة، فلقد امتدت الفرقة سنوات طوال، أقلها عشر سنوات. في حين قضى بعض الأخوة عشرين عاماً، وخرجوا من السجن دون أن تأتيهم زيارة واحدة.

هكذا تعامل حافظ أسد مع أبناء الشعب السوري.. هذه وطنية حافظ أسد وهذه قوميته وهذه إنسانيته وهذا حكمه.. شاب يقبع في سجن رهيب داخل أسوار وطنه، ولا يتمكن أهله من زيارته لمرة واحدة طوال عشرين عاما.. لماذا؟ لأنه قال لحافظ أسد: لا..

ومن المهازل المزرية أنه عندما دخلتنا الجرائد كان إعلام (حافظ أسد) يهاجم بشراسة سياسة العدو الصهيوني تجاه الأسرى الفلسطينيين، حيث يستنكر إعلام حافظ أسد على الصهاينة عدم سماحهم لأهالي الأسرى زيارة أبنائهم إلا مرة واحدة كل أسبوعين. كما

ينتقدون الصهاينة لعدم توفير سرير لكل أسير فلسطيني في حين قضينا كل فترة اعتقالنا في سجن تدمر ننام على الأرض دون فراش.

كما سمح الصهاينة للأسرى الفلسطينيين باستخدام أجهزة الاتصال مع ذويهم وقراءة الصحف ومتابعة الدراسة ومشاهدة التلفزيون. في حين أننا حرمنا من كل ذلك حتى عن رؤية بعضنا داخل السجن وتخاطبنا مع بعضنا ولو بلغة المورس عبر جدران المهاجع، والتي دفعنا ثمنها غاليا..

* * 49 * *

في سجن تدمر معظم أشكال العمل تطوعية، فتنظيم الدور، وتنظيم الحراسة الليلية، والخياطة، وسحب الأكياس، وصنع كافة أنواع الحصر وأبواب الحمامات والشراقات والمحافظ و .. و..و.. كلها تطوعية.. ومعظم الأخوة الذين تطوعوا للقيام بهذه الأعمال يتحلون بالصبر وقدر لا بأس به من الحلم والأناة، وغالبيتهم من ذوي الأخلاق العالية والسلوك الحسن..

حين كرس هؤلاء الأخوة أنفسهم لخدمة الناس كانوا لا ينتظرون شكر أحد من الناس، وإنما نذروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله – عز وجل..

بالمناسبة، ومن خلال الخبرة والتجربة فإن كل من يريد أن يقوم بخدمة الصالح العام وينتظر الثناء من الناس فهو خاسر في كل

الأحوال، لأنه (وقليل من عبادي الشكور) أما من يعمل ابتغاء مرضاة الله – سبحانه – فهو الرابح دائما.

إن الحياة كلها ابتلاءات.. من هذه الابتلاءات ما هو إيجابي، ومنها ما هو سلبي، أعني بالإيجابي العطاء من الله – عز وجل –كالمال والأولاد والجمال والذكاء..

وأعني بالسلبي الأمراض والعاهات والسجن والفقر..

أما السجن فهو ابتلاء يضم ابتلاءات، وسجن تدمر نوع من الابتلاء العظيم، وأشد ابتلاءاته هي رئاسة المهجع، فرئيس المهجع معرض في كل وقت لأن يكون تحت سياط الجلادين وعرضة للإهانة والإذلال، كما هو على لسان الشرطة والرقباء في كل وقت وهدفا للسباب والشتائم..

في بداية عام (٩٥) عينت رئيسا لمهجع (٢٣)، ففي عامي ٩٤ – ٩٥ ، بدأت إدارة السجن تعين رؤساء المهاجع تعيينا.. اختارت أول ما اختارت شخصا من المزارين ليكون رئيسا للمهجع، ثم اختارت شخصا لا على التعيين، وكنت من هؤلاء الذين اختيروا لا على التعيين لمدة تزيد عن عشرة أشهر..

نشأت على المسؤولية منذ نعومة أظفاري وترعرعت عليها، إذ تربيت في ظلال أسرة فقيرة، فكنت أشارك أمي في الأعمال المنزلية وبدأت أشارك أهلي في الأعمال المعيشية بعد عودتي من المدرسة.. وهكذا..

عرفت في السجن بهدوئي في حركتي وصوتي وكانت علاقتي مع جميع من في المهجع على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم متوازنة وجيدة، وخصومتي صفرية، كنت أتوقع عندما ابتليت برئاسة المهجع أن ألقى تعاونا كبيرا منهم، ولكن للأسف.. فبالرغم من طلبي الوحيد منهم وهو ألا يكونوا سببا في إيذائي أو إيذاء أي واحد في المهجع، إلا أن الكثيرين منهم كان عديم الإحساس بالمسؤولية فأصبحت أنظر إليهم بمنظار قاتم في بعض الأحيان.

كنت امرأ حرا في معتقدي وفكري، ومنفتحا على كل النوافذ، لأني أعرف أن أحدا لن يستطيع أن يقتلع جذوري.. وبالتالي أحب دائما أن أعطي الحرية للآخرين حتى أعرفهم على حقيقتهم، سواء في طريقة تفكيرهم أو معتقدهم أو تربيتهم، لأنني أدرك أنه لا يمكن الولوج لعالم أي إنسان إلا إذا أعطيته الحرية الكاملة.. وهذا ما كشف لي طبيعة وحقيقة الأشخاص الذين أتعايش معهم.. لقد كان هناك أناس، وهم قلة، غاية في النبل والرفعة، لم يتغير سلوكهم في يوم من الأيام عطاء وحركة ومسلكا : لكن وجد آخرون يسيئون استخدام الحرية ويفهمونها تفلتا من الضوابط والأنظمة المقررة في المهجع..

إنني لأعجب أن يختلف الناس، وعلى ماذا على أشياء غاية في التفاهة.. إن سبب اختلافهم يرجع إلى الأنانية وإيثار المصلحة الشخصية، والحسد..

وربما يتساءل المرء على ماذا يحسد الناس بعضهم في هذا المعتقل الرهيب، والجواب هو أن من يملك قلبا حسودا لا يعدم أن يجد متنفسا لهذا المرض، فأن تكون محبوبا من قبل إخوانك، أو تنجح في إدارة أي عمل يستوجب الشكر من قبل الحسود وجميع من في المهجع، أو.. أو.. تجعل الحسد يأكل قلب الحسود

لقد برزت في نهاية السجن الكثير من الأمراض النفسية، أبرزها الثرثرة، والتعلق، والحسد، والأنانية.. هذه الأمراض ظهرت عند ضعاف النفوس وضعاف الإيمان.. لقد بدأ السجن يأخذ منهم، لأنهم بدأوا يتعاطون بسلبية مع المحنة.. في حين كان آخرون يحلقون في سماء الرفعة، فهنيئا لهم.

لقد أعطي الإنسان، هذا المخلوق الضئيل، طاقات هائلة، وكانت رعاية الله –سبحانه –ملحوظة.

إن أحدا لا يصدق أن يبقى إنسان على قيد الحياة في الظروف التي عاشها السجين التدمري أمنا وغذاء.. كنت أقول بأني لن أحكي لأحد عن سجن تدمر، لأن أحدا لن يصدق.. لقد نلت من الركلات على بطني ما لا يصدق.. لقد كان الشرطي يركض من بعد أمتار ويشوطني على بطني بكل ما أوتي من قوة عندما كنت أُدخِل زملائي إلى المهجع بعد التفقد، كانت صرختي تشق الفضاء إثر كل شوطة، ولكن في الواقع كانت تمر على بطني بردا وسلاما. كنا نتبع أثناء تلقينا الرفسات

والركلات والكلمات والسياط سياسة التهويل، لأن هؤلاء المجرمين لا يروقهم أن تظهر لهم أنك تتحمل أذاهم، بل يريدون أن يروا بطولاتهم على السجناء العزل ! !ويا لها من بطولة! ! ! لو ترجمتها لكان معناها النذالة واللؤم والخسة والجبن ليس إلا..

أما عندما كنا ندخل إلى المهجع ويتقدم الإخوة لمواساة بعضهم بعبارات تتكرر على الدوام: "الحمد لله على السلامة" "أجر وعافية " "في ميزان أعمالك "

فيرد السجين بمنطق النسر: " بالريش "

أي أن الضربات أصابت ريشه فقط ولم تنل جسمه.. إنها سياسة (التهوين) داخل المهجع..

فسياسة السجين حيال ما يلقاه من أذى كانت "التهويل " بين يدي الجلادين و "التهوين " داخل المهجع..

* * 50 * *

في ربيع هذا العام ١٩٩٥ اجتاحت السجن موجة كريب لم أشهد مثلها في حياتي، لقد كانت شدة الحمى تطرح الأشخاص أرضا، لقد طبخت أجساد الناس حتى كادوا لا يستطيعون حراكا، واحمرت عيونهم من شدتها، ولا دواء ....

كان بعض الأخوة يقولون فيما سبق: إن عناية خاصة من الله – عز وجل – تحيط برئيس المهجع، ومع استمرار هذه الموجة لمدة ثلاثة اسابيع تقريبا كان يتساقط فيها الرجال واحد إثر آخر، إلا أن الله – عز وجل – نجاني منها

، فكنت الوحيد من الناجين بلطف الله – سبحانه – وعنايته، كنت فقط في الليل أشعر بارتفاع قليل في درجة حرارة جسمي، وأجلس في الصباح في أحسن حال ولله الحمد..

تشابهت حياة الناس في المهاجع إلى حد التطابق تقريبا في طعامهم وشرابهم وخواطرهم ونظام مهاجعهم حتى الأمراض خاصة الفيروسي منها كانت تعم كل المهاجع ....

إثر هذه الموجة من المرض عرضت دفعة من السجناء على لجنة قادمة من أوكار الاجرام (المخابرات)، وأطلق سراحها، ولم نشعر بها، ولكن علمنا فيما بعد بخروجها لقد كانت الباحة الرابعة اشبه بالقبر، لأننا لا ندري بما يحصل في السجن من أحداث ...

* * 51 * *

ازداد عدد الزيارات و تحسنت أحوال الناس من ناحية اللباس و من ناحية الأغطية حيث عمد المساجين إلى تفتيت الألبسة البالية و تحويلها إلى لحاف أو إلى فراش متواضع ينامون عليه كما اشتروا

ببعض النقود قليلا من زيت الزيتون و الزعتر و الطحينة لتحسين الأكل الذي يدخل إلينا .كان المهجع في أثناء ذلك كخلية نحل ، معظم الناس يشاركون في صنع اللحف ، و تفتيت الألبسة البالية ، و تصليح الألبسة لكي تناسب صاحبها ، تغير منظر الناس ، و أخذ شكلهم قالبا جديدا ، فبعد أن كانوا يتشابهون بالمظهر الخارجي بالألبسة المرقعة التي تشابهت إلى حد بعيد ، ها هو كل واحد منهم تقريبا يتميز عن الآخر بلباسه الجديد ، و قد انعكس هذا الأمر على نفوس الأشخاص .. لا شك أن المظهر الخارجي للإنسان له انعكاس على داخله سلبا أو إيجابا، وبنسب متفاوتة تخضع لتربية الانسان وقيمه وأفكاره.. صحيح أن عدد المزارين لا يزال قليلا نسبيا إلا أن كمية الألبسة التي دخلت المهجع من قبلهم كادت تغطي حاجة معظم أفراد المهجع، وبدأ البعض يطلق عبارات طريفة على ضوء الواقع الجديد (لا برد بعد اليوم) (البس جديدا وعش سعيدا) وغيرها.. في حين تنبأ البعض بأن هذه اللحف لن تستخدم، فمتى ما تمت الأمور على نحو ما، فتحت أبواب السجن.. وصدقت هذه النبوءة.

* * 52 * *

رؤيا تبشر في المنام

هذا شبابك يا امام

كانت الرؤى النافذة الوحيدة لمعرفة ما يدور بالسجن وما وراء الاسوار - في بعض الأحيان - فأيام الاعدامات كانت تأتي بالبشريات للشباب الشهداء عبر الرؤى، في حين كان يرى الآخرون أسرابا من الحمام تذبح، كذلك عمليات اخلاء السبيل كان يبشر بها من سيخرج في منامه، أو يراها آخرون، وكان يعرف المساجين ما يحدث من خلال هذه الرؤى إذا كانت قراءة المفسر للرؤيا صحيحة، وأحيانا تكون الرؤيا واضحة بحيث لا تحتاج إلى تفسير، ومن ذلك:

عرف المعتقلون بان الحلاقة ستصبح داخل المهاجع ...

ورأى أحدهم جريدة على أرض المهجع فتناولها فإذا تحتها أخرى، وكلما كان يرفع جريدة يجد أخرى تحتها.. ففسرت الرؤيا أن الجرائد ستدخل المهجع تباعا وبشكل يومي تقريبا، وكان ذلك ......

كما كان المزارون يرون أهليهم قبل قراءة الأسماء، أو كان غيرهم يراهم يجهزون للزيارة فيخبرونهم منذ الصباح بما رأوا، وغالبا ما كانت هذه الرؤى تصبح حقيقة

،، ومن طرائف الرؤى أنه كان يوجد في أحد المهاجع شخص شرير مخبر أطلق عليه المعتقلون لقب (أبي مرة)، - وهو من أسماء الشيطان - وفي أحد الأيام رأى أحد الشباب رؤيا فجاء إلى أحد المفسرين - وكان بارعا في التفسير

- قال الشاب للمفسر: اسمع هذه الرؤيا..

- أجابه المفسر: خيرا إن شاء الله..

- قال الشاب: رأيت كلبا يطارد ذبابة..

- قال المعبر بعد تأمل قصير: إن أبا مرة سيفتعل مشكلة من أجل شيء تافه..

بعد ساعة، عندما دخل الفطور - وكان بيضا مسلوقا _ ووزع البيض، وكان في هذه الفترة قد تحسن قليلا فقد صار لكل واحد بيضة، وكان من نصيب أبي مرة بيضة مكسورة، فرفض أن يأخذها، وطالب ببيضة سليمة، ومن أجلها افتعل مشكلة مع الموزع.

وقبل موت المقبور (باسل) رأى أحدهم عبدا أسودا تقدم من (حافظ أسد) وانتزع خصيتيه، فصرخ (حافظ أسد) صرخة عظيمة ورعيبه.. بعد هذه الرؤيا بأيام أعلن نبأ موت (باسل) وكان تفسير هذه الرؤيا هو أن (حافظ أسد) سيفقد أحد ذريته – النجسة – سيتألم لذلك ألما رهيبا.

كما حكى لي أحد الاخوة الذين التقيتهم فيما بعد أنه قبل موت حافظ أسد رآه مدفونا حتى خصره، وقد غادره أهله، وهو يصرخ بهم: لا تتركوني، إنهم يقتلونني.. كان يصرخ بأعلى صوته ويستغيث ولا مجيب.

وهكذا آلاف الرؤى تلك التي رآها المعذبون، كانت متنفسا وعزاء وبشرى لأولئك الناس الذين سدت عليهم كل المنافذ، ففتحت لهم نافذة الرؤى.. فسبحان اللطيف بعباده.

وأخيرا.. رأى أحد الشباب امرأة كشفت عن فرجها، وتفسير رؤية الفرج (فرج – بفتح الفاء والراء –) وكان الفرج يكبر ويكبر فسألها الشاب: ما هذا؟ قالت له: سيظل يكبر حتى يسع كل الناس ... وكان الفرج الذي سأرويه في الفصل التالي..

* * 53 * *

في منتصف تشرين الاول عام (١٩٩٥) وبدون مقدمات لوائح كثيرة من الأسماء تقرأ على أبواب المهاجع، ما الأمر؟ بدأت التكهنات والتحليلات.. ذهب الكثيرون إلى أنها دفعات اخلاء سبيل إذ في بداية اللوائح التي قرئت كان يطلب ممن تقرأ اسماؤهم تجهيز أنفسهم مع أغراضهم، ثم بدأوا يخرجون الناس بدون أغراض اخرجوا بسرعة وفقط.. لا شك أن إدارة السجن كانت في حالة ارتباك في البداية فمساعد السجن (نعمة) – ذلك الشيطان المجرم – أراد تضليل المساجين بحيث لا يعرف أحد منهم إلى أين هم ذاهبون، ولكن الأمر خرج عن سيطرته، إذ بعد يومين بدأنا نرى من خلال ثقب الباب بعضا ممن خرجوا من مهجعنا يعودون إلى نفس باحتنا، ويوضعون في مهاجع أخرى، وبدأ ضم أفراد المهاجع – الذين لم تقرأ أسماؤهم بعد.. – على بعضهم البعض، عندما قلت أعدادنا في المهاجع واحتاجوا إلى مهاجع فارغة، ثم تفوه بعض الرقباء بعبارة (هل عرضتم على اللجنة) .... اللجنة؟ أية

لجنة؟ وما هذه اللجنة؟ لأول مرة نسمع بهذه الكلمة، ومن خلال المورس على الحيطان جاءتنا عدة اجابات عما يحدث، فمنهم من قال اعادة محاكمة، ومنهم من قال لجنة أمنية لسبر السجناء ...و.. و، ، و. كما بلغت درجة تشاؤم البعض أن كل من يخرج يعدم ويدفن بعيدا في وادي (عويضة) التدمري ....

بعد يومين نقلونا إلى المهجع (٢٢) نمنا فيه يوما واحدا، وكانت قراءة الأسماء متواصلة، تمتد من العاشرة صباحا إلى الثامنة ليلا على دفعات متفرقة.. تعرفنا في المهجع (٢٢) على شباب طيبين. كما عرفناهم فيما بعد غاية في النبل والطيب.

في اليوم التالي صباحا وبعد خروج دفعة، نقلونا ظهرا إلى المهجع (٢٠)، حيث التقيت برفيق محنتي (الطبيب) الذي كان قد نقل من مهجعي صيف عام (٩٣) ليكون مسؤولا صحيا في المهجع (١٩) قضينا معظم وقتنا مع بعضنا نتبادل الأخبار والآلام والآمال إلى أن قرئت أسماؤنا..

مشينا في رتل طويل و عندما وصلنا إلى الباحة الأولى وقفنا ضمن صفوف و أنساق ، و أمرنا بالجلوس ، وبدأ الرقيب يتفقدنا من خلال لوحة الأسماء ، و خلال ذلك بدأنا نتهامس :

– من أي مهجع أنت؟

– هل عندكم أحد من محافظة (ادلب)؟

- نعم،

- من هو؟

- فلان وفلان ...و.. و.

- ولكن فلانا مات ....

- هكذا اشيع عنه عندما نقل إلى المستشفى، إنه حي يرزق..

بعد ساعة تقريبا عاد الرقيب ليقرأ الأسماء، ويعيد ترتيب الصفوف من جديد، ولكنه استثنى البعض منا. كنت من بين من استثني، قال بعد أن فرغ: كل من لم يقرأ اسمه يقف.. وقفنا، وأخرجونا من بين الصفوف، واقتادونا إلى الباحة السادسة (باحة الاعدام). لقد ظن الكثير منا أننا في طريقنا إلى تنفيذ أحكام الاعدام فينا، وعندما وصلنا إلى الباحة السادسة فتح الشرطي أحد أبواب المهاجع، وبعدما دخلنا فيه، ورفعنا الطماشات عن أعيننا، وجدنا أنفسنا في مهجع (الندوة) البعض منا توضأ، وصلى ركعتين استعدادا للإعدام.

بعد قليل بدأت حفلة التعارف، ومن خلال الأحاديث الجانبية تبين لي أن جميع من معي هم من أصحاب التهم الثقيلة، وقد أمضى البعض منهم خمسة عشر عاما في السجن، قرأت من خلال هذه الأحاديث أننا جميعا كنا في دائرة من يجب - حسب محاكم المجرم (سليمان الخطيب) - أن يعدموا، ولكن نظرا لتعديل القرار تسعة وأربعين القاضي بإعدام كل من ينتسب إلى جماعة (الاخوان المسلمين)

وقد نفذ هذا القرار طوال السنوات الخمس الأولى من الثمانينيات، أما الآن فأصبح الإعدام يطال فقط من استخدم السلاح لاغتيال شخص، أو ساعد على ذلك.. أدركت أننا لن نعدم، ولكن أيضا لن نعرض على اللجنة. ما هذه اللجنة؟ ولماذا لم نعرض عليها؟ سنعرف فيما بعد ....

لقد كان عددنا ثمان وخمسين معتقلا، بقينا في مهجع (الندوة) أربعة أيام تعارفنا فيها على بعضنا، ودارت أحاديث متنوعة بيننا، وتبادلنا بعض الأحاديث والأخبار، فهناك من ذهب إلى المستشفى، وقضى فترة النقاهة في سجن (صيدنايا)، ومن هناك أتى بأخبار جديدة، فسجن (صيدنايا) يعتبر كما يقال فندقا من خمس نجوم مقارنة مع سجن تدمر، حيث لا يوجد تعذيب وارهاب، ويدخل على المساجين الجرائد ويوجد مكتبة وراديو و.. و...

من جانب آخر لم يتعرض الشرطة والرقباء لنا بالضرب خلال هذه الأيام، فكانت أيام اللجنة من أفضل أيام السجن، لقد كانت متنفسا ورحلة فريدة ضمن سجن تدمر عرفنا من خلالها أين يوجد اخواننا الذين فارقناهم منذ سنوات، وفي أي مهاجع هم، كما عرفنا أخبار من سبقنا من أبناء بلدنا ممن اعتقل قبلنا فتبادلنا التحيات بالوساطة.

بعد أربعة أيام أعادونا إلى مهاجعنا، وكانت الأيام التي تلت عودتنا حافلة بالأحاديث، وعرفنا قصة اللجنة، فهذه اللجنة عبارة عن مجموعة من ضباط المخابرات جاؤوا من أجل ترشيح ما يقرب من

ألف واحد لإخلاء سبيلهم، فالبعض من المعتقلين فهم اللعبة، والبعض الآخر لم يتجاوب مع اللجنة.. كانت الاسئلة تركز على قضية اخضاع السجين لما يريدون حتى لا يرفع راسا عندما يخرج من السجن، فعليه أن يعترف بأنه مدان، ونال ما يستحق، وسيخرج من السجن بمنة من الرئيس المفدى.

هل أنت منظم؟ عليه أن يجيب بنعم – وإن لم يرتبط بالتنظيم حتى بخيط وهمي –.

هل قمت بكذا وكذا؟ عليه أن يعترف بكل ما ينسب إليه زورا وبهتانا.

هل تتعاون معنا؟

هل أنت نادم.

فمن فهم اللعبة أجاب بكل ما يرغبون سماعه، وكانت نتيجته ايجابية، وهي أنه مرشح للخروج من السجن. لكن البعض لم يكن يتحمل نفسيا أن يقول للجلادين بانه يقبل التعاون معهم، ولو من باب التقية، كما أن البعض أنكر كل ما نسب إليه ظنا منه أنه في معرض اعادة محاكمة، فكان أن قيل له: اخرج.. في العام القادم ستعترف.

ومن المفارقات الملفتة أن أناسا ممن لهم علامة بالتنظيم رشحوا للخروج، وبالفعل خرجوا من السجن. وبعض من لم ينتم إلى التنظيم – لا

من قريب ولا من بعيد- وهم من أبسط الناس، بقوا في السجن لأنهم كانوا صادقين فيما أجابوا به هذه اللجنة الوضيعة.

إذن. عرف الناس أن هذه اللجنة هي تمهيد لإخلاء سبيل عدد من المعتقلين.. بعد عودتنا إلى المهجع كان المساعد هو من اخذ التفقد، سأل المساعد: هل جميعكم عرضتم على اللجنة؟ رفعت يدي وأجبته بالنفي.. قال: اعتبر نفسك معروضا. عرفت أن كل من كان معي في مهجع الندوة. ممن استثني من الدخول إلى اللجنة. لن يخرج من السجن وهذا ما كان.

* * 54 * *

بدأ بعض المعتقلين يتصرف وكأنه قد خرج من سجن تدمر الارهابي، وخاصة بعض من وعد بإخلاء سبيله.

-يا اخواني لا زلنا في سجن تدمر، قلت لهم.

-سنخرج قريبا، قال أحدهم.

-لا بأس عندما تخرج تصرف كما يحلو لك.. هؤلاء لا أمان لهم.

-دعك من هذا الكلام. ولا تضيق علينا..

-لا يا أخي اضبط نفسك حتى تخرج من السجن نحن لا نزال في سجن تدمر.

لم يلتفت إلي الكثيرون كانت الأصوات مرتفعة، وكان الشرطي يتجول على الأسطحة، ويقترب من الشراقات، ولكنه لا يكلم أحدا.

يبدو أن الأوامر كانت كذلك.. ولا شك أنه كان ينقل صورة ما يجري في المهاجع.. في نفس اليوم وبعد التفقد ناداني الرقيب، ولطمني على وجهي بكل ما أوتي من قوة ثلاث مرات، دخلت إلى المهجع فاقدا توازني، جلس الناس بصمت، تقدم إلي البعض ليواسيني، قلت لهم:

-متى سنتعلم؟!! إن لم تكن هذه المحنة بكل ثقلها ليست كافية لأخذ الدروس والعبر، فماذا سنحتاج ومم سنستفيد؟؟ .. يا للسخرية...!! على ماذا ترفعون أصواتكم، لو كان الأمر يتعلق بمناقشة فكرة لكنت أول المشجعين لكم وشاركتم بالنقاش، ولكن رفع أصواتكم يدور حول صحن فول.. هذا يحبه بالحمض والآخر يفضله بالطحينة !!...

عندما كانت درجة انزعاجي تبلغ الذروة كنت أوبخ البعض منهم بهذه الطريقة. كانت عملية اخلاء السبيل من رشاوى النظام للشعب السوري تمهيدا للمصالحة مع الكيان الصهيوني ، و لم تطلق دفعة اخلاء السبيل إلا بعد أن قطعت الصفقة شوطا بعيدا .... ظل الناس يترقبون قراءة الأسماء قرابة شهر ، و بدأ اليأس يتسلل إلى نفوس الغالبية منهم ، و فجأة .. في صباح أحد الأيام ارتفعت أصوات الصياح، وانهالت السياط على ظهور المساجين الذين يدخلون طعام الفطور.. البعض اعتبرها نهاية للانتظار، فلا اخلاء سبيل ولا من يحزنون، والمتفائلون قالوا إنها أشبه بوداع (القرباط) ...

لقد تبين فيما بعد أنه في اليوم الذي سبق ضرب المساجين قد اغتيل رئيس وزراء الكيان الصهيوني (اسحاق رابين) الذي يبرم صفقة المصالحة، أو السلام، أو ما شئت أن تسميها مع (حافظ أسد) لأنه في حقيقة الأمر لم يكن الطرفان في حالة عداء في يوم من الايام.. لقد كان حافظ أسد أكبر حليف للكيان الصهيوني، لذلك رفع أكثر وأضخم شعارات معادية للصهاينة تغطية لعمالته وولائه لهم.. في حين كان يمسك معول الهدم والتخريب في جسم الوطن حتى لا يقوى يوما على الوقوف في وجه أعداء الوطن ...

بعد ثلاثة ايام من ضرب بعض الأخوة المعتقلين، وفي وقت مبكر قبل طلوع الشمس، بدأت لوائح الاسماء تقرأ على أبواب المهاجع. الحمد لله رب العالمين، بالرغم من أنني كنت أعرف سلفا أني لن أكون من بين المفرج عنهم، إلا أن حالة من الارتياح والفرح كست وجهي وتمددت في وديان نفسي واستلقت على هضابها، إنهم اخواني، وقد أمضوا فترة طويلة في هذا المعتقل الرهيب فهنيئا لهم.. تقدم مني البعض مودعا، وسألني إن كان هناك رسالة أبعثها إلى أهلي – طبعا (رسالة شفوية) – شكرت الاخوة، وطلبت منهم ألا ينسونا من الدعاء.

*   *   55   *   *

أخلي سبيل دفعة كبيرة من سجن تدمر يزيد عن النصف. لقد كانت هذه الدفعة أكبر دفعة اخلاء سبيل شهدها سجن تدمر.. قدر العدد فيما بعد بما يزيد عن ألف واحد.. بعد خروج المخلى سبيلهم من مهجعنا، بدأنا نعيد ترتيب المهجع، وبعد ترتيبه جلسنا في حالة غريبة لا توجد إلا في السجن، فمشاعرنا موزعة بين الفرح والحزن .... الفرح بخروج اخواننا إلى أهليهم، والحزن من بقائنا في هذا السجن الرهيب.

جلس أحد الاخوة يبكي.. كان البعض، بل الغالبية منا يعيش بنفس الحالة النفسية والعمرية التي دخل فيها السجن، ويبدو أن هذه الحالة سترافقنا حتى نموت.. فمن دخل السجن بعمر السابعة عشر يتصرف كابن السابعة عشر بنفس تتأرجح بين الطفولة والشباب، ومن دخل في عمر العشرين لا يزال بعد مرور خمسة عشر عاما يتصرف كابن العشرين وهكذا ...

لقد توقف الزمن في حياة السجين التدمري فالوجوه هي.. هي.. والمكان هو.. هو.. ولا جديد، ولا مواكبة لما يجري في الخارج.. إنه الانقطاع التام عن العالم الخارجي، صحيح أن الجرائد قد دخلت منذ ما يزيد عن عام، ولكنها لم تغير من واقعنا شيئا.

بدأنا نترقب ما سيحدث في الايام القادمة.. إذ اعتدنا أنه بعد خروج كل دفعة اخلاء سبيل، تعود السياط لتكوي أجسادنا الضعيفة، وتنهال الشتائم علينا من كل صوب، وكأن لسان حالهم يقول: إذن.. أنتم المجرمون.. أنتم من يقف عقبة كؤودا أمام عجلة التطوير والتحديث والتقدم.. لولاكم لوصل (حافظ أسد) إلى كوكب الزهرة، فذوقوا ما جنت أيديكم، وهكذا.. وكأننا لتونا دخلنا سجن تدمر الارهابي الاسود. كما تتجدد حالات التعذيب عند تسريح دفعة من الشرطة أو الرقباء وقدوم دفعة جديدة، فتبدأ ادارة السجن بتدريبهم على تعذيبنا بمختلف صنوف التعذيب، وكان من بين المقولات السائدة في السجن عند قدوم دفعة جديدة من الرقباء أو الشرطة (ذهب الملان وجاء الرغبان) بمعنى أن الذين ملوا من تعذيبنا قد سرحوا وجاء الراغبون.

بدأنا ننتظر ما سيكون بالنسبة للمهاجع.. ترى هل سينقلوننا إلى مهجع آخر؟ أم سيوزعوننا على عدة مهاجع؟ أم سيدخلون علينا مساجين من مهاجع أخرى ويبقوننا في مهجعنا؟ أم هل سيتركون الامور على ما هي عليها؟

من المستبعد أن يتركونا على ما نحن عليه من خلال فهمنا لسياسة السجن. بعد اسبوع تماما جاء صباحا أحد الرقباء، وقال: معكم نصف ساعة حتى تجهزوا أنفسكم.. كنا تقريبا جاهزين، كان البرد يلسع أجسادنا ونحن نتجول في أرجاء المهجع نتبادل وجهات النظر عما

سيكون في الأيام القادمة وعن نقلنا من المهجع. كان البعض منا يحرص على الرحيل مع مجموعة معينة ويتفقون فيما بينهم على أن يصطفوا خلف بعضهم عند الخروج من المهجع، حتى إذا تم التوزيع على عدة مهاجع يبقون مع بعضهم.

جاء الرقيب وفتح الباب، وأمرنا بالخروج. لقد كانت الرحلة قصيرة جدا في هذه المرة لقد نقلونا جميعا إلى المهجع عشرين المقابل لنا.

* * 56 * *

دخلت المهجع عشرين في أضعف حالاتي الجسدية خلال فترة وجودي في سجن تدمر، أصبحت نحيفا جدا، قد يكون وزني قد نزل إلى ما دون ستين كيلو غرام بطولي الذي يصل ١٧٥ سم، كنت أحس بأنني كريشة يمكن لنسمة هواء قوية أن تقذفني على الأرض.. هذا كان بعد أن قضيت ما يزيد على عشرة أشهر في رئاسة مهجع (ثلاثة وعشرين) استهلكت كثيرا من طاقتي الجسدية، وأتعبت أعصابي إلى حد بعيد.. أصبت فيها بارتفاع في ضغط الدم كان يخيف المسؤول الصحي وأرجعه إلى منشأ عصبي، لكن هذه الفترة زودتني بخبرة فريدة داخل المهجع وخارجه، إذ أصبحت لا آبه كثيرا عند احتكاكي بالشرطة والرقباء بالرغم من كل اجرامهم، كما عرفت أن كثيرا من الناس الذين اعيش بينهم ينقصهم الكثير من التربية والتأهيل لسلوك أفضل.

كان المهجع عشرون ذا شخصية متميزة، لقد شهد هذا المهجع جولات من الصراع الفكري، حيث احتدمت النقاشات، وانقسم الناس فيما بينهم إلى تيارين فكريين رئيسيين تفرع عن كل منهما تيارات أخرى صغيرة.

في الأعوام الأخيرة من السجن تلاشت العلاقات الأخوية تقريبا، ولم تبق إلا في نطاق ضيق – عند أولئك الذين تربوا على المبادئ والقيم – وحلت محلها العلاقات الدبلوماسية، بالإضافة إلى استفحال بعض الأمراض النفسية كالحسد والتعلق والأنانية.. في هذا الجو كان أولئك الربانيون يطفون على السطح كحالات شاذة في تجمع طحنته سنوات المحنة طحنا.

كان دخولنا للمهجع عاديا.. لم نلق الترحيب الذي لقيناه عندما دخلنا (جديد حنفية) في آخر عام (٩١) حيث كانت لا تزال الروح الأخوية تعبق في أرجاء المهجع. إنها اربعة سنوات فقط فصلت بين دخولنا إلى المهجعين، فما هو سبب انقلاب هذه الحال؟ هل تغير الناس، أم أن هذا المهجع الذي شهد أكبر صراع فكري أثر على نفسية الناس؟

في الأيام الأولى لدخولنا المهجع كان لا يزال المعتقلون يسترجعون أيام اللجنة، كيف دخل كل واحد منهم؟ وماذا سئل؟ وبماذا أجاب؟ وانه لو قال كذا لكان كذا، وقد أصاب في كذا وأخطأ في كذا. وهكذا .... في سيناريو وهمي ، للشيطان النصيب الأكبر فيه ، كانت مرحلة يجب

تجاوزها بسرعة ، و لكن البعض ظل يجترها إلى ما يزيد عن شهر ، و ذلك حين أعيد ثمانون سجينا إلى تدمر بعد أن خرجوا منه ، فكانت كارثة لأولئك الذين عادوا ، وأعادت للكثيرين رشدهم فحمدوا الله – سبحانه – أنهم لم يخرجوا و لم يعادوا ، لأن الذين عادوا كانوا كمن دخل سجن تدمر لتوهم إذ لا أغراض معهم و لا حوائج فكان أن قضوا أقسى فصل شتاء في تاريخ سجنهم ..كنت أتألم كثيرا لأولئك الذين عادوا ، و عندما اضع رأسي على الوسادة في المساء كنت ادعوا الله – عز وجل – ان يعينهم و يحفظهم و يحميهم .

* * 57 * *

يمتاز المهجع (٢٠) بتنوع في تركيبة عناصره، فهناك من هم محسوبون على الاخوان، وهناك البعثيون اليمينيون، وهناك من يسمون (اليشاريون) نسبة إلى تيار فكري يتزعمه شخص يسمى (اليشار) بالإضافة إلى عدة مجموعات يتبنى كل منها خط سياسي وفكري مستقل، كما يوجد بعض الوصوليين الذين لا يؤمنون إلا بمصالحهم الشخصية. فضلا عن وجود بعض الجواسيس، منهم من يعمل لصالح دولة عربية، ومنهم من يعمل لصالح اسرائيل.

بالرغم من هذا التنوع الكبير كان هناك تعايش فريد وقبول للآخر بشكل مثالي، وإذا وجدت بعض التصرفات الشاذة فهي من قبل أفراد –

وخاصة من قبل التجمعات القليلة، لأنها كانت في الأساس حالات مرضية – نفسيا واجتماعيا – على أية حال، كانت هذه الحالات المرضية تعبر عن نفسها في الزوايا المعتمة، وتعبر عن امراضها همسا – وإن كانت تحاول إثارة الفتن بين حين وآخر مستغلة النفوس الضعيفة –.

لا يزال المساجين يذكرون أيام الصراع الفكري والحوارات التي دارت على أرض المهجع علنا، وأمام كل أفراد المهجع، ويذكرون فلانا وفلانا من الناس الذين خرجوا بالأمس، وما هي الصفات التي كانوا يتحلون بها – خاصة اولئك الذين يتحلون بأخلاق عالية – أما الأشخاص السيئون فكان ينطفئ ذكرهم مجرد خروجهم من المهجع، وكأنهم لم يكونوا في هذا المهجع أو ذاك.

كان في المهجع (٢٠) رجل نصراني برتبة مقدم في الجيش السوري متهما بالتجسس لصالح اسرائيل.. هذا الرجل لم يكن له أية مشكلة مع أحد من الناس، إذ لا هم له على حد قوله إلا ان يملأ بطنه، حتى أنه كان يجامل الناس في شهر رمضان، فيصوم معهم بغية الحصول على كمية من الطعام أكبر، كما كان يطلق على الطعام اسم (الأعلاف).. كان متعايشا كما ذكرت مع الجميع.. ربما يعود ذلك إلى كونه كان ضابطا في الجيش، فهو قد عايش الطوائف الأخرى سابقا، وعنده رصيد من التجربة الاجتماعية مع أبناء الملل الأخرى.

كثيرا ما كان هذا الشخص يحكي عن فضائح الجيش العربي السوري الذي يتورط معظم ضباطه – خاصة المدعومين منهم – في تجارة المخدرات والحشيش واللصوصية والجاسوسية. فقد حكى لنا مرة أنه عرض عليه صفقة من الحشيش فرفضها خوفا من الوقوع في الشرك، وبعد فترة بسيطة التقى ضابطا في المطار كان قد علم بهذه الصفقة فأخذها لنفسه بعد أن علم أنها عرضت على الضابط النصراني، قال له: أنت الحمار فلان.

قال الضابط النصراني: نعم أنا الحمار فلان، لأني رفضت الصفقة وأخذتها أنت أيها النابغة البهلوان، ولكن: أنا إن وقعت فلن يخلصني أحد، لأن ليس ورائي من يدعمني، أما أنت فوراءك العماد فلان.

كان هذا الشخص لا يظهر أي عداء تجاه المسلمين، ولكن حين تجلس إليه وتسمع منه، تفوح من كلماته رائحة تنم عن نفسية مريضة.. فهذه الدبلوماسية ليست إلا قشرة تخفي وراءها موروثا عفنا.

في خلال حياتي كلها وجدت الانسان المسلم هو الأكثر تسامحا واعتدالا وقبولا للآخر من كل أبناء الملل الاخرى، ورغم ذلك يرميه الآخرون بأمراضهم وأوصافهم، ويكيدون له.

كان أيضا يوجد في المهجع (٢٠) عدد من الضباط الذين كانوا سيشاركون في الانقلاب على (حافظ أسد)، وبعناية ربانية نجا هؤلاء الرجال من الاعدام، كان هؤلاء الضباط يتحلون بأخلاق عالية وثقافة

متميزة، فهم تطوعوا في الجيش لأغراض سامية بناء على طلب موجهيهم في (جماعة الاخوان المسلمين)، كما ذكر لي أحد الاخوة منهم.. إلى جانب هؤلاء الاخوة الضباط (الإخوان) يوجد ضابط برتبة عميد، ليس له انتماء حزبي، وإنما كان متعاطفا مع الحركة أو الثورة التي قامت ضد طاغية الشام، هذا الرجل بسيط جدا بارع في اختصاصه الفني، أرسل في بعثة إلى بريطانيا عندما كان ملازما في الجيش، وعاد فنيا ممتازا ليخدم وطنه على ما يعتقد، وحين بدا لهم أنه يحمل بعض المشاعر الطيبة قبض عليه، قال للمحقق: لقد وفرت على الدولة مئات الملايين.. أجابه ذاك: كل ذلك لن يفيدك.

نعم لن يفيده ذاك طالما قال: لا، للطاغية المجرم.. كن مخربا لصا جاسوسا أفاقا، ولكن لا تكن معارضا.

أن تكون سكيرا عربيدا لصا زنديقا جاسوسا زانيا كذابا فاجرا فأنت مواطن شريف في نظام (حافظ أسد)، أما أن تكون معارضا فأنت خائن.. هكذا كان لسان حال المحققين يقول، ويرددها قضاة النظام المجرم.

ربما يتساءل البعض قائلا: هذا الكلام يتناقض مع وجود الجواسيس واللصوص والمجرمين في أقبية السجون. والجواب على ذلك: أن هؤلاء ليسوا موجودين في السجون لأنهم ارتكبوا تلك الجرائم، ولكن لأنهم اكتشفوا.. فالنظام يقول لك: اسرق، تجسس، افعل كل الموبقات.. ولكن بدون أن تدان بشكل رسمي. أما إذا قبض

عليك مع اثبات الجريمة عليك فلن يرحمك أحد – إلا أن تكون مدعوما من قبل المتنفذين في النظام.

في العودة إلى الضابط العميد .... لقد كان هذا الرجل يضم بين جوانحه قلب طفل، فقليل من العناية به والاحترام له يعطيك وده وحنانه.. اصيب هذا الرجل بمرض الشيخوخة المبكرة في الستين من عمره، وكان يبدو وكأنه قد تجاوز الثمانين، فخرج من السجن بمرض عضال بعد أن أمضى فيه ما يزيد عن خمسة عشر عاما دون ذنب اقترفه، إذا اعتبرنا الانتماء التنظيمي لحزب معارض يعد ذنبا.

أما الإخوة الضباط الآخرون فكانت معنوياتهم عالية، ملأوا أوقاتهم بكل ما هو مفيد ونافع لهم ولغيرهم خدمة لأنفسهم ولمن حولهم.

كان في المهجع عشرين عدة شخصيات مميزة، منها: طبيب أسنان عندما تراه لأول وهلة تستوحش منه، ولكن عندما تجلس معه تجد نفسك أمام انسان في غاية الطيبة والرقة، وصاحب طرفة مميز، كان هذا الرجل شديد التأثر عندما ينال السوط جسد أي سجين، كما كان يوجد عدد من الشباب متفانين في خدمة الناس فضلا عن أخلاقهم العالية.

سأسمع الكثير من القصص في هذا المهجع – خاصة عن أولئك الذين رحلوا إلى الله – سبحانه – ومن بينها: قصة طالب الطب الشهيد (صالح تعتع) من مدينة سلقين، كان الأخ الذي يروي لي قصة خروجه إلى الاعدام يتعجب من رباطة جأشه وشجاعته وهدوء أعصابه، يقول الأخ: معقول أن

يقرأ اسمه إلى الاعدام، ويسلم أغراض المهجع التي كانت في عهدته بهذا الهدوء، وبدون أن ينسى شيئا!! كل صنف بأعداده ومكانه، ما هذا يا أخي؟! ثم يخلع ثيابه ويلبس ثيابا بالية ويخيطها مع بعضها حتى لا تنكشف عورته أثناء تنقيذ الحكم فيه يا الله يا الله رحماك!

وتبرز بقوة شخصية الشهيد (ياسين الصواف) الذي واجه الشرطي من خلال الشراقة حين شتمه بأمه بأقذع الشتائم.. لم يستطع الأخ الشهيد الصبر على هذه الشتائم، فقال للسجان: إن أمي أطهر وأشرف من ألف أم كأمك، ليست أمي بل حذاؤها يا ابن الكذا والكذا.. حذاؤها أشرف وأطهر وأنبل من أمك.

بلغ الشرطي إدارة السجن، وبعد قليل جاء المساعد ومعه عدد من الشرطة والرقباء، وطلبوا منه الخروج.. خرج البطل (ياسين الصواف)، أسندوه إلى الحائط وضربوه على قلبه مما سبب له نزيفا داخليا بعد ساعتين فارق الحياة..

تحية إلى روح الشهيد (ياسين الصواف) في الخالدين.

لقد كانت ادارة السجن الظالمة حريصة كل الحرص على ألا يسجل أي معتقل موقفا بطوليا.. لقد كان معروف سلفا ثمن هذا الموقف: إنه الموت لا غير.. لقد كانت تدرك إدارة السجن أن مرور تصرف كهذا يعني تكراره مئات المرات، وعدم تسجيل المواقف لم يكن سببه الخوف من الموت، بل ما هو أفظع.. إنه الخشية من التعذيب والتنكيل المستمر

للسجين ولبقية السجناء، فغالبا ما كان يعم التعذيب أرجاء السجن عند حدوث حالات كهذه أو غيرها.

وكلما جلس واحد من السجناء إلى آخر في جلسة غير علمية سيسمع عبارة: فلان -رحمه الله - والشهيد فلان - رحمه الله - وكان وراء كل شهيد قصة.

إلى جانب القصص المأساوية، كان هناك نوع من الكوميديا السوداء، فيحكي الشباب في هذا المهجع: أن أحدهم تقدم يوما من رجل متقدم في السن قليلا، فقال له — مازحا-:

- أي عم.. إذا جاءت لجنة، وقالت لك: نخرجك من السجن شرط أن تركب زوجتك على ظهرك.. هل توافق؟

- أجاب الرجل: واحد حمار مثلك تركب زوجته على ظهره.

- قال الشاب: لا بأس.. ثم تركه وانصرف.

بعد بضعة أيام كانت هناك حفلة تعذيب خارج المهجع في الباحة، وبعد أن انتهت، دخل الناس ملوثين بالطين والدماء في حالة يرثى لها، وبعد أن بدلوا ثيابهم ونظفوا المهجع جلسوا جماعات وفرادى، كان الرجل - اياه -يجلس مطرقا راسه، ساهما، تقدم الشاب منه، وقال له — بعد السلام -:

- أي عم، إذا جاءت لجنة وقالت لك: نخرجك من السجن شريطة أن تركب زوجتك على ظهرك. هل توافق؟

– أجاب قائلا: نعم، أوافق. وبيدها شحاطة تضربني بها على رأسي.

– عظيم .. أحسنت.. أحسنت يا عم، الآن مشى حالك.

كما تتميز شخصية أحد المهندسين بشكل فريد يعز نظيره، إنه (أبو عبد الرحمن).. إذا دخلت المهجع عشرين ورأيته لا تأبه له.. لقد كان حال فريدة، أشبه بما يكون في مظهره الخارجي بمتسول، ولكن ينطبق عليه مقولة: (العظمة تحت الأسمال) فهو – فضلا عن كونه مهندسا– يتميز بثقافة عالية.. ولم يعرف المهجع عشرين رجلا في الايثار مثله، لقد كان يتبرع بكل لقمة طيبة للمرضى ولغيرهم، ولا يطيق ان يسمع كلمة مديح واحدة – حتى على سبيل المزاح – وإذا ما مازحته قائلا له: أنت رائع يا أبا عبد الرحمن، أو أنت كالتحفة الرائعة، أو أنت عبقري.. نظر إليك بغضب، وهددك بأنه إذا ما كررت هذا الكلام فسيشتم نفسه، وكثيرا ما كان يفعل.

هذا الشاب عندما دخل اللجنة لم يستطع أن يجامل أعضاءها المجرمين، فحينما سأله أحدهم: هل تتعاون معنا؟ أجابه: لا..

بعد خمسة عشرة عاما من السجن، وأين؟ – في سجن تدمر الارهابي التصفوي يقول معتقل: لا.. للجلادين، لم تلن عزيمته كما لم تلن عزيمة الكثيرين، كما عبر عن ذلك أحد شعراء المحنة حينما قال:

لان الحديد وما لانت عزائمنا...

في حين أن زعيم حزب العمال الكردستاني (أوجلان) الذي ملأت شهرته الدنيا، عبر عن استعداده للتنازل عن كل شيء مقابل إطلاق سراحه وذلك بعد ثلاثة أشهر من السجن وبالتأكيد في سجن لا يشبه سجن تدمر بحال من الأحوال، لم ينل فيه واحد في المليون مما نال أبا عبد الرحمن.. ولكن شتان شتان بين الرجلين، فأوجلان عاش بين العاهرات في الليالي الحمراء وأبا عبد الرحمن تربى على مائدة القرآن.

قال له أصحابه: لماذا لم تقل لهم: " نعم " تقية.

أجاب: لا أستطيع.. لا أملك طاقة نفسية تساعدني على قول: نعم.

سلام على أبي عبد الرحمن أينما كان.

كان هناك مهندس آخر.. إنه (أبو عبدو) رجل من طراز فريد، إنه عالم مستقل لوحده، ومدرسة من نوع غريب، حيث لا رواد لها إلا تلميذ أو تلميذان، كان هذا الرجل خدوما إلى حد التفاني في خدمة الآخرين.. يقضي معظم وقته في خدمة الناس، لا يكل ولا يمل، من عمل لآخر، ولكنه كان عنيدا بشكل اسطوري، ومع ذلك لا مشكلة له مع أحد، وإذا حدثت تمر مرور الكرام.

كان (أبو عبدو) يأكل الفليفلة الحارة، ومهما كانت حارة، تسأله: هل هي حارة؟ فيجيبك: لا ...!! وفي أحد المرات دخلت المهجع فليفلة شديدة الحرارة، ولشدة حرارتها كان ماء مخللها يحرق اليد إذا سقطت قطرات منه على يد أحدهم، ومع ذلك يأتي له البعض بعروقها،

فيأكلها، فيحمر وجهه وعيناه، ويسيل العرق من رأسه ووجهه، وتسأله: هل هي حارة؟ فيجيبك مكابرا: قليلا ...!

-يا إلهي ما هذا العناد!

هناك المئات الذين مروا على هذا المهجع، تركوا خلفهم مئات القصص، ربما يأتي غيري ويسجل أفضل مما خطه هذا القلم المتواضع وبأسلوب أرقى.

* * 58 * *

بعد بضعة شهور من دخولنا المهجع عشرين تغيرت إدارة السجن بالكامل.. انتهت مهمة المجرم (غازي الجهني) الذي كان رحيله عن السجن أمنية عند المعتقلين، كان السجناء يعتبرون رحيله يشكل نصف اخلاء سبيل، ولكن (لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع) غادر (غازي الجهني) وطاقمه سجن تدمر، وجاء من هو أحقر وأرذل وأنذل وأخس وأكثر اجراما منه.. إنه (غازي ديوب) الذي أطلقنا عليه اسم (غازي ديوث) لقد كان هذا المجرم خزانا من اللؤم والأحقاد.

كان (غازي الجهني) نادرا ما ينزل إلى باحات السجن، وفي أوقات نكون فيها داخل المهجع نراه من ثقب الباب. أما هذا المجرم فكان ينزل بنفسه ليشارك في حفلات التعذيب، كما كان يبحث عن معتقلين كان يعرفهم سابقا حتى يذلهم ويهينهم، كما كان فريق (غازي

الجهني) يتميز بشخصية قوية وانضباط شديد بحيث لو رفع الشرطي يده بالضرب وأشار له الرقيب: أن، لا.. كان لا يجرؤ أن ينزل يده على جسد السجين، كما كانت البلديات لا تجرؤ على أي تصرف خارج ارادة الشرطة والرقباء، بالإضافة إلى أن سياسة (غازي الجهني) كانت قائمة على سياسة التناوب في تعذيب السجين وإيقاف التعذيب فترة من الزمن، أما هذا المجرم، فلم يعد للمساعد والرقباء شخصية، فانفلتت كل العناصر من عقالها، وشارك الجميع في ضربنا وإيذائنا من عنصر البلديات إلى مدير السجن، ولم يوفر هذا المجرم يوما واحد حتى أيام الجمعة والأعياد لم تكن حالة استثنائية..

لقد كانت الفترة التي وجد فيها المجرم (غازي ديوث) في سجن تدمر من أشد الفترات قسوة وظلما وإرهابا وإجراما.

مع كل طعام افطار كانت السياط والدواليب ترافق بضع حبات من الزيتون أو ملعقة من المربى أو ربع بيضة.. في هذه الأثناء كانت الزيارات لم تتوقف، ولكنها باتت تشكل عبئا على السجين، ففضلا عن السرقات التي مارسها عناصر عصابة (غازي ديوث)، وكنا نراهم من خلال ثقب الباب كيف يسرقون الألبسة وغيرها، كانت السياط ترافق السجين في طريقه لرؤية أهله وأثناء عودته من الزيارة.

قبل مجيء (غازي ديوث) كان الفرح يكسو وجه السجين المزار، وجميع أفراد المهجع. أما الآن فعندما يدخل الرقيب إلى الباحة وفي يده

ورقة مكتوب عليها اسم السجين المزار كان غالبنا يضع يده على قلبه قائلا: " الله يستر " " يا لطيف "، لم يعد الكثيرون منا يتمنون الزيارة بالرغم من طول غيابهم عن أهلهم.

لقد استمرت هذه الحالة من الربع الأول لعام ست وتسعين إلى نهاية عام ثمان وتسعين، كانت خلالها تتكرر الحالات المأسوية وتتنوع.. في خارج المهاجع وعلى أرض الباحات كان السوط والدولاب والسياط المرعبة على الأجساد النحيلة الضعيفة التي نالت المحنة منها كل ما تريد، وفي داخل المهجع – وخاصة في الليل – كان مجرد دخول السجين إلى دورة المياه ليبول – خلال فترة النوم الطويلة التي تمتد إلا ما لا يقل عن إحدى عشرة ساعة – أو أي حركة أثناء نومه، أو تغيير وضعية نومه، كل ذلك كانت كلفته عالية في صباح اليوم التالي.

في أحد المرات وقف الشرطي أو الرقيب على طرف شراقة السقف فسقطت حجرة صغيرة إلى داخل المهجع، قال الرقيب للحارس الليلي: أخرجها في الصباح.. فأجاب السجين: إن شاء الله.. قال الرقيب: تقول " إن شاء الله "؟ علم نفسك يا ابن الكذا.. وفي صباح اليوم التالي كانت ثلاثمئة كرباج بانتظاره.

ومرة جاء أحد الشرطة إلى الشراقة، نادى الحارس الليلي، وكان البعثي (مكاري).

– قال له الشرطي: هل مارست الجنس في حياتك؟

- قال مكاري: نعم.

- قال الشرطي: احك لي كيف مارسته؟

بدأ مكاري يقص عليه كيف سافر مرة إلى أوربا عبر البحر، ودخل أحد الفنادق في مدينة أوربية، وهناك كان ما كان.. سر الشرطي بهذا الحديث في حين انتفخ بطني من شدة غيظي، لأن أحدا لن يستطيع اجبار هذا التافه على الادلاء بمثل هذه الأحاديث.. نادى الشرطي الرقيب الذي كان يقوم بدورية على السطح، وطلب من مكاري أن يعيد القصة، وبعد أن أنهاها، قال له الرقيب: هل أنت من الإخوان المسلمين؟

أجابه مكاري: لا، أنا " بعثي " ...

فجاءت هذه الكلمة بردا وسلاما على قلبي، وعدت لنومي بارتياح شديد، ولكن يبدو أن هذا التصرف لم يرق للرقيب، فطلب من الشرطي أن يبتعد عن الشراقة ولم تتكرر هذه الحالة.

ومرة جاء أحد الشرطة، وطلب من الحارس الليلي، وكان شخصا وصوليا نذلا.. طلب منه أن يغني، فرفع عقيرته بالصياح ليزعج كل أفراد المهجع.. في حين راقت هذه التفاهة للشرطي، فصار يأتي كلما كانت نوبته في الحراسة إلى شراقة المهجع ويوقظ المغني ويسمع منه.. فظن المغني أنه صاحب صوت ساحر له امتياز على بقية افراد المهجع،

فبدأ بالتطاول داخل المهجع، وبعد يومين جاء الشرطي بصحبة رقيب، وطلب المغني، وبعدما أنهى الأسطوانة المشروخة، قال له الرقيب: غدا تأخذ حسابك.. وفي اليوم التالي كان حساب المغني فريدا: ما يزيد عن مئة سوط، ولعدة أيام.. تضاءلت فيها شخصية المغني لتصبح كجعل تحت الأقدام، وتاب على أثرها توبة غير صادقة.. توبة مؤقتة ريثما يطيب جسمه من أثر السياط، ويده من آثار الرضوض التي ألمت به.

وفي أحد الأيام بل الليالي جاء الشرطي، وطلب من الحارس الليلي أن يسحب البيجاما ليكشف عن عورة المغني الشهير، وبالرغم من القرف الذي نال الحارس الليلي وتردده، فقد اعترتني حالة غضب وألم شديدين من هذا التصرف، وعاتبت فيها الأخ الذي نفذ أوامر الشرطي،

– قال لي: لم أنظر إلى عورته..

– قلت له: كان عليك ألا تنفذ.

– قال: ولكن كلفتها باهظة.

– قلت له: الله المستعان.. كان عليك أن تقول للشرطي ممنوع بأمر من الادارة.

إثرها كتبت قصيدة "مضافة اللئام" التي أقول فيها:

بمضافة طاغية عشنا دهرا

نكوى باللؤم يرافق حقدا مشحونا

يا قومي عشتم، عشتم، نحيا ظلما.. نحيا قهرا

هل ينبت في قلب الموتى عشب أخضر؟!!

كنا نخلا.. زيتونا. كنا أحلاما لغد، فسلاما

وغد يبكي أمسي.. يبكي يومي.. يبكي، يبكي عمرا...

***

في بيت المضياف ربيب السوء نموت مرارا ومرارا...

ففطور السجن سياط أو لطمات مثل النار

وعشاء المأسور كلام، أي كلام.. يا للعار

سهرتنا ذل.. أحزان..

وأنين كنار

***

بمضافة طائفة حمقى كنا أسرى

يعوي سوط البغي.. تئن جراح.. تهتك أعراض الناس جهارا

تشتعل الثورة في جنبي.. ثارت في قلبي، طافت..

فاضت فاضت حتى صارت أنهارا

وتمور الدمعة في عيني. تومض، تبرق، تحكي للدنيا أسرارا

وتظل الدعوة في قلبي تنمو.. تنمو.. تزهر فجرا للأحرار

فجذور الدعوة في قلبي تسقى روحي وحياتي

وشراييني كالأنهار

ترفد قلبا للإسلام يعيش، ويحيا للأنوار

* * *

عشنا نفدي دينا.. نهدي نورا.. عشنا، عشنا أحرارا

بقلوب مؤمنة نحيا..

لا نرضى عن دين الله بديلا وخيارا

* * *

بمضافة حزب مأجور، خوان، أعمى.. كنا أسرى

نجلد ظلما

نقتل قسرا

نعدم زورا

شهدت تلك البيد عليهم

سل عنهم كل رمال الصحراء

أوباش الكفر.. ثعابين العصر الدموي الأصفر

قد دار سؤال في نفسي، قلت: رويدا

بمضافة قوم لؤم مت، وعشت شهيدا

في يوم الملحمة الكبرى أبعث حيا وسعيدا

راجعت حسابات الماضي وتراجعت سريعا

لا. لن أعفو عنكم يا عباد اللات، ولن أرضى شفيعا

وصلاح الدين عظيم وحبيب..

وأنا من أحفاد صلاح الدين ولكن

ما أغباكم.. يا أحفاد الحشاشين، وما أغباكم!!

لن أعفو عنكم أبدا، أبدا..

آمنت بقرآن يجري بدمي ضد جنود الكفر جميعا

بأماني أسرى في وطني

رفضوا ذلا وخضوعا

آمنت بكوكبة مؤمنة تمضي تصنع فجرا حرا.. مرا ومريعا

* * *

لن أعفو عنكم أبدا.. أبدا

آمنت برشاش فوهته كبرى.. يحكي نغما...يسحق قوما فجارا..

آمنت بكل رصاصات الثأر لتصرع رأسا كفارا..

آمنت بقنبلة عظمى لا تبقي منكم ديارا..

آمنت بثورة شعب حر، بركان، يقذف نارا، نارا..

* * 59 * *

أغفو فتصحو في الدجى أحزاني   أصحو فيغفو في النهار أماني

فأنا المخاوف والشجون جميعها   وكأن كل الحزن من أحزاني

" أبو المعتصم "

خلال فترة (غازي ديوث) لم تعرف أعصابنا الراحة، لقد كنا في خوف وقلق دائمين، فسوط الجلادين لم يغادر أيديهم نهارا ، وفي الليل عبر الشراقات كان الازعاج والارهاب.

في هذه الفترة لم تكتف ادارة السجن الظالمة المجرمة بتعليم واحد أو اثنين، بل كان التعليم بالجملة، وأحيانا يعلمون كل المهجع، ويتم تنفيذ العقوبة – إن صحت التسمية –بكل أفراد المهجع.

ربما يستغرب المرء إذا قلت له: إن العصافير كانت تدخل إلى المهجع عبر الشراقات الجانبية عندما كان يدخل الشرطة إلى الباحة حاملين سياطهم، فماذا يعني ذلك؟

في الليل لجأ بعض السجناء إلى وضع قنينة بلاستيك، أو بيدونة صغيرة بجانبهم، حتى يتبولوا فيها خلال الليل، لأن بعضا منهم لن يغامر في الخروج إلى الدورة لقضاء حاجته، كما كان بعض الحراس الليليين يخشون اخراج أحد إلى الدورة، نظرا للتكلفة الباهظة التي سيدفعونها فيما لو ضبطوا.

قال لي مرة أحد الأخوة – وكان ضابطا طيارا – ما كلفت يوما بمهمة جوية وترددت فيها، لم أكن أعرف الخوف حتى لو كنت سألقى حتفي، أما الآن فأخشى الوقوع بين أيدي هؤلاء المجرمين.

كان (غازي ديوث) لصا خسيسا مارس كل أشكال اللصوصية خلال فترة وجوده في سجن تدمر، ويساعده في ذلك مساعده اللص الجرم (أحمد

المحمود) الذي عرف بشدة لؤمه ونذالته وخسته وحقده منذ أن قدم إلى سجن تدمر برتبة عريف.. كان هذا المجرم شديد الفحش والبذاءة والوقاحة، وكان يعبد المال، فهو يتمتع بشهوة للمال ليس لها حدود.. هذان اللصان المجرمان سمحا للمزارين بأن يأخذوا في زياراتهم ما شاؤوا من النقود بعد ان كان سقفها (ثلاثة آلاف ليرة) أيام المجرم (غازي الجهني) ومساعده (نعمة)..

في هذه الأثناء دخل السجن ملايين الليرات، فكيف سيسطو عليها هؤلاء اللصوص؟ لجأوا أولا إلى تسجيل فواتير الخضار والفواكه، ثم البيض والسكر والحلاوة، ثم الطحينة والسردين، وكل ما يريد السجين أن يسجل عليه.. كانوا يبيعون هذه المواد بأسعار مضاعفة، ويدخلون نصف فاتورة الخضار والفواكه بأسعار خيالية ثم يعودون ليبيعوا لنا النصف الآخر الذي سرقوه.

لم يكتف هؤلاء اللصوص المجرمون بذلك بل بدأوا يفرضون ضرائب على المهاجع فكان كل اسبوعين يأخذون ضريبة عن الماء الذي نشربه والهواء الذي نتنفسه والكهرباء المزعجة ليل نهار ... وغيره.

لقد كانوا يحاولون أن يسرقوا أموالنا بأسرع فترة ممكنة، وعندما استاء المساجين من هذه اللصوصية الوقحة فكر البعض بأن لا يسجل فاتورة، وعندما جاء المساعد إلى أحد المهاجع، وطلب من رئيس المهجع تسجيل فاتورة، قال له رئيس المهجع: لا نريد.. فما كان من المساعد

إلا أن أحضر الدولاب والكرابيج، وانهال عليه ضربا، وقال له: ستسجل غصبا عنك.. يا ابن الكذا ... ولم يعد بعدها أحد يجرؤ على عدم تسجيل فاتورة.

كما برزت ظاهرة الرسم والنحت والتصوير والتطريز لصالح الرقباء، وأصبحت تجارة رائجة للجلادين، وخصص أكثر من مهجع لأصحاب المواهب، وكان له امتيازات خاصة: منها التخفيف من وطأة التعذيب والإرهاب.. وكل من يرغب في الانتقال إلى تلك المهاجع ليس عليه إلا أن يدفع مبلغا من المال قدره يتراوح بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف ليرة، كما كان الشيطان المساعد يقتطع جزءا من المبلغ الذي يأخذه السجين من أهله أثناء الزيارة!! هكذا بكل وقاحة.

انتقل عدد من أفراد مهجعنا إلى المهاجع الخاصة (المدللة) وبدأوا يسحبون معارفهم لعندهم لقاء مبلغ من المال -كما ذكرت - وكان آخر من خرج من عندنا شاب اسمه (.........) كان في الليلة التي سبقت انتقاله قد بال على فراشه لأنه كان في حالة احتقان شديد، ولم تكف القنينة بولته فامتلأت وفاض الباقي على الفراش.. تقدم منه أحد الشباب وكان صاحب نكتة وقال له: تذكر يا (.........) أنك بلت على فراشك في آخر ليلة قضيتها في المهجع عشرين.

* * 60 * *

يوماً، كنت واقفاً على الباب أنظر من الثقب، أرقب الباحة والحركة فيها، وبعد أن مللت من ذلك تركت الثقب وأدرت ظهري للباب، وعدت لأجلس مع مجموعتي.. لم تمض دقيقة على ذلك حتى كان الرقيب على الباب يقرأ اسمي..

يا إلهي، لقد جاء أهلي لزيارتي في وقت عصيب، أسرع نحوي مجموعة من الإخوة، هذا أحضر معه بنطالا جديدا، وذاك قميصا، وآخر بيده ماكينة حلاقة، ورابع يعطرني.. وخلال عشر دقائق كنت خارج المهجع.. في الطريق إلى الزيارة سألني الرقيب:

– من أين أنت؟

– قلت: من ريف حلب.

– قال: ما هي تهمتك؟

– قلت له مخادعا: كتم معلومات، (لأنني لو قلت له أنني أنتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين لدفعت الثمن غاليا).

– قال: ماذا يعني كتم معلومات؟

– قلت له: عندما كنت طالبا بالجامعة كان يسكن معي طالب آخر، وفيما بعد رحل عني، ثم تبين فيما بعد أنه من عناصر الإخوان. فرفع أحد المخبرين تقريرا بي أنني كنت من أصدقاء ذلك الطالب.

– قال لي: تعرف تعليمات الزيارة.

– قلت نعم.

(التعليمات تقضي أن أقول إن كل شيء على ما يرام في السجن)

وصلنا إلى باحة الإدارة.. أمرني بالجلوس في مواجهة الحائط.. كان إلى جانبي شابان. ثم انضم آخر فأصبحنا أربعة.

– قال الشرطي: ضع أصابعك في أذنيك.

وضعنا أصابعنا في آذاننا. بالنسبة لي لم أكن ألتزم بتعليماتهم أبدا.. كنت أتصنع تنفيذ الأوامر، وبدأت أنصت لأرقب حركة الشرطة لأتبادل المعلومات مع من يجلس إلى جواري، عند ابتعاد الشرطة عنا.. اختبرنا الشرطي عدة مرات – إن كنا نسمع أو لا –.. ولكن الجميع كانوا منتبهين. وبعد ما يزيد عن نصف ساعة دخل أحدنا ليزور أهله، وعندما دخل ارتفع صوت الصياح والبكاء، يا إلهي، لقد ملأت الدموع عيني.. بدأت أدعو الله – عز وجل – أن يثبتني، ويربط على قلبي، وأن أتماسك عندما ألقى أهلي حتى لا يشمت بي المجرمون.

بعد ثمانية أعوام سألقى أهلي. يا ترى كيف سألقاهم؟، هل تغيروا كثيرا؟، ومن منهم قد أتى ومن غاب منهم ؟؟، وهل هم جميعا أحياء؟ لا بد أن طفلي وطفلتي قد كبرا وتغيرت معالمهم كليا، كما قد تغيرت معالم إخوتي الصغار.. ومن تزوج من إخوتي وأخواتي؟ ومن هم أزواجهم؟ وهل صار عندهم أولاد؟ هل أتم إخوتي وأخواتي دراساتهم؟

وأمي.. آه، يا أمي، كيف أمسيت بعد هذه الفترة الطويلة؟ وأبي لله درك يا أبي.. ماذا أقول؟ آلاف من الصور والذكريات تنهمر على خيالي، ولكن الصور كلها تعود إلى ما قبل ثماني سنوات، حتما سأفاجأ الآن.. بدأت أتذكر بعض قصص الزيارات، وكيف أن واحدا من قريتنا عندما جاءته أول زيارة، ودخل على زوجته وأولاده شده ولم يعد يستطيع الكلام، لأنه لم يحضر نفسه للمفاجأة، فقد دخل إليهم وفي ذهنه صورة أولاده عندما كانوا صغارا، وعندما دخل وجدهم شبابا فصدمته الدهشة ... وغيره الكثير والكثير من القصص، فخلف كل زيارة قصة..

خرج أول واحد من الزيارة، وبعد خروجه بنصف ساعة دخل الثاني، وأنا أترقب، وأحضر الأسئلة والأجوبة. الأسئلة محدودة، لا يجوز أن أسأل أهلي إلا عن أوضاعهم الشخصية، صحتهم، أحوالهم، دراستهم، وهكذا..

وبعد أن خرج الثاني من الزيارة بحوالي نصف ساعة أيضا، تقدم مني الرقيب وقال: ما اسمك؟ لم أجبه. مثلت أني لا أسمع، فمد يده وأنزل يدي عن أذني، وأعاد السؤال، قلت: اسمي..

قال لي: قم، امش معي.

بعد خطوات وصلت إلى باب غرفة الزيارة، لم تعد الزيارات في عهد (غازي ديوث) في غرفة المساعد، وإنما أصبحت من وراء الشبك

والقضبان. قال لي: انزع الطماشة وارمها على الأرض. ثم فتح باب الغرفة، وقال: ادخل. وما إن دخلت حتى انفجر جميع أهلي بالبكاء. قلت: السلام عليكم. كان بكاؤهم عاليا يشبه العويل. قلت لهم: يا أهلي أنا بخير. وأريد أن أسلم عليكم وأطمئن عليكم، وإلا فسينتهي وقت الزيارة دون فائدة. قالوا لي: كما تريد.

في الواقع وبالرغم من رباطة الجأش التي منحني الله – سبحانه – إياها فقد اعترتني مشاعر وحالة يصعب وصفها.. وقفت في غرفة الزيارة مرفوع الرأس، وكأني لم أدخل سجن تدمر أبدا.. لقد كانت على الدوام تتردد هذه المعاني في نفسي وتجد له صدى في كل خلية من كياني الروحي والنفسي:

أهوى الحياة كريمة لا قيد   لا إرهاب لا استخفاف بالإنسانِ

فإذا سقطت، سقطت أحمل عزتي   يغلي دم الأحرار في شرياني

بعد أن سلمت عليهم فردا فردا ممن عرفت أشكالهم، وسألتهم عن أوضاعهم،

– قالت لي أختي الكبرى: هذا ولدك.. وهذه ابنتك.. لم أعرف أختي وأخي الصغيرين، فسألت: – من هذه؟

– أختك..

– ومن هذا؟

– أخوك..

وأين فلان وفلان.. إنهم يعيشون ويعملون في رومانيا، والبارحة اتصلوا بنا، ويقرأون عليك السلام. وكل من لقينا في الطريق من الأقارب والجيران يقرأ عليك السلام..

كان بودي أن أحضن كل فرد منهم وأضمه إلى صدري وأقبل وجنتيه، كان بودي أن ألقي براسي على صدر أمي.. ولكن حال الحديد دون كل ذلك.. أهو الحديد حقا ؟! ، أم الظلم والطغيان ...؟

بعد ثماني سنوات حال الطغاة المجرمون بيني وبين أن ألثم يد أبي أو وجه أمي الطاهر أو وجوه إخوتي وأخواتي وزوجتي وأولادي..

قال الرقيب: هل تريد من أهلك شيئا.

- قلت: لا.

فمد أخي يده بمبلغ من المال، وقال: هذه عشرة آلاف ليرة. تناولها منه الرقيب، وعدها ثم ناولني إياها.

كانت عيون الجميع ترمقني وكأنها تغرف من نبع الحنان وتقطف من زهر القبلات فترميني بها، وابتسامة حزينة مرسومة على كل وجه.

قلت في نفسي: ترى هل سألقاكم مرة أخرى أيها الأحبة؟ من يدري؟ أشار لي الرقيب الذي كان يقف خلف أهلي أن (انتهى). قلت لهم: السلام عليكم. في حين جف حلقي وكتمت الدمعة في عيني. وخرجت. بعد أن خرجت جاء الرقيب بورقة. وقال لي: وقع على

استلام أغراضك. ألقيت نظرة سريعة على كل الورقة علق بذهني الكثير منها. وعندما وصلت المهجع كانت بعض الأغراض قد سرقت..

سلمت، ووقفت أقص خبر زيارتي بأدق التفاصيل. قال لي بعض الإخوة بعد أن أنهيت كلامي: ما هذه الذاكرة يا أبا براء؟!

هنأني الجميع، وبعد توزيع الأغراض جلس معي بعض الإخوة.. كنت شاردا والدموع تملأ عيني، وأنا أسترجع الزيارة مرات ومرات في خيالي، وأحاول أن أتذكر الصور الجديدة لإخوتي وأخواتي وزوجتي وأولادي.. أما أمي وأبي فلم تتغير صورهم كثيرا، لقد شاخا قليلا.. وبالرغم من محاولتي تثبيت الصور الجديدة في ذاكرتي، لكني فشلت في ذلك.. لقد كانت الصور القديمة هي الطاغية على مخيلتي.. ولا تزال الصور القديمة موجودة في ذاكرتي إلى اليوم حتى بعد خروجي من السجن بسنوات، ومعايشتي لأهلي.. لقد أصبح لكل منهم صورتان: قديمة عندما كانوا صغارا. وجديدة معاصرة.. في المساء عندما استلقيت للنوم تركت لنفسي العنان، فبكيت بصمت، ولم أستطع النوم إلى وقت متأخر عند الفجر. لم أمل من تكرار الصور والزيارة، وحواري القصير معهم. إنها عشر دقائق، بقيت أياما وأسابيع، أسترجعها، في خلواتي وعند النوم..

في هذه الليلة عدت شاعرا من جديد، بعد أن كنت قد قررت عدم كتابة الشعر، فكانت قصيدة (الزيارة الأولى)، ومنها هذه الأبيات:

طريقي قُدَّ من جسم العناء ونهجي من صميم الحق جاء
وصادقت الأسى يوما لأني أحب النور بل أهوى الضياء

....

ثمانية من الأعوام مرت ولم يخفق فؤادي بالهناء
وقابلت الأحبة في اشتياق ولاقاني الأحبة بالبكاء

....

ستذكر أمتي يوما بأنا ركبنا الهول من أجل الضياء
نذرنا العمر للإسلام حينا وأحيانا، فللدين الفداء

* * 61 * *

بعد عام وما يزيد عن شهر ونصف جاءتني الزيارة الثانية، وبالرغم من الجو العاصف للسجن، فرحت ضمنيا بالزيارة، كنت أكثر استعدادا من الزيارة الأولى، وكنت أكثر هدوءا وتماسكا، وملأت وقت الزيارة كلها، وانتهى وقت الزيارة دون أن أتم ما حضرته من أسئلة

حتى بقيت أتكلم معهم وأنا خارج من قفص الزيارة، وفي المساء كنت أحلق بعيدا بعيدا.. جلست إلى أهلي وخاطبتهم:

في القلب يا أحبتي مكانكم

وفي عيوني واحة جميلة تضمكم

وألف ألف مرة أقول يا أحبتي أحبكم

* * *

لو مرة لخافقي أضمكم

لأزهرت عوالمي بأجمل الألوان

لو صافحت أناملي أكفكم

لأورقت جوارحي بالورد والريحان

لو لامست لماي يوما وجهكم

لأمطرت سماء روحي أنجما تهدى لكم

* * 62 * *

قبل الانتقال إلى المهجع -٣- في الباحة الأولى لا بد من الوقوف عند شخصين يصح وصفهما بالشياطين. هذه الوقفة تبرز كضرورة في هذه المذكرات لتكشف عن خفايا في النفس البشرية لطالما حذر الإسلام منها، ومنها، اتباع الهوى، والبعد عن الموازين الشرعية، بالإضافة إلى

العجب والغرور والكبر، التي تهبط بالإنسان إلى أدنى الدرجات وهو يظن أنه " فوق ".. حتى ليقول المرء من شدة الذهول: معقول؟!

معقول أن يتحول هذا الإنسان الجميل إلى شيطان؟!!

أحد هذين الشخصين شاب دخل السجن، وهو في مقتبل العمر في أول سنوات المراهقة، وفي الواقع يتحلى هذا الإنسان بطاقات فريدة: فهو جلود، قوي البنية، منحه الله – عز وجل – ذاكرة قوية، وشجاعة فريدة، وخلال فترة وجوده في السجن التي امتدت إلى ما يقرب من (١٨) عاما استطاع خلالها أن يجمع كما كبيرا من المعلومات، ولكنه كان فاقدا للتربية، وقد التقى خلال فترة وجوده في السجن بشخصيات كانت رموزا في العمل الإسلامي. ولكنه كان يظن أن مجرد لقائه مع هذه الشخصيات قد أصبح مثلها، أو هي جزء من شخصيته. ولكنه بالمقابل فشل في إقامة أي علاقة اجتماعية صحيحة نتيجة الكبر والغرور والعجب التي صارت من أبرز معالم شخصيته، ونتيجة فشله في العلاقات الاجتماعية حمل كما هائلا من الأحقاد، فراح يحاول تشويه كل صورة جميلة إذا وجد إلى ذلك سبيلا. لم يقم أحد في المهجع وزنا للمعلومات التي يختزنها هذا الشاب في ذاكرته، لأنه مريض ومصاب بإيدز نفسي، ومهما حاول المرء أن يعالج بعض ما أصاب هذا الشاب من أمراض نفسية، فلن يجد إلى ذلك سبيلا، لأنه ابتداء لا يقر بأنه شخص مريض، ويعتبر نفسه فوق الجميع.

عندما كنت أراه يمشي على أرض المهجع كان لا يخطر على بالي إلا قول الشاعر:

ملأى السنابل تنحني بتواضع   والفارغات رؤوسهن شوامخ

حاولت أكثر من مرة أن أجلس إليه لكي أخفف من حدة إيذائه للآخرين، ولكن الدخول إليه لا يتم إلا عبر مفتاح المديح له. لذلك كنت أتردد كثيرا في الجلوس إليه حتى أثني عليه في أمر خارج عن دائرة التملق والنفاق، وبفضل الله – سبحانه – كانت تكلل هذه المحاولات بالنجاح، ولكنها كانت عبارة عن مسكنات ليس إلا..

إن المعلومات التي يتلقاها الفرد إذا لم تسبقها عملية تربوية تصبح وبالا على صاحبها وعلى من حوله..

من الممكن أن أكتب صفحات عن هذا الشخص وأمراضه وإشكالاته ولكن سأكتفي بهذه اللمحة الموجزة حتى لا تصبح الكتابة عنه هدفا بحد ذاتها.

بالإضافة إلى هذا الشخص، يوجد شخص آخر وهو طبيب، وربما سيفغر القارئ فاه عند ذكر هذه الصفة التعليمية، لكنه كان شيطانا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، لقد ارتبط بحثالة المهجع اجتماعيا، وأبى أن يعالج أي مريض حتى لو مات، لم أر في حياتي شخصا يحمل هذا الكم من الحقد.. بعد أن دخلت المهجع (٢٠) حاولت أن أبني جسرا من الصداقة معه، وبالرغم من نصيحة بعض الإخوة بألا

أفعل، لأن ذلك مضيعة للوقت إلا أنني كنت أحسب أن الله – سبحانه – قد آتاني قوة حجة، وشخصية ترتاح لها الأنفس (أستغفر الله، لم يكن يجدر بي أن أتكلم عن نفسي بهذه الطريقة). وبعد أن جلست معه ساعات طوال، وحاورته.. واستمعت إليه حتى النهاية، وأجبته عن كل تساؤلاته، وطرحت عليه أيضا أسئلة، ولم يستطع الهروب من الحقائق التي واجهته بها، بالرغم من كل محاولاته التملص، واعترافه أخيرا بأن كل ما قلته له حق.. إلا أنه لم يلتزم ولم يخضع للحق.. إنها مشكلة في عالم الإنسان أن يبلغ هذا المبلغ من العناد والحسد واللؤم والحقد..

* * 63 * *

كان المهجع عشرين من المهاجع الكبيرة من حيث المساحة وبعد انتقال عدد من أفراد المهجع إلى مهجع آخر لقاء مبلغ من المال أصبح عددنا قليلا فقرر المساعد نقلنا إلى مهجع آخر.

جهزوا أنفسكم.. بعد ساعات كنا في طريقنا إلى الباحة الأولى.

أدخلونا إلى المهجع رقم (٣). وهناك التقينا بأفراد المهجع الذين كانوا بجوارنا (١٩) وكان من بينهم شاب من قريتي اعتقل قبلي بثماني سنوات. جلسنا نتحدث عما وصلنا من أخبار، وفي اليوم التالي طلبوا من أفراد المهجع (١٩) الخروج من المهجع.. وبعد أن خرج هؤلاء

أدخلوا إلينا أفرادا من مهجع آخر، أخبرونا بأنهم هم أفراد هذا المهجع بالأساس، ولكن نقلوا منه هذه الساعات من أجل ابتزاز مبلغ من المال، فقد دفعوا أكثر من ١٥ ألف ليرة حتى أعادوهم إليه، لأن المهجع الذي وضعوهم فيه هذه الساعات كان سيئ التهوية فأعادوهم إلى مهجعهم ووضعوا أفراد المهجع (١٩) مكانهم.. (في المهجع (٤) الذي كان بجوارنا)..

كان المسؤول الصحي (في مهجعنا الجديد) يجود بالمال والدواء على المساعد والرقباء، لذلك كان يلقى معاملة خاصة نسبيا..

في هذا المهجع سأتعرف على أناس طيبين جدا، أما الأشرار فقد نقلوا من المهجع لقاء مبلغ من المال، ولكن هذا لا يعني أن كل من بقي في المهجع جيدا، ولكن البعض أقل سوءا من الذين نقلوا.

بعد نقل السيئين ساد ارتياح كبير في المهجع، ولكن كان هناك تفاوت في الآراء بهذا الخصوص، إذ اعترض البعض على هذا الإجراء قائلا: ألا يكفي المهجع الذي نقلوا إليه ما فيه من حثالة حتى نضيف إليهم عبئا آخر؟ وكيف نتخلص من بلائنا لنصبه على إخواننا؟ ولكن – سبحان الله – يبحث المرء دائما عن مبررات يبرر بها تصرفاته، إلا قلة ...

بعد أيام من استقرار المهجع سيحدثنا أفراد المهجع عن حجم الإساءة والإجرام الذي كان يمارسه من نقلوا، وكم كانت وطأتهم ثقيلة؟

كان هذا المهجع منقسما على نفسه، فهناك تياران أساسيان بينهما صراع بارد، ويتعاملون فيما بينهم بدبلوماسية وتحفظ، وكل فريق ينتقد الآخر خلف الكواليس _ في جلساتهم الخاصة – بعيدا عن المناصحة الأخوية، فتسود الغيبة والنميمة، فتفسد الجو الإيماني وتلوث الهواء الاجتماعي، في مثل هذا الجو من الأفضل للمرء أن ينأى بنفسه إذ بعد الدراسة والمراقبة والرصد يتبين أن خلف هذا الصراع تكمن أمراض نفسية ولم يعد بإمكان الفرد من كلا الفريقين أن يميز ما هو مبدئي عما هو نفعي، وما هو لله وما هو للنفس..

ولكن بالرغم من محاولة المرء النأي بنفسه في هذا الجو الموبوء، لا بد أن يحسب المرء على أحد الفريقين مهما حاول، لأن الظنون والشكوك تبقى سيدة الموقف، إذ لابد للمرء أن يقيم نوعا من العلاقات مع بعض الناس، فإذا أقام علاقة مع بعض أحد الفريقين سيحسبه الآخرون على ذلك الطرف شاء أم أبى، لذلك يحتاج المرء إلى مزيد من ضبط النفس والضغط على الأعصاب، وتوجيه البوصلة باتجاهها الصحيح بين حين وآخر..

إن من الأمور التي أدركتها أن الزعامات الفارغة تُخفي – دائما – وراء الشعارات التي ترفعها، أو الذرائع التي تمثلها – سلا نفسيا أو سرطانا اجتماعيا أو إيدزا شخصيا..

إن الإنسان المعافى يسعى دائما إلى إصلاح ذات البين وراحة الناس، أما أولئك المرضى فلا يسعدهم بحال أن يروا الناس بخير!!

للأسف، إن من يسعى إلى إقامة علاقات متوازنة سيعاني من شبه عزلة، ولكن لا بأس، يكفيه راحة الضمير والاطمئنان النفسي، والانسجام مع تصوره ومبدئه وغايته في إرضاء الله – سبحانه –..

* * **64** * *

بالرغم من هذا الجو الذي تكلمت عنه، فقد كان يوجد أناس طيبون جدا، لكنها فترة السجن الطويلة والمريرة التي فعلت فعلها في النفوس.. إن بقاء الأشخاص مع بعضهم سنوات طويلة كشفت كل عيوب الأشخاص وأمراضهم النفسية، فها قد مضى على وجود الناس في المعتقل الرهيب ما يزيد على سبعة عشر عاما بالنسبة لغالبية أفراد المهجع.. إنه حكم الطغاة وشريعة الظالمين.. أعوام طوال ولا يوجد ما يملأ الفراغ ويشغل الناس.. إن البعض يملأ بعض الساعات في مراجعة المخزون القرآني والعلمي في الذاكرة، والبعض في خدمة الناس داخل المهجع، والبعض عبء على المهجع بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وما ذا بعد ذلك؟ إنه الفراغ الذي يقتات على الصحة النفسية والأخلاقية عند البعض.. فليس جميع الناس بنفس المستوى التربوي والأخلاقي.. الفراغ، والفراغ الطويل والطويل جدا الذي يتحول إلى وحش أو داء إذا لم يحسن المرء التعامل معه وتوظيفه بشكل إيجابي بناء.. منذا الذي يملك تلك

التربية العالية والخشية والتقوى التي تصونه عن الخوض في مستنقع هذا السجن الظالم العفن؟ اللهم فرج.. يا رب.

في هذا المهجع سأتعرف على شاب (حموي) دخل السجن وعمره ستة عشر عاما، وها قد مضى على وجوده في السجن خمسة عشر عاما.. دخل السجن طفلا وبعد شهور سيخرج منه رجلا!! لقد نال هذا الحكم المخفف لأنه كان حدثا حين اعتقاله، فيكفيه هذه المدة في عرف الطغاة المجرمين، ولو كان عمره أكثر بعامين أو ثلاثة لكان حكمه الإعدام أو المؤبد على الأقل.. لا لذنب اقترفه وإنما لاعتقاله خلال مجزرة (حماة) الرهيبة.. كان هذا الشاب ذا أخلاق عالية ومواهب متعددة، ففضلا عن ذكائه وذهنه الوقاد، كان شاعرا ورساما وخطاطا، بارعا في هذه المواهب، نال درجة عالية في امتحانات الشهادة الإعدادية.. أخبرني هذا الشاب أن المجرمين أخرجوه مع والده ثلاث مرات لإعدامهم ميدانيا أثناء المجزرة الكبرى التي ارتكبها حافظ أسد في (حماة) عام اثنين وثمانين.. لقد أراد المجرمون لهم الموت، وأراد الله – عز وجل – لهم الحياة.. فكان في كل مرة أراد فيها أزلام الطاغية المجرم إعدامهم يأتي من ينقذهم من رصاص المجرمين الحاقدين..

في هذا المهجع، أيضا، سأتعرف على صنف من الناس سبق أن خبرته، ولكن ليس بهذه الفظاعة.. إنه الصنف الذي يحيك الدسائس

مستغلا بعض النفوس لتنفيذ مآرب ليس وراءها سوى الحسد والحقد وحب الرئاسة والظهور على أكتاف الآخرين..

سبحان الإله العظيم ستار العيوب.. لو كشف النفوس على حقيقتها لرأينا من حولنا ذئابا وثعالب وخنازيرا وقرودا وببغاوات و ...... ولكن من لطف الله – سبحانه – وجميل ستره علينا أن اختص بعلم السرائر، فله الحمد – سبحانه –..

وكان في هذا المهجع أيضا شاب طيب ونشيط، وعنده طرافة متميزة، فعندما يقص حكاية ما يصوغها بطريقة جذابة مع الحذف والزيادة التي تشد المستمع.. حدثني هذا الشاب عن الزيارة الأولى له، فقال: عندما دخلت على أهلي وسلمت عليهم، سألت عن جدي، فأجابوني أنه قد مات. ولم يحضر لزيارتي أخوان لي، فسألت عن أحدهم، فقالوا: لقد مات.. ثم قال: قلت في نفسي (لا تسأل يا رجل عن أخاك الآخر، لأنك لو سألت عنه فسيقولون لك: مات.. ولم أعد أتحمل ذلك)، لقد قص هذا الخبر المأساوي بطريقة تحمل المستمع على الضحك أكثر مما تثير في نفسه الحزن..

كما حدثني الإخوة عن شاب تركي كان برفقتهم في هذا المهجع، هذا الرجل كان أفاقا.. دخل السجن بسبب ضبطه يهرب أشخاصا من وإلى تركيا لقاء مبالغ مالية، كان نفعيا وصوليا، ثم تاب، وقبل أن يتوب كان بحوزته بعض النقود، اشترى بها بعض الألبسة واللوازم

مما يحتاج إليه السجين، بالإضافة إلى بعض علب السجاير، وكان يوجد في المهجع ضابط برتبة ملازم أول في جيش حافظ أسد العقائدي، كان هذا الضابط من أم نصيرية، وهذا الضابط كان من حثالة الناس شأنه في ذلك شأن غالبية جيش حافظ أسد، عبارة عن حثالة من المرتزقة والمنافقين والوصوليين والانتهازيين.. جاء (هذا الضابط) مرة إلى هذا الشاب التركي وطلب منه علبة سجاير..

– سأله التركي (وكان يعرف الإجابة): هل عندك نقود؟

– أجاب الضابط: لا.. كان الشاب التركي ذكيا يعرف نفسية كل شخص في المهجع..

– إذن كيف ستحصل على السجاير؟

– اطلب ما تريد..

– فكر التركي قليلا، ثم قال: أريد أن أشتريك بهذه السجاير، هل تبيعني نفسك؟

– نعم ...

– معنى ذلك: أن تصبح ملكي وأفعل بك ما أشاء..

– موافق..

دعا التركي شابين من المهجع ليشهدا على عملية البيع والشراء، قائلا أمامهم:

– لقد اشتريت هذا الشخص بعلبة سجاير، صحيح؟

– صحيح..

– موافق؟

– موافق..

ثم خاطب الشابين: اشهدا..

مد يده إلى داخل كيس، وأخرج منه علبة سجاير، ثم ناولها للضابط العتيد، وقال له:

– أنت الآن ملكي..

– نعم..

– اذهب إلى الحمام واغتسل.

ذهب الضابط إلى الحمام، وبعد أن خلع ثيابه ووضعها على حائط الحمام، ذهب التركي وأخذ الثياب ليبيعها، ثم التفت مخاطبا من في المهجع: لقد أعتقته، لأني لست بحاجة إلى هذه القذارة.. بالطبع لن يترك السجناء هذا الرخيص يخرج من الحمام بدون ثياب، فجمعوا له قطعة ثياب من هنا وأخرى من هناك ووضعوها على حائط الحمام..

تاب الشاب التركي بعد ذلك، وأصبح من خيرة الناس تضحية وسلوكا في المهجع.. وقد خرج من السجن بعد أن أمضى أعواما طوالا في مضافة حافظ أسد..

وأخبرني أحد الإخوة أنه عندما زاره أهله لم يعرف زوجته ولا حتى والديه فقد جاءته الزيارة الأولى بعد أن أمضى حوالي ثمانية

عشرة عاما وقد أصبحت ابنته الوحيدة التي تركها في نفس عمر زوجته حين تزوجها!! ... لقد دارت عجلة الحياة بشكل خيالي، ونحن حيث نحن، لا نحس بتقدم الحياة أو تطورها خلف القضبان .... لقد غطت المعاناة الرهيبة كل مساحات الشعور في عالمنا الضيق الرعيب ...

* * 65 * *

بقيت آلة السلب والنهب دائرة، وكل يوم يتفتق ذهن المساعد عن حيلة جديدة لسرقة أموال السجناء على قلتها، ولكن في مجموعها تصبح ملايين مما أسال لعاب اللصوص (مدير السجن ومساعده)، فيوما يطلب منا تسجيل فاتورة خضار. ويوما مواد متنوعة من بيض وزيت وطحينة، و .... ومرة فاتورة كهرباء وآخر فاتورة ماء، وهكذا ... وادفع عشرة آلاف يصبح تفقدك داخل المهجع، وخمسة عشر ألفا تنتقل إلى أي مهجع تختاره ...

في أواخر عام ثمانية وتسعين بينما كان أحد الشباب ينظر من ثقب الباب، التفت إلينا وقال: يا شباب، يوجد ضابط جديد، وحركة الشرطة والرقباء تغيرت تماما.. بعد أيام قليلة، دخل علينا المساعد وطلب منا الجلوس، ثم قدم الصف قائلا: المهجع جاهز سيدي العقيد..

إنه مدير سجن جديد، ولأول مرة يدخل المهجع مدير سجن. ما هذا التحول المفاجئ؟! ليس ذلك فحسب، بل بدأ الكلام بأسلوب

مختلف تماما. فقد قال العقيد (طلعت محفوض) – عرفنا اسمه فيما بعد – وأطلقنا عليه اسم (ابو الشوارب)، نظرا لطول شاربيه، قال: أنا أعرف أنكم لاقيتم ظلما كبيرا، وحتى الجدران التي تضمكم تحكي ما عانيتموه من ظلم واضطهاد، ولكن عليكم بالصبر فأبواب السجن لا تغلق إلى الأبد.. لا بد أن يأتي يوم تخرجون فيه من السجن لقد جئت لأدفع عنكم ما لحق بكم من ظلم وابتزاز، ومنذ هذه اللحظة إذا سرقكم أحد أو حاول ابتزازكم أخبروني مباشرة ... ثم خرج.

بعد أن خرج كانت الدهشة مرسومة على وجوه الجميع، وجلسنا نحلل الوضع الجديد.. بعد أيام قليلة اختفى المساعد المجرم (أحمد المحمود) بعد أن خلف وراءه سجلا حافلا بالإجرام والإرهاب ... ولكن ما سر هذا الاختفاء؟!

لقد شوهد فيما بعد سجينا في سجن صيدنايا، كما شوهد المجرم "غازي ديوث " أيضا، وقد قيل بأن سبب إيداعهم السجن هو ضبطهم في عملية تهريب للآثار من مدينة تدمر الأثرية.. ولكن هذا السبب لم يكن مقنعا لإيداع مدير سجن (نصيري) السجن بسبب تهريب آثار أو ما شابه، فنظام حافظ أسد اللصوصي المجرم لم يكن يعبأ بمثل هذه السرقات خاصة بالنسبة لأزلامه. ولكن هذا ما تسرب إلينا من الرقباء الموجودين، ولا يوجد عندنا مصادر أخرى لمعرفة حقيقية الأمر..

بعدما خرجت من السجن، التقيت بشخص كان يخدم في فرع الشرطة العسكرية، أخبرني هذا الشخص أن "غازي ديوث" قد أعدمه حافظ أسد، والسبب في ذلك هو تسريبه بعض المعلومات التي تتعلق بسجناء من الأردن كان حافظ أسد ينكر وجودهم.. وبالرغم من وجاهة هذه المعلومات ووزنها، لكنها تبقى غير مؤكدة.. فمصير هذا المجرم مع مساعده لا يزال مجهولا بالنسبة لنا، ولكن الذي لا شك فيه أن كل من رآهما خلف القضبان أبدى شماتة ظاهرة، كما اعترت سجناء تدمر حالة من الفرح والارتياح عندما علموا بنبأ سجنه..

* * 66 * *

كانت الفترة التي قضيناها بإدارة طلعت محفوض "أبو الشوارب" من أهدأ الفترات التي مرت علينا في سجن تدمر والأكثر أمانا والأقل إرهابا وتعذيبا ، حيث لم يعد ينزل الكرباج والدولاب إلى الباحات إلا في حالات نادرة وبإذن وموافقة مدير السجن ، ولا يكون ذلك إلا نتيجة مشاجرات يقوم بها حثالة السجناء ، فغالبية السجناء لم يضربوا ضربة واحدة منذ قدوم طلعت محفوض ، لذلك سادت حالة من الارتياح والاطمئنان مشوبة بالقلق ، إذ لا يمكن الوثوق بالنظام المجرم بأي حال من الأحوال ، وطالما نحن موجودون في سجن تدمر فمن الممكن أن تنقلب الأوضاع رأسا على عقب . وبالرغم من اجتماعنا بمدير السجن بضع مرات، ومحاولته طمأنتنا من خلال خطاباته، لكن ذلك لم يفلح في جعلنا نركن إليه ونطمئن..

تقدمنا ببعض المطالب، وخاصة فيما يتعلق بفترة النوم الطويلة، ولكنه لم يستجب لنا، بل على العكس أصبحت اثنتا عشرة ساعة، صيفا شتاء..

قلت السرقات إلى حد كبير، وأصبح التعامل مع إدارة السجن أكثر أريحية، وقلت زيارة الشرطة عبر الشراقات إلى حد كبير، فنادرا ما يأتي الشرطي، ويخاطب أحدنا عبر الشراقة أو يقذف بالشتائم، وأثناء الزيارات يخرج السجين ويعود دون أن يمس بأذى. كما أصبحت الفواتير تصلنا كاملة وبأسعار مقبولة.. فقد استطاع مدير السجن أن يملأ جيبه من خلال المهاجع التي اختصت بالأعمال الفنية، كما حدثنا عن ذلك بعض الشباب الذين كانوا موجودين في تلك المهاجع.. وهكذا مضت الأمور بشكل رتيب في جو يغلب عليه الأمن والارتياح..

في أحد المرات، جاء مدير السجن "طلعت محفوض" إلى الباحة الأولى وأخرجونا جميعا من مهاجعنا، وجلسنا على أرض الباحة، وبدأ مدير السجن يلقي خطابا، وبدا لنا أنه مولع بالخطابات فتحدث عن "أبي المكارم" "حافظ أسد" ""!! هكذا أحب أن يسميه، فأطلقنا عليه لقب " أبا المكارم " وبدأ يعدد مكرمات (حافظ أسد) الخنفشارية . ودائما عندما يتحدث أزلام النظام عن رئيسهم ونظامه، يتجنبون المقارنة مع أقل دول العالم تقدما، لأنهم لو نظروا بهذا المنظار لرأوا أن

زعيمهم الأوحد يحكم بلدا في قاع التخلف، ولشاهدوا رئيسهم يتربع قمة الفساد والاستبداد..

يتكلم الأزلام عن مكرمات قائدهم وكأنه يبني المدارس والسدود من جيبه الخاص، متناسين أو متجاهلين مقدار السلب والنهب الذي مارسه حافظ أسد وبطانته على مدار سنوات حكمه، وضحالة الرواتب ومستوى الفقر الذي يعيشه غالبية أبناء الشعب السوري..

بدأ مدير السجن العتيد يتحدث عن البيضة التي تصلنا كاملة، وقد كرر هذا الكلام أكثر من مرة في أكثر من خطاب وعن ثلاثة أرغفة من الخبز وعن كمية الطعام.. وهكذا..

وقف أحد الأخوة، ويدعى " خالد الشامي " المعروف بجرأته وتضحيته وأخلاقه العالية وبذله وكرمه ودبلوماسيته، وقال مخاطبا مدير السجن: نحن لا نريد البيضة، ولا نريد الطعام.. نحن نريد أن تتعاملوا معنا كبشر.. هل من المعقول أن ينام المرء اثنتا عشر ساعة في مضافة أبي المكرمات، وألا يسمح للسجين خلال هذه الفترة الطويلة من النوم أن يخرج لدورة المياه ليفرغ مثانته.. و..و...و.. وقدم عدة مطالب، لكنها لم تلق أذنا صاغية، إذ كانت سياسة السجن مرسومة من عند الطاغية الجبان الأكبر وأركان نظامه في أجهزة القمع والإرهاب.. ومع ذلك تعتبر هذه الطلبات وهذا الاحتجاج نقلة نوعية في تاريخ هذا السجن الرهيب..

* * 67 * *

صباح يوم العاشر من حزيران (٢٠٠٠) نظر أحد الشباب من ثقب الباب فأخبرنا أن أمرا غير عادي قد حدث، فالحراس على السطح يتجولون اثنين اثنين، وقد لبسوا على رؤوسهم الخوذات الفولاذية، ومعهم البنادق. إنها حالة استنفار غير عادية. ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟! لا أحد يدري..

بعد عصر ذلك اليوم أعلن عبر مكبرات الصوت في المساجد أن حافظ أسد قد مات، وبدأت تتلى آيات القرآن الكريم عبر المساجد، ولكن بصورة أقل زخما بكثير مما حدث يوم موت "باسل".

في هذه المرة لم نبتهج كثيرا بهذا الخبر، ويعود ذلك لعدة أسباب، فموت حافظ أسد كان متوقعا بين يوم وآخر، وذلك من خلال رؤية صوره التي تنشر في الجرائد، فقد أصبح عظما على جلد كما يقال، وكان يلبس في صوره طاقية، كنت أتمنى دائما أن يظهر بها.. كان يبدو فيها شيطانا رجيما ومجرما عاتيا ولصا في غاية القذارة..

من ناحية أخرى كان يتمنى أغلبنا أن يكون الميت في هذه المرة (بشار) الذي أخذ دور (باسل) في وراثة العرش الدموي الإجرامي الطاغي..

وثالثا كنا في فترة رخاء في السجن مقارنة مع ما سبق من الأعوام السوداء المظلمة المليئة بالمآسي والإرهاب..

نظرت في الوجوه، لأرى ردة الفعل، فلم أقرأ الفرحة المتوقعة، قلت لبعض إخواني " يا شباب افرحوا، هل تريدون هذا النظام المجرم أن يقطع عليكم فرحتكم.. لكن جو السجن لم يوح بأن شيئا سيتغير..

بعد أسبوع من إعلان وفاة الطاغية المجرم أدخلوا علينا الجرائد التي منعت من الدخول بعد إعلان الوفاة، فإذا بها تتضمن على صفحتها الأولى صورة كبيرة لبشار وقد ارتدى فيها البدلة العسكرية برتبة فريق.. لقد انتسب بشار إلى الجيش عام (٩٤) إثر وفاة أخيه المجرم باسل. ما هذا الترفيع الأسطوري والقفزة الخيالية !!، يا للسخرية!!! لقد ظهرت الأمور أخيرا على حقيقتها، فكل من كان حول حافظ أسد ليسوا سوى مجرد حمير يمتطيها للوصول إلى ما يريد، ودمى يحركها كيف يشاء.. يا للقرافة! كم بدا هؤلاء الأشخاص قزما مهازيلا أمام طاغية جبار؟ كيف يرضى شخص لنفسه كل هذه المهانة والإذلال؟ ليس أحد يرضى بذاك سوى أولئك الذين عاشوا في كنف حافظ أسد يلتقطون الفتات ويدورون حول (حافظ أسد) قردة وخنازير، بغالا وحميرا..

(بشار) سيحكم بعد أبيه، لا للمؤهلات التي يحملها فليس عنده من المؤهلات شيء يرقى به إلى أن يحكم بلدا كسوريا، ولا قنا للدجاج..

ليس عنده شيء سوى أنه ابن حافظ أسد، ومن خلفه طغمة مجرمة تمسك بمقاليد الأمور في سراديب القمع والإرهاب، تلك التي تسمى

بالأجهزة الأمنية، بالإضافة إلى عصابة من المنتفعين والوصوليين والانتهازيين..

مجموع هؤلاء كانوا وراء إيصال (بشار أسد) إلى وراثة عرش أبيه ليكون الواجهة المقبولة التي يختفون وراءها حسب زعمهم، لذلك استمرت عملية التلميع والتزويق والكي والتطريز والصبغ والمكياج، وكل الإكسسوارات لهذه الشخصية الهزيلة الكاريكاتيرية التي أحضرت من لندن لمهمة لم تكن معدة لها مسبقا، ولم يحسب لها حسابا حتى توفي الشقيق..

حين شاهد السجناء الجريدة أسقط في أيديهم رغم أنهم كانوا يتوقعون ذلك، ولكن عملية الترفيع الخيالية لم تخطر لهم على بال، فهم كانوا يشاهدون (بشار) وهو يقلد الرتب العسكرية كل عام برتبة جديدة أو أكثر، ولكن أن يرسم على كتفيه هذه الرتبة الكبيرة جدا على مقاسه والفضفاضة إلى أبعد حد، فهذا شيء صادم..

في الوقت نفسه، وهذا ما علمناه فيما بعد، أنه في مجلس الدمى المعروف زورا وبهتانا بـ "مجلس الشعب" عدل الدستور ليناسب مقاس بشار..

كان السجناء يتوقعون بين ساعة وأخرى قرارا بالعفو عن جميع المعتقلين، فمن الطبيعي والمنتظر أن يفتح النظام الجديد صفحة جديدة مع شعبه قائمة على المصالحة والتحضير لمرحلة أكثر انفتاحا على الناس..

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، فالنظام البوليسي الإرهابي القمعي بقي على حاله، ومضت الأمور بكل تفاصيلها، كما كانت من قبل. إن شيئا ما لم يتغير سوى صورة الرئيس الذي كان ضعيفا أمام طغمة إرهابية قمعية ملأت الفراغ الذي تركه الطاغية الجبار الذي كان يسيطر على كل مقاليد الأمور، وبدا الابن دمية تمسك بخيوطها أجهزة القمع "المخابرات".

بعد أسبوع جاءت "اللجنة" ليعرض عليها السجناء الذين يتوجب عليهم إعلان التوبة وإظهار الندم وتقديم الولاء للنظام المجرم حتى يوقع على إخلاء سبيلهم. ومن اللحظة التي أعلن فيها عن مجيء اللجنة وبدأت الاسماء تقرأ على المهاجع أدركت أنني سأكون من الذين سيتثنون من الخروج من وراء القضبان وسأبقى رهين الجلادين، وقلت لبعض إخواني: إنني لن أخرج من السجن لأن مجرد مجيء اللجنة يعني أن أناسا سيخرجون وآخرين باقون..

بدأ السجناء يعرضون على اللجنة مجموعة إثر مجموعة، ثم يعادون إلى مهاجعهم، وكانوا عندما يرجعون إلى المهجع يتحدثون عن مقابلتهم والأسئلة التي طرحت عليهم، وردود فعل اللجنة، ومدى تفاؤلهم أو تشاؤمهم من هذه المقابلة الهزيلة في شخوصها وتقييمها، ويبقى الشيء الوحيد الذي اتفق عليه غالبية من عرض على اللجنة هو: أن وجوه أعضاء اللجنة وجوه أناس مجرمين تفيض لؤما ونذالة، وترشح خسة وشرا.. فهي خالية من الحياة، قاسية الملامح، كالحة،

جدباء، مظلمة، لا ماء فيها ولا رونق.. تخفي في تضاريسها عالما من الإجرام، حيث يغيب كل ما يمت للإنسانية بصلة.. قد تبصر فيها بعض صفات الأفاعي والذئاب، وتزكم أنفك رائحة الخنزير، ويمثل في مخيلتك بعض حركات وتصرفات القرود! ! ولكن أين الإنسان؟ غاب كل معنى للإنسان....

كنت في الدفعة الأخيرة التي ستعرض على اللجنة، وبالفعل كما كنت متوقعا، فبعد أن وصلت إلى الباحة، وجاء دوري، أعادوني إلى المهجع دون أن أعرض على اللجنة – ولله الحمد– بعد أن دخلت إلى المهجع تقدم مني بعض الإخوة، قائلين:

– هيه.. ماذا سألوك؟

– أجبتهم مبتسما: لم يجرؤوا على مقابلتي..

– ماذا؟! !

– كما قلت لكم، لم يجرؤوا على مواجهتي، وأعادوني إلى المهجع دون مقابلة..

بعد ذلك بقليل سيطرت على نفسي حالة من الحزن العميق، لقد بدا لي أن رحلتي في عالم السجون لا زالت طويلة وأن سنوات طوال ستظل تفصلني عن أهلي وأحبتي.. مات حافظ أسد، ولكن شيئا لم يتغير فالوجوه هي هي والظلم والإرهاب هو هو.. في هذه الحالة تراءت لي صور أمي وأبي وزوجتي وأولادي وإخوتي وأخواتي تلفهم عباءة من

الحزن وتحيط بهم ضبابة من اليأس، فملأت الدموع عيني، فوضعت يدي على ركبتي وأسندت جبهتي عليها لئلا يلحظ أحد أساي.. إذ كنت في كل زيارة أقول لهم: قريبا إن شاء الله سأخرج من السجن، فماذا سأقول لهم الآن، وقد كان موت حافظ أسد نافذة الأمل الوحيدة التي أتنفس منها عبق الأمل؟، فها قد مات حافظ أسد ولم أخرج.. فكيف سأخرج وأنا المحكوم بالمؤبد الثقيل؟

كان من حولي بتحدث بأريحية ويحلل ويتوقع، أما أنا فكنت ألوذ بالصمت إلا من بعض العبارات التي تشحذ همم بعض المتشائمين من مقابلتهم. لقد كان البعض متشائما، والبعض الآخر متفائلا أكثر من اللزوم..

* * 68 * *

سينشغل الناس باللجنة أياماً وأسابيع، يترقبون خلالها أن يطل الرقيب بقائمة من الأسماء يخرجون إثرها إلى أهليهم، وبدأوا يحللون ويتوقعون فهناك مناسبتان قادمتان قريباً، الأولى انعقاد المؤتمر القطري الذي سيتم عبره إيصال بشار إلى هرم الحزب الحاكم "صورياً" والثانية أداء القسم الرئاسي.

مرت المناسبة الأولى والثانية ولم يخرج أحد من السجن، فبدأ اليأس يتسلل إلى نفوس الكثيرين ممن يأملون بالخروج ومضت إثرها أسابيع

وشهوراً حتى جاءت ذكرى ما يسمى الحركة التصحيحية. كان البعض قد فقد الأمل تماماً......

بعد منتصف الليل ليوم الحركة التصحيحية جاءت قوائم الأسماء للمفرج عنهم. .... حافظ أسد لا يزال حاضراً بقوة في المشهد السياسي السوري، بل لا زال يحكم من قبره بلداً بائساً اسمه سوريا، فالمناسبة اليوم هي يوم انقلابه على رفاق دربه وحزبه وتسلمه زمام السلطة.

بعد أن قرئت الأسماء كانت هناك بعض المفاجآت، فبعض من قرئ اسمه كان لا يتوقع الخروج، لأن مقابلته مع اللجنة كانت سلبية، والبعض الآخر كانت مقابلته إيجابية ولم يقرأ اسمه.. لقد كان بعض الشبان قد أوصى بأغراضه إلى مقرب منه، فانقلبت المعادلة، فبقي هو وخرج صديقه.. ومهما كانت النتيجة، وكيفما سارت الأمور، فحالة من الفرح عمت أرجاء المهجع بخروج ما يقرب من نصف أفراد المهجع إلى ذويهم. فاضت الدموع من عيون بعض المفرج عنهم، كانوا يأملون بخروج إخوانهم معهم، ولكن........

تقدم مني عددٌ من الإخوة المفرج عنهم، وطلبوا مني أن أحملهم رسالة إلى أهلي.. شكرتهم على نبل مشاعرهم، ولكني طلبت منهم ألا يخاطر أحد منهم في زيارة أهلي. لأن ذلك قد يكلفهم غالياً، ولا حاجة للمخاطرة في ظل الظروف الدقيقة التي يمر بها السجين بعد خروجه من السجن.. فالسجين بعد خروجه من المعتقل يبقى تحت مراقبة أجهزة القمع، وتحت أنظار المخبرين، وإحصاء كلماته ونظراته وأنفاسه.

* * 69 * *

بعد خروج كل دفعة سيبقى بعض السجناء يذكرون بعضاً من إخوانهم الذين كان ظلهم خفيفاً، وتركوا من ورائهم ذكرى عطرة من خلال سلوكهم النظيف وأخلاقهم العالية وتفانيهم في خدمة إخوانهم في حين سيسود الارتياح الضمني نتيجة خروج البعض الآخر الذين كانوا يحاولون إثارة الفتن والضغائن والمشاكل نتيجة الحسد الذي سكن قلوبهم والغل والحقد الذي تفسخ في جوانحهم.. نعم لقد ارتحنا من خروج هؤلاء من بيننا، ولن نتمنى ان نلقاهم يوماً ما.. ومهما يكن من أمر فيبقى أمر خروج كل معتقل سواءً كان نبيلاً أو خبيثاً شيئاً مريحاً.

فاتني أن أذكر أن في المهجع (٣) كان بيننا شاب ذهب قسم من عقله تحت سياط الجلادين، ويدعى عبد الرزاق "عبدو" هذا الشاب كان جنونه طريفاً جداً فقد كان محبوباً جداً من غالبية أفراد المهجع.. كان كل من في المهجع يريد أن يحتك به ويمازحه، فقد كان خفيف الظل ذا دعابة طريفة، كنت أسميه "(تلفزيون المهجع") ... وكان هناك من يمازحه بلطف والبعض الآخر كان سمجاً في مزاحه... كان "عبدو" يتحمل الجميع، وكم كان حليماً واسع الصدر ؟!، فعلى امتداد النهار، والناس جيئةً وذهاباً يمازحونه ويتثاقلون عليه، وهو يتلقى كل ذلك

بابتسامة جميلة.. يا إلهي، إن أحداً ممن يسمى العقلاء بيننا لن يصبر على عشر ما كان يتعرض له هذا المريض، فمن منّا المجنون؟!

كان "لعبدو" مصطلحاته الخاصة، كما كان يبدو في كثير من الأحيان ذكياً متقد الذهن حاد الذاكرة، فهو لا يزال يذكر الكثير الكثير من محفوظاته (الشعر والطرفة) ويذكر أيضاً الكثير من أحداث السجن. لكنه كان قليل الكلام ذو صوت وأداء عذب إذا أنشد بعض الأناشيد، بالإضافة إلى أنه شجاع..

لم يعتمد "عبدو" على أي كان خلال الفترة التي قضاها معنا والتي تمتد إلى ما يقرب من ثلاثين شهراً

ولكن "عبدو" هذا الطاهر المسكين النبيل الذي لم يرتكب ذنباً واحداً ولا أساء لأحد سيكون صفحة عابرة يطويها النسيان إثر خروجه من المعتقل الرهيب..

إن أحداً لن ينظر بهذا المنظار إلى "عبدو" الذي لم يعص الله – عزَّ وجلّ – خلال الشهور والسنوات التي أمضاها في سجن تدمر الإرهابي، وربما لن يذكره أحد، وإذا ما طفا إلى سطح الذاكرة كقشة لا قيمة لها فلن يذكر إلا على أنه "مجنون"، فريد في جنونه، وستغيب عن الذكر كل الصفات النبيلة المتأصلة في نفسه.

* * 70 * *

بعد أيام من خروج الدفعة الأخيرة، ضموا لمهجعنا ثمانية معتقلين، جاؤوا بهم من الباحة الرابعة وبالتحديد من المهجع (٢١) كان من بينهم أخ من مدينة (الرستن)...لقد امتاز الإخوة في الرستن بالطيبة الشديدة، والمعدن الأصيل. كانوا من خيار الناس في السجن، وبالرغم من أن شكل هذا الأخ لا يوحي بأنه مثقف، فالمفاجأة كانت في أنه عالي الثقافة وشاعر. كما كان هادئاً صبوراً متزناً في أقواله وأفعاله.. كما كان من بين الأفراد الثمانية أخ شيشاني الأصل، كان شخصية فريدة، يعشق العمل، ويتمتع بحيوية عالية، يعمل منذ الصباح حتى المساء، ونظراً لنشاطه فقد كان يحرق كثيراً، وبالتالي يحتاج إلى مزيد من الأكل، فكان أكولاً.. كان يقول: أحب الشغل والأكل. كان لا يوفر شيئاً من الطعام ويأكل ما يقدم إليه حتى الذي يزيد عند الآخرين، كان يأكل حتى الطعام الخام، لذلك كان كثيراً ما يصاب بالإسهال.. ومرة كان يخبئ صحناً من الطعام، وفي الصباح على مائدة الفطور أحضر الصحن فإذا به قد أصابه الفساد. قال له شريكه: إنه خام.. رفع "أبو جنيد" الشيشاني الطعام إلى أنفه، ثم أجابه: لا، ليس خاما.

عاد شريكه فرفع الطعام إلى أنفه، وقال: يا أخي إن رائحته ظاهرة. فأجاب "أبو جنيد": الطعام سليم وأنا سآكله وأنت حر.

أجابه شريكه: إن رأسك صلب كهذا الحائط. ثم التهم "أبو جنيد" طعامه دون اكتراث..

كان " أبو جنيد" ينشر غسيل المساجين على الحبال، ويغسل ثياب بعض السجناء، ومنهم كاتب هذه المذكرات، تحية لأبي جنيد على همته العالية وحبه لمساعدة الآخرين وطيبة قلبه.

وقبل خروج دفعة إخلاء السبيل بما يزيد عن عام كانوا قد أدخلوا علينا أيضاً شخصاً مصاباً بإيدز نفسي ، لم تفلح كل وسائل الدعوة وجميع أشكال الحكمة في إصلاحه ،وللأسف فقد كان شقيقاً لأحد قيادات الإخوان في الخارج والمعروف بأخلاقه العالية ، ولكن " لاتزر وازرةٌ وزر أخرى " كان هذا الشخص بلاء نزل على المهجع ..ثم أدخلوا علينا شخصاً آخر كان يشكل مشكلة في مهجع آخر ، وكأن مهجعنا أصبح مكباً للنفايات نظراً لعلاقة المسؤول الصحي الجيدة مع إدارة السجن ، وبدلاً من أن تنعكس هذه العلاقة على المهجع بشكل إيجابي أصبحت كابوساً حلَّ علينا.

وبالمناسبة، كان لابد من التنويه أن إدارة السجن من المساعدين والرقباء وكبير القوم فيهم كانوا لا يعترفون بالجميل، بل من أشد ناكري المعروف.. فمهما كانت الخدمات التي تقدم لهم كانت لا تقابل منهم بالشكر. وبالتالي فبمقدار ما يكون المهجع بعيداً عنهم وقليل الاحتكاك بهم كان يحظى بالارتياح وراحة البال على عكس المألوف عند الناس.

إنها الطبيعة النكدة لنظام مجرم لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.. أركانه ورموزه طائفية مجرمة حاقدة لئيمة نذلة جبانة، أعوانها لا تقل قذارةً عنها بل تزيد فهم أذناب لأولئك، فكيف سيكونون؟!

* * 71 * *

في أحد الأيام دخلت علينا جريدة، وفي أحد زواياها إعلان عن: أن رئيس المكتب السياسي لحركة حماس خالد مشعل سيلقي محاضرة في مدينة حلب عن " حافظ أسد". كان هذا الخبر مؤلماً جداً لنا، فمعظمنا يكن الحب العظيم لحركة حماس ورموزها، لأنهم إخواننا وجزء من حركتنا، ثم لجهادهم وحركتهم ونضالهم وفعاليتهم على الساحة.. كنا ولا نزال نقول: نحن حماسيون، وأنا بالذات أقول: أنا حماسي حتى العظم، لأنني كنت أرى في حماس أكثر أجنحة الإخوان المسلمين التزاماً وتمثلاً بدعوة الإمام البنا الوارث النبوي والعالم الرباني والمجدد الحقيقي لدعوة محمد بن عبد الله – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم..

تقدم مني أحد الأخوة ويدعى " عبد المجيد " فقال لي: ألم يكن الأفضل لخالد مشعل أن يبقى في فلسطين ويرمي الحجارة في وجه الصهاينة المحتلين بدل أن يأتي إلى سوريا ويلقي محاضرة عن الطاغية المجرم حافظ أسد؟

كانت كلمات الأخ " عبد المجيد" تخرج من قلبه مفعمة بالمرارة، وبالرغم من الألم الذي سكن في قلبي، وغصَّ به حلقي إلا أنني قلت للأخ: علينا أن نلتمس له عذراً.

قال لي: لا.. ليس هناك أي مبرر، وليس مجبراً على هذا السلوك. فلئن كان قد نسي أن الجزار قد ذبح إخواناً له في سوريا، ونسي أن له إخوة معتقلين قد أمضوا أكثر من عشرين عاماً في سجون حافظ أسد، فعليه ألا ينسى " تل الزعتر "، وان هذا النظام المجرم لم يكن يوماً ما يعمل لأجل فلسطين، وإنما والكل يعرف بأنه يتاجر بالقضية الفلسطينية، وأن حماس وغيرها ليست أكثر من أوراق يلعب بها حافظ أسد.

كان الأخ " عبد المجيد " لم يتم المرحلة الابتدائية في التعليم، ولكنه كان يفهم في السياسة أكثر من " حافظ أسد " وكل حاشيته، شارك هذا الرجل في أحداث حماة، ومنها خرج إلى لبنان ومنها إلى العراق، وقضى أعوام غربته في مطالعة الكتب وسماع الأخبار من الراديو والتلفزيون.

كان " عبد المجيد " بارعاً في قراءة الأحداث وتحليل الأخبار، لم يكن الكثير من خريجي الجامعات يجارونه في هذا المجال. فكنت أسعد بالجلوس معه أكثر من جلوسي مع الجامعيين نظراً لعمق فهمه

وبعد نظرته.. عاد " عبد المجيد " إلى لبنان وهناك اعتقلته أجهزة الإرهاب التابعة لحافظ أسد.

*   *   **72**   *   *

قلّ عددنا في المهجع وأصبحنا نتحرك براحة أكثر ونمارس بعض التمارين الرياضية وكنت أعاني من مرض البواسير، وأمضيت شهوراً أنزف، كان بعض الإخوة يشفق عليّ ومنذ أن يستيقظ في الصباح يأتي ليطمئنَّ عليّ، ومع نحافتي الطبيعية ازددتُّ نحافة وضعفا، ولم أكن أدري ما حلَّ بوجهي نظراً لعدم وجود مرآة. فلما كان يوم رحيلنا إلى سجن صيدنايا بمجرد أن ألتقي مع أي أخ من الإخوة القدامى و بعد العناق يسارع إلى سؤالي:

هل أنت مريض ؟ كانت عظام وجهي بارزة كما تبين لي بعد وصولي إلى سجن صيدنايا.

بالعودة إلى الفصل الأخير من سجن تدمر وبعد خروج آخر دفعة إخلاء سبيل، كنا نجلس ونحلل الأوضاع في بعض الأحيان، ثم تمضي حياتنا بشكل اعتيادي مألوف.. ثم جاءنا طبيب يجيد التحدث باللغة الانكليزية فأصبحنا نحضر جلسات محادثة، قويت لغتنا إلى حد ما وبقينا على هذا الوضع لعدة شهور.

كان معنا أخ من مدينة دمشق يندر أن تجد مثله في الطيب والنبل والأخلاق والبراءة حتى ليتساءل المرء: هل من المعقول أن يوجد إنسان بهذه البراءة في مدينة كـ (دمشق)؟! كان هذا الأخ مهندساً مدنياً ولكن له نفس طفل في براءته، ومن البساطة بمكان يصيب بالدهشة. مرة كنا جالسين معه نقرأ في الجريدة، ومن خلال اشارات إلى مرض حافظ أسد قبل أن يموت وتقييم وسائل الإعلام عن مرضه، قال " طريف ": لا شفاه الله، وكان قد مضى على موته شهور، فأطلقنا ضحكةً يكاد يكون لها صدى آه ما أروعك يا (طريف) . ! !

كما كان معنا أخ دمشقي آخر ، لم يتجاوز الإعدادية في تعليمه إلا أن ثقافته تفوق كل ثقافة الجامعيين الذين كانوا معنا ، فضلاً عن لباقته وأدبه ، إلا أنه كثيراً ما كان يتوجه بالنقد اللاذع لكثير من زملائه في جلساته الخاصة، كان بارعاً في أحاديثه وقصصه ، ولكنه كان متعصباً في رؤاه ، وربما يعود ذلك إلى نقمته على من كان سبباً في دخوله السجن بقضية لا علاقة له بها،مما قلب الميزان لديه وبدأ يقيس الأمور بمقياس خاطئ وينظر بمنظار مقلوب.

هكذا طبيعة السجن في وقت الراحة ينشغل المساجين ببعضهم سلباً وإيجاباً، إلا القليل منهم الذين تربوا على التعامل مع الأفكار لا مع الأشخاص.

* * 73 * *

في بداية الثلث الأخير شهر تموز ٢٠٠١ ، قوائم من الأسماء تقرأ على أبواب المهاجع، ظننا في البداية أنها دفعة إخلاء سبيل، ولكن تبين لنا فيما بعد أنهم قد نقلوا لسجن (صيدنايا)، وأن جميع سجناء تدمر، أيضاً سينقلون إلى السجن (الأمنية)، وسيغلق سجن تدمر تماماً كما أغلق منذ عام سجن (المزة) العسكري، وكانوا قد نقلوا بعضاً من معتقليه إلى سجن صيدنايا والبعض الآخر جاؤوا بهم إلى سجن تدمر ....

بدأنا نتساءل: ترى كم من الوقت سيستغرق ترحيلنا إلى سجن صيدنايا، بدأنا نترقب قدوم قوائم الدفعة الثانية على أحر من الجمر.

كانت قد وصلتنا فاتورة من المواد الغذائية قبل خروج الدفعة الأولى بحوالي أسبوع، وكانت فاتورة ضخمة، فقال " أبو محمد كريشان"، وكان يظن انه سيكون من اول الراحلين لان فترة محكوميته قد شارفت على الانتهاء: غداً نخرج ونترك لكم الأكل " طيس " ولا أعرف معنى هذه الكلمة بالضبط، لأني لم أسمع بها من قبل ويبدو من خلال السياق أنها تعني الشيء الكثير...

لكن أبا محمد كريشان بقي إلى آخر دفعة، فعندما قرئ اسمي في الدفعة الثالثة، وكنت أظن في نفسي أني سأكون آخر من يخرج من السجن، تقدمت منه، وقلت مازحاً: هنيئاً لك يا أبا محمد فها قد

تركت لك الأكل " طيس"، فرد قائلاً بحنق: الله يخرب بيتك يا (تركي علم الدين)، وكان هذا المجرم رئيساً لفرع ما يسمى بأمن الدولة، وهو الذي حكم على الأخ محمد كريشان.

بعد أسبوعين جاءت قوائم الدفعة الثانية. وكان من بين الأسماء الأخ المسؤول الصحي وهو صيدلاني من مدينة دمشق، وكان قد استلم رئاسة المهجع بعد خروج آخر دفعة إخلاء سبيل منذ تسعة شهور، تقدم مني وقال: استلم انت رئاسة المهجع، وكان يخشى أن يتسلط أحد الأفراد السيئين على من بقي في المهجع. لاقى استلامي لرئاسة المهجع ارتياحاً كبيراً في نفوس من بقي معنا. فأصبحت رئيساً للمهجع وأشارك السخرة في إدخال الطعام، وآخذ نوبة في الحراسة الليلية. بعد يوم طلبني الرقيب أول الذي كان يقوم مقام المساعد عند مدير السجن إلى مكتبه، وقال لي: اليوم سأُدخل إلى مهجعكم شخصاً حقيراً أريد منك أن تراقبه وتعطيني تقريراً عنه.

قلت في نفسي: خسئت أيها التافه المجرم، تريد أن تجعلني سجاناً على السجين؟

بعد ساعتين أحضر الشخص، تعرفت عليه، وسألت عن مشكلته مع الإدارة فأخبرني أن أحد المخبرين ممن كان معه في الزنزانات الجماعية في الباحة الخامسة قد أوشى به إلى الإدارة..

قلت له: لا تحدث أحداً عن مشكلتك وكن طبيعياً..

فاتني أن أذكر أنه في الساعة الأخيرة لرحيل إخواننا إلى سجن آخر أراد المجرمون اذلالنا حتى اللحظة الأخيرة، فكانوا يفتشون أغراض كل سجين على حدة في الباحة الأولى ويطلبون من كل سجين خلع ملابسه باستثناء السروال الداخلي وبعد أن ينتهوا من تفتيشه يطلبون منه إنزال سرواله والكشف عن سوأته. حتى المسؤول الصحي لمهجعنا الذي دأب على خدمة الأوغاد، وبالغ في إغداق الأدوية عليهم لم يعفوه من التفتيش والكشف عن عورته.

* * 74 * *

يمر من أمام مخيلتي صور هائلة وذكريات لا تحصى، ابتداءً من مجزرة تدمر التي حدثني عنها أحد الأخوة، وأخبرني أنه عثر في أحد العوازل على قصيدة كتبها أحد ضحايا المجزرة، وكان الأخ قد حفظ القصيدة عن ظهر قلب، فقرأها عليّ، وكانت تعبر عن مقدار المعاناة التي عاشها ضحايا المجزرة، وضراوة التعذيب وقسوته التي سبقت المجزرة.

وتذكرت أنه في أحد المهاجع وعندما صافحت أحد الأخوة، قال لي: منذ زمن طويل لم يصافحني أحد، لقد كلفت هذه المصافحة بعض الإخوة ثمناً باهظاً أودى بحياة أحد الأخوة، وتحطيم أضلاع آخر نجا من الموت بأعجوبة، حيث شاهدهما أحد السجانين عبر الشراقة

يتصافحان فكان أن علمهما، قائلاً: تصافحون بعضكم، تحبون بعضكم.. سأفعل كذا وكذا بكم.

إذن.. أيام وسنغادر هذا المكان الذي لم يشهد مكان في التاريخ الإنساني مثله، شهد أبشع أنواع الظلم والإرهاب والتعذيب والطغيان.

سنغادر هذا المكان وقد تركنا قريباً من هذه المدينة الأثرية التي يقبع فيها هذا السجن الرهيب، هناك في وادي "عويضة " ما يقرب من عشرين ألف شهيد من خيرة أبناء سوريا الثكلى بأغلى أبنائها.. قدموا قرباناً لأعتى وأقذر طغاة العصر "حافظ أسد" ذلك المجرم الكبير.

ستتوالى عليّ الذكريات، وكلها سوداء قاتمة، ابتداء من وضع أول خطوة لنا في السجن ودخول أول باب من أبوابه وفرض حياة الإذلال من خفض الرأس وإغماض للعينين والجلوس وأيدينا إلى ظهورنا وتنفسات ملونة بالدم، وصرخات تشق أرجاء الفضاء..

كم شهدت جدران هذا السجن من مآس؟ وكم سطرت من صور مرعبة ومؤلمة وألوان من القهر؟ "يا إلهي " من يصدق أن أناساً عاشوا هذه الظروف بمثل هذه القسوة سيخرجون أحياء؟!!

كانت الدموع تملأ عيني مع فيضان الذكريات. ترى.. ماذا سنقول للأمهات اللواتي سيأتين يسألن عن أبنائهن حين اختطفتهم أجهزة القمع والإرهاب والبغي من بيوتهم، ولم يعودوا منذ ذلك الحين؟

لا زال الكثير من أهالي أولئك الشهداء يظنون أن ابناءهم قابعين في جوف هذا السجن الرهيب.. لا زالوا يأملون أن يروا أبناءهم أحياء.

أيام.. وستغدو هذه المهاجع فارغة، هذه المهاجع بحيطانها الكالحة التي امتصت أنات وآهات المعذبين المقهورين وعذابات المعتقلين على امتداد عشرين عاماً.. تلك العذابات التي لم تتوقف في يوم من الأيام.. تلك العذابات التي تلونت بالدم والروح والدموع كم.. وكم.. وكم شهدت هذه المهاجع من مآس وفظاعات؟؟؟ يا إلهي.. هل يعقل أن يصل حب السلطة وعبودية المال والجاه إلى أن يجعل من المخلوق الذي كرمه الله – سبحانه – وخلقه في أحسن تقويم، هل من المعقول أن يتحول هذا المخلوق الجميل إلى شيطان رجيم؟؟!!

دائماً يخشى الإنسان من الموت، ولكن الحر الكريم لا يخشى الموت بمقدار ما يخشى الإهانة والإذلال. إن إهانة الحر الكريم أشد وأقسى وأمر من الموت ملايين المرات..

خارج هذه المهاجع وداخلها كانت تمارس فيها شتى ألوان القهر والإذلال، حيث كنا نجبر على المشي شبه راكعين، ونجلس شبه ساجدين، والخوف يخيم فوقنا، وألوان من الحقد واللؤم تكوي نفوسنا قبل أجسامنا. اخفض رأسك يا كذا ..... أغمض عينيك يا ابن ال..... يديك وراء ظهرك يا ....

من أي مدرسة تخرج هؤلاء المجرمون؟ وأين تربت هذه الحثالة؟، إنها مدرسة الطاغية المجرم حافظ أسد ذلك الشيطان الذي يرتدي جلداً بشرياً.. كيف يطيق الناس النظر إلى ذلك الوجه المقزز؟ وكيف يقبل الناس مصافحة يد ذلك الجزار الحقير؟!! بل كيف يتقبل الناس ويطيقون مجالسة ذلك النتن الكريه البغيض؟؟؟!!!

أيام.. وسيمر السجانون فوق الشراقات على أسطحة المهاجع.. وينظرون عبر تلك الفتحات التي كانوا يصبون عبرها نار حقدهم وجحيم لؤمهم على أولئك الأسرى الذي لا حول لهم ولا قوة، ينظرون ولا يرون أحداً، فتملأ الحسرة قلوبهم، ويأكل الغيظ أكبادهم.. لقد تجردوا من تلك السلطة الوهمية التي كانوا يمارسونها على أولئك الأسرى الأبرياء.. أما الأسرى فسيخرجون من هذه المهاجع، ويعبرون الباحات والفرح يفيض من قلوبهم غير آسفين على مغادرة هذا المكان الذي سيغدو مجرد ذكرى أليمة.. كنت أتأمل جدران المهجع وشراقاته وسقفه.. أتأمل الباحات والأبواب الموصدة لمدة عشرين عاماً على روادها لا لذنب في عرف الإنسانية، وإنما لأنهم قالوا: لا، لا للطاغية، ولا للظلم، ولا للإرهاب، لأنها أرادت أن تحيا حياة كريمة.. لأنها أرادت أن تصنع فجراً بعد ليل اشتد ظلامه، فكان جزاؤها ما كان..

سأذكر دائماً أنا ركبنا الهول والمأزق
لأجل الدعوة العظمى وغير الفجر لم نعشق

أيام.. ونخرج من هذا السجن، نعم.. سنخرج، وحافظ أسد قد دخل السجن الأبدي لقد قهر (ربنا) رمزاً من رموز الضلال والإجرام، وكنا نوقن بذلك، وأنه سيأتي هذا اليوم الذي تطوي فيه يد القدر الحكيمة القادرة التي لا يعجزها شيء صفحة هذا الطاغية الجبان الذي عاث في وطننا فساداً وخراباً وتدميرا، وقد أتى.، فكان أن ألقي جيفة نتنة جبانة في حفرة لا تطيق احتضانه، فتشكو إلى خالقها قذارة من وضع فيها.. أين أنت يا حافظ أسد؟! ها نحن نخرج من السجن الذي زعمت أنه جحيمك.. خرجنا والأمل في نفوسنا. أما أنت فقد مت وماتت معك آمالك وأفضيت إلى مصير رعيب.

(إلى تدمر إلى أن نموت أو تموت)، ومت أنت.. قتلك ربنا القاهر الحكيم.. كم كنت غبياً أحمقاً أيها الطاغية الجبان حين ظننت أنك باق وأنك ستقتل كل من يهدد سلطانك ؟! ، فأين انت الآن، وأين سلطانك؟؟ يا له من مآل مخز ومخيف ذاك الذي أفضيت إليه!!

لا زلت أذكر قول أحد الإخوة الذين خرجوا إثر موت حافظ أسد، وهو يقول بإصرار: - نحن وأنت يا حافظ - والزمن طويل - إما أن تكسر رأسنا وإما أن نكسر رأسك..

صبرنا، وكلنا إيمان أننا سنخرج من السجن مهما طالت محنتنا ومهما اشتد لهيبها.. سنخرج لأننا نؤمن بالله رباً ناصراً ومعينا، سنخرج لأننا كنا نوقن بأن الله، سبحانه، معنا وسيحفظنا ويرعانا..

*   *   75   *   *

أنا واحد من هؤلاء المسلمين الثائرين

أنا من رضعت العز حين طفولتي ونهضت مرفوع الجبين

ما أخضعتني مدية الجزار أو ضيق السجون

من قوة الجبار تأتي قوتي

من سجدتي لله أرشف عزتي ومهابتي

روحي وناصيتي وأمر الكون يحكمنا الإله

أنا واثق في الخطو لا أرجو سواه

" شاعر المحنة "

كانت الدفعة الثانية قد خرجت يوم الخامس من آب ٢٠٠١ بعد مرور أسبوعين بالضبط على خروج الدفعة الأولى. فظننا أنه سيفصل بين الدفعة الثانية والثالثة أسبوعين أيضاً، ولكن حدثت المفاجأة المفرحة أنه بعد ثلاثة أيام وتحديداً يوم الثامن من آب ٢٠٠١بدأ الرقباء بقراءة أسماء الدفعة الثالثة ولحسن الحظ كنت من بينهم، فكدت أطير فرحاً.

كنت في الأيام القليلة الأخيرة التي استلمت فيها رئاسة المهجع عندما أخرج لإدخال الطعام، وأثناء تقديم الصف أو عندما يأتي الشرطي أو الرقيب لطلب ما من المهجع كنت أقف مرفوع الرأس وأنظر لوجه الشرطي أو الرقيب دون أن تداخلني ذرة من الخوف، لأنني، وباختصار، عشت طوال حياتي حراً، وصاحب قرار، وأمقت الظلم والعبودية ليس لنفسي

فحسب، وإنما لكل الناس، فلطالما كنت أقف إلى جانب المظلومين، وحرضت على التمرد على كل أشكال العبودية.

كان بعض الشرطة والرقباء ينظر إلى بحقد، وأنا أنظر إلى وجهه ويهددني، ولكن لم أكترث لذلك، والبعض الآخر يتجاوز ذلك وربما ابتسم معجباً بجرأتي، كان الحاقدون ربما يقولون في قرارة نفوسهم :(إن سجن تدمر بكل ما حمله لك من قسوة وإرهاب لم يؤثر في نفسك يا ابن الكذا) وأما البعض الآخر فربما كان يقول أيضاً في قرارة نفسه: (يا له من أبيّ) إن كان يعرف معنى الإباء، أو ربما كان فقط يتعجب من جرأتي..

جهزت أغراضي وبدأت أنتظر فتح الباب. كنت أتمنى أن أخرج مع جميع من بقي في المهجع، ولا يبقى أحد في سجن تدمر، بالرغم من تبدل الأحوال، وأن الآخرين سيغادرون خلال أيام لا محالة، ومع ذلك تألمت لبقاء بعض الأخوة ولو لأيام..

تقدمت من بعض الإخوة الأعزاء، واحتضنا بعضنا راجياً لهم أن يلحقوا بنا خلال أيام قليلة، في حين تقدمت من أبي محمد كريشان ممازحاً – آه، أبا محمد.. انظر إلى الطحينة والسكر والتمر و.. و.. يا لك من محظوظ، بإمكانك أن تأكل على مدار الساعة وتسرف في كل ما بين يديك بدون حرج.

نظر أبو محمد كريشان باتجاه آخر ووجهه محتقن يكاد الدم يخرج منه، وتكاد عيونه تخرج من محاجرها، وقال: الله يخرب بيتك يا (تركي علم الدين).

بسيطة أبو محمد، أيام وتلحق بنا.

خرجنا من المهجع، والبعض لا يزال يحني هامته، كنت أقول لهم: ارفعوا رؤوسكم وافتحوا عيونكم يا حضرات، وكأن البعض اعتاد حياة الإذلال والمهانة كنت متضايقاً لسلوكهم ذاك..

حين دخلت على الرقيب أول، وقفت أمامه مرفوع الرأس أنظر إلى وجهه الذي كان يفيض بالحقد واللؤم، ثم قال لي: أنت...؟! ماذا عن الشخص الذي أدخلته إلى عندك ...

قلت له إن التقرير الذي رفع فيه كله افتراء، والرجل لا يملك حتى ابتدائية فهو من البساطة بحيث لا يدرك من معاني السياسة شيئاً.

قال لي: هل تريد شيئاً؟ قلت: لا.

أما في نفسي، فقلت: أيها الغبي اللئيم لو سلخت جلدي لما آذيت أحداً، ولو قطعت أوصالي فلن أسمح لك أن تنال مني في أن أكون لك عوناً على أحد رفاقي.

جمعونا في عدة مهاجع، وفي المهجع الذي دخلت فيه التقيت بعضاً من إخواني الذين كنت أعرفهم، وعلى رأسهم رفيق دربي (الطبيب) احتضنا بعضنا، وبدأنا نتحدث بشوق عن كثير من الأمور، ولكن أهم ما لفت

نظرهم هو نحافتي الشديدة، فكانوا يسألونني إن كنت مريضاً، فأجبتهم: لا.. ولكنني كنت أمارس الرياضة وأتناول القليل من الطعام، لأني شعرت منذ شهور بأن جسمي قد ترهل قليلاً كما عانيت من نزيف بسبب البواسير.

* * 76 * *

في الليل أخرجونا إلى الباحة، وجاء مدير السجن (أبو الشوارب) ليلقي علينا خطابه الأخير.. لم أكترث أبداً لمجيئه ولا لخطابه. كنت أنظر في السماء أتأمل النجوم الموزعة بشكل بديع، وكأنني أراها لأول مرة في حياتي. يا إلهي: ما أجمل السماء! كيف كان يمر علينا هذا المنظر البديع دون أن نتأمله طويلاً! كم هو جميل هذا الفضاء حتى في ظلامه !.

إنها ليلة من ليالي الصيف في جو صحراوي يمتاز بعذوبة لياليه في هذا الفصل اللاهب. كانت نسمات الهواء الرائعة تصافح وجهي، وكأنها أم حنون تقبل وجه ابنها الذي غاب عنها طويلاً، فينتشي الولد من تلك القبلات التي تزرع في فؤاده الحب والنماء، فتنعكس على النفس برداً وسلاماً وراحة منقطعة النظير، فيشعر معها وكأنه طائر له جناحان حلق بهما في طبقات الفضاء.

كنت أنظر مرة إلى وجوه إخواني لأرى وجها أعرفه وأخرى أنظر فيها إلى السماء أتأمل جمالها وروعتها، ولا ألقي أي بال لما يقوله مدير السجن في الدقائق الأخيرة من عمر السجن الرهيب.

بقلم: أبو براء..

تركيا. مخيم كلس – آذار ٢٠١٣